زهران القاسمي

تغريبة القافر

رواية

مكتبة ١١٦١

تغريبة القافز
1161 | مكتبة
t.me/soramnqraa

زهران القاسمي

مكتبة | 1161
t.me/soramnqraa

تغريبة القافر

رواية

الكاتب: **زهران القاسمي**

عنوان الكتاب: **تغريبة القافر**

خط الغلاف: **الفنّان سمير بن قويعة**

صورة الغلاف: **الفنّان حسين المحروس**

تصميم الغلاف: **الفنّان حسين المحروس**

ر.د.م.ك: **978-9938-74-000-4**

الطبعة الأولى: جانفي 2022

حقوق الطبع محفوظة للناشر ©

دار رشم للنشر والتوزيع

تونس: 24 نهج راضية الحدّاد، العمارة عدد 11، الطابق الثاني، تونس العاصمة

البريد الإلكتروني: rashmpublishing@yahoo.com

الهاتف: 0021621512226

السعودية: عرعر - حي الجوهرة- شارع الخمسين

الهاتف: 00966-547094709

https://rashm-store.com

الإيميل: rashm.ksa@gmail.com

منشورات ميسكلياني

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس

الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات

الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

إلى عزا زايد

الفصل الأوّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

«غريقة.. غريقة..».

ارتفع صوتُ الطّارش في بلدة المسفاة وهو يطرق الأبواب ويصيح بالنّاس:

«غريقة.. غريقة.. حدّ غرقان في طوي لخطم..».

سمعت النّساء صوت الطّارش، فتفقدّن أطفالهنّ في أرجاء البيوت والحيشان، وبدأت امرأة في وسط الحارة بالصّياح والعويل لأنّها لم تجد ابنها ذا العشر سنوات بالجوار، وشبّ نزاعٌ بين امرأتين في سكّة بين بيتين، لأنّ طفلَ إحداهما خرج منذ الصّباح الباكر مع طفل الأخرى ولم يعودا.

قامت عجوز معمّرة وحاولت اللّحاق بالطّارش مُتّكِئةً على هراوتها، وهبّ شابّ قصير من استلقائه وخرج يركض ولم يتوقّف إلّا عند البئر، وسُمِع زعيق وصياح في طرف القرية، نباح كلبٍ في الحارة الأخرى، صرقعة دجاجات في ضواحي النّخل، ونهيق حمير في عمق الوادي.

تسابق الشّباب ليعينوا الطّارش وينقلوا الخبر إلى البيوت

البعيدة. الجبال تُردّد صدى صوت طبلٍ ضخم، الرّيح الغربيّة بصفيرها تهبّ ساخنةً لتلفح الوُجوه وتعصف بسيقان الشّجر، وأصوات كثيرة تتداخل لينقلب سكون الظّهيرة القرويّ إلى حالةٍ من الهياج.

ضاقت السّكك الهاجعة واكتظّت بأقدام أهل القرية وهم يتّجهون مُسرعين ناحية البئر.

الطّارش الّذي هزّ القرية كان حمدان بن عاشور القاطن في بيتٍ بجوار البئر، وذلك بعد أن طرق الشّايب حميد بو عيون بابه وقال له:

- صيح بالنّاس في البلاد، عندنا غريقة في الطوي.

في ذلك اليوم، تناول حمدان وجبة غدائه متأخّرًا عن عادته، لأنّه عاد مُتأخّرًا من القرية المجاورة، وكان قد ذهب إليها منذ الصّباح الباكر باحثًا عن بذور بطّيخ وصفها له أحدُهم قائلًا إنّها أفضل بذور، وإنّها لا تُوجد إلّا مع رجلٍ يقيم في القرية المُجاورة. وظلّ حمدان في بيت الرّجل، وانتظره كثيرًا حتّى وجد المكان الّذي خبّأ فيه البذور، وعندما عاد وبسط غداءه، لم يُكمل بضع لُقيمات حتّى سمع الشّايب حميد بو عيون يُناديه ويطرق بابه، ولمّا خرج وجده يرتعش كأنّ الخبر الّذي يودّ أن يخبره به سيُودي بحياته.

في أوّل الأمر ارتبك حمدان، إذ كانت تلك المرّة الأولى الّتي يتكفّل فيها بمهمّة الطّارش، لكنّه ما لبث أن خرج من بيته حافيًا،

حاسرَ الرّأس، لا يرتدي إلّا قميصه القصير وإزارًا، ومضى يطرق الأبواب ويصيح في السّكك بصوته الجهوريّ «غريقة.. غريقة».

لقد أطلَق النّاس تسمية بوعيون على الشّايب حميد لحدّة بصره ودقّته. حدث ذلك أثناء شبابه، ولكنّ بصره ظلّ حادًّا رَغم بُلوغه الثّمانين. إنّه يرى في البُعد ما لا يراه الآخرون، وهُو قادرٌ على معرفة القادم من بعيدٍ، وعلى تبيّن حيوانات أهل القرية الّتي تسرح بعيدًا في الجبال والسُّيوح المتاخمة، فيعرفها ويعرف صاحبها.

كانت من الصّدف الغريبة أن يمرّ بـ«طوي الخطم» في تلك الظّهيرة، فهي ليست في طريقه إلى البيت. ولعلّه من الغريب أيضًا أن يُلقي بنظره إلى قعرها كأنّ صوتًا قد أمره بذلك، فيرى تحت صفحة الماء القاتمة شبحَ إنسانٍ، ويُضيّق جفنيه حتّى يكاد يغلق عينيه، ثمّ يظلّ على حاله مستغرقًا يرقب ماء البئر حتّى تتكشّف له الحقيقة.

رأى هُناك جثّةً طافية، إنسانًا غريقًا، فمسح عينيه جيّدًا، ثمّ أعاد فَتْحَهُما، وأمعن النظر، فتيقّنَ ممّا رآه، لكنّه لم يستطع معرفة هويّة الغريق بسبب عُمق البئر وعتمتها.

كانت ظهيرةً صيفيّة متوهّجة، فالهواء الغربيّ وجفاف الوديان جعلَا المكان لا يُطاق في تلك السّاعة. وعلى الرّغم من أنّها ساعة سكينةٍ يظلّ النّاس فيها مُستلقين تحت الأشجار بعد أن يُبلِّلوا الأرض الطّينيّة بالماء ليتطلّف الهواء، فإنّ الخوف دبّ في قلوبهم، وزاد فضولُهم لمعرفة هويّة الغريق الّتي لم يكشفها الطّارش، فترك الجميعُ أماكنهم الظّليلة، وخرجوا إلى البئر مُهرولين.

ساد الضّجيجُ المكانَ، وقد تحلّق النّاس حول البئر يتساءلون عن الغريق: من هو؟ ما الّذي حدث له؟ لماذا لم يره أحد وهو ينزل البئر؟ عمَّ كان يبحث؟ هل هو من أهل القرية أم واحد من الغرباء؟ من الّذي عثر عليه وكيف رآه رغم عمق البئر؟ هل سقط وَحْدَهُ أم هناك من دفعه؟ أسئلةٌ كثيرةٌ تبعثرت من أفواه الحاضرين، وكلّ واحدٍ يريد معرفة ما حدث.

احتشدَ النّاس على هذا النّحو: يأتي الواحد منهم مُهرولًا، يُحدّق في الظّلال القاتمة وفي عمق المياه حتّى تنجلي له صُورة شخص مّا في القعر، شخص لا يتمكّن أحد من تبيّن ملامحه ولا جنسه، وهكذا دواليك.

قالت امرأةٌ وهي تُغطّي فمها بلثام:

- كأنّها خلقة.

وقال شابّ في العشرين من عمره:

- ما شفت حدّ غرقان.

وهزّ رجلٌ طاعنٌ في السنّ رأسه وهو يردّ على الشّابّ:

- محدّ غرقان غيرك.

فنكس الشّابّ رأسه خجلًا وصمت.

عمق البئر يتطلّب أن يهبط فيها رجل ذو خبرة، لأنّ أيّ انزلاق سيُودي بحياته، لا سيّما أنّ قعرها صخريّ وليس مستويًا تمامًا،

لذلك كانت مهمّة الطّارش الثّانية أن يُحضِر متطوّعًا ليهبط إلى القعر.

كان سيف بن حمود مِن أوّل مَن سَمعُوا صراخ الطارش، فجاء مباشرةً من بيته بلا إبطاء، وسيف رجلٌ جهم، طويلٌ بجسم قويّ، مفتول العضلات، معروف في القرية بأن لا معضلة تقف في طريقه إلّا ووجد لها حلًّا، لذا لم يكن في حاجةٍ إلى أحد يطلب منه الهبوط إلى البئر وانتشال الغريقة، إذ توجّهت الأنظار إليه بشكلٍ تلقائيّ.

لكن عندما نزل سيف بن حمود مُتدلّيًا بالحبل وغاص تحت ماء البئر، اصطدم نظره بعيني الغريقة المفتوحتين كأنّهما تنظران إليه بغضب، فاهتزّ من الخوف والهلع وكاد يَشرق بالماء ويَغرق. وبعد ذلك شدَّ الحبل بقوّةٍ وصرخ بهم طالبًا منهم إخراجه. وعندما وصل إلى فم البئر، كان يرتجف وهو يهذي:

- الغريقة تشوف، الغريقة تشوف، كلتني... كلتني عيونها.

ثمّ فرّ هاربًا إلى بيته وأغلق الباب على نفسه وتدثّر ببُرنس الصّوف الثّقيل.

أدرك الشّايب عريق أن لا أحد يقدر على الهبوط إلى قعر البئر غير شخصٍ يُسمّونه الوعري، فقال لهم «عليكم بالوعري».

والوعري سلام ود عامور صاحب قلب شجاع لا يخاف البتّة، فهو لم يتوان قطّ عن فعل شيء طُلب منه أو قرّره من تلقاء نفسه. يتسلّق النّخيل العالي والقمم الصّعبة أو يهبط إلى أمّهات الأفلاج

الغائرة في العمق والآبار القديمة ذات القعور العميقة. ويقضي ليالِيَ في الجبال وحيدًا لا يصاحبه أحد، وفي معظم الأوقات لا يختلط بالنّاس.

تطوّع رجل لإبلاغه، فذهب راكضًا إلى حيث دأب ود عامور أن يقيل في مزرعته الصّغيرة، بعيدًا عن الحارات والنّاس. وكان قد ألقى برأسه على وسادة حمراء صغيرة، وأغمض عينيه وبدأ في تلذّذ النّعاس، ولكنّ الرّجل وصل إلى حدود المزرعة وبدأ يصرخ بأعلى صوته «اووووو الوعري»، فهبّ من رقدته ليرى ما يحدث، إذ هي المرّة الأولى الّتي يناديه فيها رجل بهذه الطّريقة أو يقترب فيها أحد من حدود مزرعته في ذلك الوقت من النّهار.

خرج بعينين محمرّتين وشعر منكوش ولحية كثّة، وهي الهيئة نفسها الّتي لطالما أضفت عليه شيئًا من الغرابة جعلت النّاس يتوجسّون منه ويهابونه.

أخبره الرّجل بما حدث، فهبّ مسرعًا من دون أن يعود إلى الدّاخل للبس حذائه، ركض حافيًا ولم يتوقّف إلّا عند البئر.

عندما وصل وضع رِجلًا على حافّة البئر ثمّ وضع الأخرى على الحافّة المقابلة، وفتح رجليه وأمسك بالحافّتين بيديه وبدأ يهبط حتّى وصل قريبًا من صفحة الماء. حينئذٍ تناول الحبل المتدلّي من فوق، ثمّ أخذ نفَسًا عميقًا، وقفز إلى القاع، وغاب.

استمرّ في غيابه طويلًا، كان قلقُ المنتظرين عند حافّة البئر يزداد، بينما كان هو يلفّ الحبل جيّدًا حول الجثّة كي لا تسقط عند سَحْبِها.

وعندما رأى عينيها المفتوحتين مدّ يده وأسدل عليهما الأجفان، أغمضهما وهو يحوقل ثمّ باشر بإخراجها. صرخ بهم من عمق البئر أن يسحبوا الجثّة وظلّ مكانه حتّى تيقّن من أنّها خرجت، وصعد متسلّقًا الحجر دون أن يطلب مساعدة.

أُخرجت الجثّة وأُسجيت قرب حافّة البئر. وارتفع العويل حالما تعرّف الناس عليها. كانت جثّة مريم بنت حمد ود غانم. تشكّلت حلقة من النّساء حولها، بعضهنّ يبكين بصمتٍ وبعضهنّ ينُحن.

«غابت مريم».

كان زوجها عبدالله بن جميّل حاضرًا، فاقترب منها وبقي ينظر إليها غير قادرٍ على تصديق ما حدث، فما الّذي جعل زوجته الّتي تخاف الاقتراب من حدود الآبار، تقترب حتّى تسقط وتغرق في هذه البئر العميقة؟ لكن ها هي مسجّاة أمامه على الأرض، مغمضة العينين، الماء ينزّ من جسدها، وقد انزاحت وقايتها عن رأسها والتفّت حول رقبتها مثل حبل.

وكما جرت العادة سارعوا بغسلها وتكفينها لتُدفن في مقبرة القرية. وبينما كانت النساء يُكفِّن مريم صرخت خالتها عايشة بنت مبروك فجأةً:

«في بطنها حياة.. في بطنها حياة».

فتحسّست إحداهنّ بطنها وشعرت بحركة الجنين تحت يديها، فقامت تنتفض من الارتباك.

ساد الوجوم وجوه النّاس الحاضرين، ما الّذي يتوجّب عليهم فعله؟ هل يجوز فتح بطن الميّتة واستخراج جنينها أم يجب أن يُدفن معها؟

تضاربت الآراء وساد الهرج واللّغط بين النّاس، لكنّ الشّيخ حامد بن علي، وهو الرّجل الفقيه الّذي يستمع إليه كلّ النّاس، قال لهم وقد هبّ من جلسته في الطّرف القصيّ من الحضرة:

«بو فبطنها أولى به الدّفن».

اتكّأ الشّايب حميد بو عيون على جذع نخلةٍ، وتحدّث كأنّه يُكلّم نفسه، ولكن من الواضح أنّه قصدَ بكلامه الشّيخ حامد:

- أيش وازنك تحرّم وتحلّل فأرواح النّاس.

سمع الشّيخ حامد كلامه فنظر إليه بغضبٍ وقال له:

- الشّرع يقول كذا.

فنقر الشّايب بو عيون بعصاه الأرض الطّينيّة بين قدميه، وردّ:

- الشّرع هذا تتحمّله فعنقك إلى يوم القيامة.

غضب الشّيخ حامد من كلام بو عيون وزادت حدّةُ صوته وهو يصرخ فيه:

- وانت مو دخّلك فشي ما تعرفه؟

وعندئذ قام بو عيون من مكانه واتّجه إلى حيث يقف الجميع حول الشّيخ حامد بن علي وقال وهو يشير بعصاه ناحية الجثّة المسجّاة:

- لكن هذي حياة، تدفن إنسان حيّ في التّراب وتحكم عليه بالموت، وتقول شرع؟

وفي خضمّ النّزاع القائم، وغفلة النّاس، سحبت كاذية بنت غانم سكّينًا من حزام أحد الحاضرين، ورفعت ثوب الغريقة، وشقّت بطنها ثمّ أدخلت يديها لتخرج الطّفل من الرّحم، وما إن قطعت حبل المشيمة ورفعت الطّفل كما تفعل أيّ قابلة متمرّسة، حتّى سمع الجميع بُكاءه.

وعندما انتبه النّاس إلى بُكاء الرّضيع التفتوا إلى مصدر الصّوت مُندهشين، فابتسمت في وُجوههم، ابتسمت وسط الفجيعة وردّدت وقد ملأت الدّموع عينيها:

«محلاه... صلاة محمّد السّلام... يُخرج الحيّ من الميّت، يخرج الحيّ من الميّت، يُخرج الحيّ من الميّت».

***

جرَتْ العادة أن يُذكر اسم مريم بنت حمد ود غانم كاملًا، فلا يُمكن أن يُقال مريم فحسب ولا مريم بنت حمد، بل يجب أن يُذكر الاسم تامًّا، ولذلك أسباب عديدة أهمّها أنّ في قرية المسفاة الكثير من النّساء المُسمّيات بمريم، فهناك مريم بنت إبراهيم، ومريم الجلولة، ومريم الصّايغة ومريم حليسا مليسا، وغيرهنّ كثيرات، وبينهنّ أكثر من واحدة اسمها مريم بنت حمد، لذلك لو قال قائل «مريم بنت حمد» ثمّ سكت، سيأتيه السّؤال مباشرةً «من مريم بنت حمد؟».

ومريم الغريقة هي زوجة عبدالله بن جميّل، «البيدار» الّذي يعمل في الضواحي، فيقضي جلّ وقته في سقي النّخيل والاعتناء بالمزروعات، ويعطيه أصحابُها ثمنًا لجهده حسب الاتّفاق، أو جزءًا من الثّمار عند جنيها.

على التلّ الجبليّ لضاحية «القعتة» أُقيم بيت عبدالله بن جميّل وحيدًا متفرّدًا تحيط به النّخيل والمزروعات، وتحت التلّ مباشرةً تنتصبُ شجرة «سوقم» عظيمة ومعمّرة، يمرّ تحتها درب المشى الجبليّ إلى الجهة الأخرى من القرية، وخارج الضّاحية توجد سدرة تظلّل المكان، ما جعله ملائمًا لإقامة حظيرة الأبقار والأغنام الّتي تعتني بها مريم.

تقع ضاحية «القعتة» على الطّرف القصيّ من ضواحي القرية، ولذلك هي تضجّ في أوقات المحْلِ والجفاف بأصوات المناجير، ففي الجانب المقابل لها تقع «طوي الخطم» وعلى شمالها «طوي البحرين» الّتي تعمل المناجير فيها ليلًا ونهارًا لاستخراج الماء، وكان يطيب لمريم بنت حمد ود غانم أن تنام ليلًا على أصوات تلك المناجير إذ تصل موسيقاها شجيّةً إلى مسمعها وتُشعرها بالهدوء والسّكينة فتغفو على ذاك الشّجن العطش تاركةً كلّ منجور من تلك المناجير يطرز اللّيل بصوته الشجيّ.

لا يجاور بيت «القعتة»، كما تعارف النّاس على تسميته، سوى مقبرة قديمة اندثرت حجارتُها وتناثرت على السّفح، وهو ما منح البيت العزلة والهدوء، فكان لا يُطرق بابه إلّا للضّرورة،

ومع ذلك ظلّت أصواتُ المارّين تبلغ البيت من الدّرب الممتدّ على الجهة الأخرى، جاعلةً المكان مستأنسًا وأقلّ وحشة، رغم المقبرة وحكايات ساكنيها.

في النّهار يطيب لسالكي الدّرب أن يستريحوا تحت شجرة «السوقم» ويتناولوا بضع تمرات وفناجين من القهوة، يضعها بن جميّل لهم، بينما تتعلّق القربة على أحد أغصانها باردةً تنتظر ضمآنَ ليفتح فمها ويدلق الماء إلى جوفه.

عادة ما تأخذ مريم إناءً لتملأه بالماء من الفلج الّذي يستقي منه أهالي القرية، فتصعد الممرّ الجبليّ حتّى تبلغه فتأتي بما تحتاج إليه من ماءٍ للشّرب والطّهي والتّنظيف وسقي الماشية، ورغم صعوبة الطّريق فإنّها كانت تذهب مرّاتٍ عديدةً في اليوم الواحد، مرّةً في الصّباح الباكر وأخرى قبل الظّهيرة، ثمّ ثالثةً عصرًا، وقد تضطرّ أحيانًا إلى أكثر من ذلك، فتصعد الممرّ الجبليّ وتهبط منه باطّراد، حتّى تأخذ كفايتها من الماء.

كانت مريم أفضل من يطرز الثّياب في القرية، لها يدٌ خفيفة، سريعة، ومُتقِنة لصنعتها، فغارت منها النّساء الأخريات، لكن لم يستطعن مجاراتها، ولذلك ظلّت الأُسَرُ الميسورة تعهد إليها بتطريز الثّياب، فتأخذ مقابلًا لعملها يكفيها وزوجها للعيش في غنًى عن أيّ إحسان.

استمرّت حياة مريم بنت حمد ود غانم في هدوء وراحة، ولم يكدّر صفوها شيء، فمنذ انتقالها قبل خمس سنوات للعيش في

ذاك البيت، لم تعرف من عبدالله بن جميّل إلّا التّقدير والكثير من المحبّة.

لكنّ حملها تأخّر سنواتٍ عديدةً، فبدأت النّساء يعزون ذلك إلى وحشةِ المكان ومجاورتِه القبور، واقترحت واحدة من زبوناتها أن تقدّم النّذور، ونصحتها أخرى بأن تُطلق البخور ساعات الغروب قُرب المقبرة، إلّا أنّ مريم بنت حمد ود غانم لم تكترث بكلّ ذلك ولم تطبّق من تلك الاقتراحات سوى مقترح تبخير المكان كلّما أرادت.

قبل أشهر، انقطع دمها، وبدأ بطنها في البروز، فذهبت إلى شمسة بنت خليفة القابلة العجوز، الّتي تلجأ إليها نساء القرى، ففحصتها وأكّدت لها أنّها حامل.

قبل حملها بأشهر اعتراها صداعٌ مزعج، فعزت ذلك إلى قضاء وقتٍ طويل في تطريز الملابس، وكانت كلّما اشتدّ عليها الصّداع تركت ما في يدها واستلقت قليلًا. لكنّها منذ أن حملت صارت تسمع داخل رأسها طرقاتٍ هائلةً، زعمت أنّها تكاد تفلقه، وعندما تنام تحلم بزنديْن كبيريْن يحملان مطرقةً ضخمة ويهويان بها على صخرةٍ صمّاء.

وظَلَّ الحلمُ ذاتُه يتكرّر كلّ ليلة فتصحو ورأسها يكاد يتهشّم، ولا تكاد تقوى على حمله من ثقله وشدّة الألم.

ثمّ لاحظت أنّ صداعها يخفّ إذا أغمضت عينيها، وعندما نزلت مرّةً إلى حوض الماء بجانب البئر وغاصت تحت الماء

لاحظت أنّ الصّداع اختفى تمامًا، لكنّه كان يزداد كلّما جلست إلى خياطتها، فتحوّلت اليد الّتي كانت سريعة، متقنة، إلى يد بطيئة وضائعة في أشهر الحمل، وهو ما جعلها تُقرّر التوقّف حتّى يخفّ صداعها أو تنتهي فترة حملها، فذهبت زبوناتها مضطرّات إلى نساء أخريات.

لكنّ مشهد الطّرق الّذي كانت تراه في منامها انتقل إلى يقظتها، فأصبحت من حين إلى آخر وهي تمشي في جوانب البيت مثقلةً بحملها، تتراءى لها اليدان وهما تهويان بالطّرق على الصّخر، فيزيد صداعُها ولا تستطيع الوقوف، لذا تجلس أو تستلقي حتّى يهدأ أو يذهب عن ناظريها مشهد الطّرق. ولقد أخبرت زوجها بما تراه في منامها ويقظتها فعزا ذلك إلى شدّة الصّداع.

جرّبت مريم بنت حمد ود غانم أنواعًا كثيرة من الأدوية، إلّا أنّ أيًّا منها لم ينفع، فأحضر لها عبدالله بن جميّل حمدان المداوي، ولمّا استمع إليها ونظر إلى حالتها قال إنّها مصابة بالشّقيقة ولا بدّ من كيّ رأسها في مواضع عديدة. وحين لاحظ فزعها أكّد أنّ عليها أن تصبر لحرق النّار لأنّه «صبر ساعة ولا عوق دوم»، فوافقت على كلامه بلا تردّد، الأمر الّذي جعله يضع «ميسمه» على الجمر حتّى صارت حديدته حمراء مثل جمرةٍ متّقدة، ثمّ بدأ في حرق فروة رأسها في مواضع مختلفة، في القفا وعلى جوانب الرّأس أعلى الأذنين وفوق الجبين وفي قمّة الرّأس.

صبرت على الوجع والحديدة تكوي رأسها، ولكنّ الحروق

سبّبت لها حمّى، فسقطَتْ بسببها طريحةَ الفراش أسبوعًا كاملًا، ولازمتها عمّتها كاذية بنت غانم وما فتئت تضع كمّادات الماء على جبينها والمراهم اللّازمة على الحروق حتّى بدأت في التّعافي قليلًا.

شُفيت من حروق الكيّ، لكنّ الصّداع لم يلبث أن عاد بشدّة، فصارت تحتال عليه بوضع رأسها داخل دلوٍ مملوءةٍ بالماء. فبعدما لاحظت وهي تستحمّ في حوض البئر أنّ الصّداع يذهب تمامًا كلّما أدخلت رأسها في عمق الحوض صارت تدخل رأسها في الدّلو لينزاح الطّرق العنيف على جانبيْ رأسها مثل رملٍ يزحف على صخرةٍ ملساء، فتشعر به وهو ينقشع، وعندما تفقد قدرتها على حبس أنفاسها تُخرج رأسها وتزفر الهواء ثمّ تأخذ نفسًا عميقًا وتُعيد وضعَ رأسها داخل الدّلو.

كان الصّداع يُمهِلُها مُدّة لا بأس بها، فترتاح منه قليلًا ثمّ يعود تدريجيًّا مثل طرقٍ في البعيد تسمعه وتُتابعه وهو يقترب رويدًا رويدًا حتّى يصمّ أذنيها عن سماع شيءٍ غيره.

وذات مرّة وهي تنزل درج بيتها لتّتجه ناحية الفلج، شاهدت رجلًا غريبًا يجلس تحت «السوقمة» وقد بسط أمامه التّمر وأخذ يتلذّذ بأكله ويرشف القهوة.

سلّمت عليه ومشت في طريقها، لكنّه رأى ترنّحًا خفيفًا في مشيتها وشاهد العصابة الّتي عصبت بها رأسها، فاستوقفها قائلًا:

- تريدي دوا حال الصّداع؟

التفتت ناحيته والتعجّب بادٍ على وجهها، ثمّ سألته:

- مو درّاك بصداعي؟

أجابها وهو يلتقط حبّات تمر من الصّحن:

- كلّ شي باين على وجهش.

- من أنته؟

- أنا مترحل أبيع دويات وطبوبات بين البلادين.

- شي عندك دوا للصّداع؟

ما إن ألقت سؤالها حتّى وضع الرجل فنجان قهوته، ثمّ تناول صرّة كبيرة موضوعةً على يمينه. واستخرج علبة معدنيّة صفراء، فتح غطاءها وأخرج منها مادّة لزجة، وضعها في كفه ثمّ مدّها ناحية مريم وهو يقول:

- جرّبي هذا الدوا.

فتحت مريم كفّها فأعطاها المادّة، ثمّ علّمها كيف تضع قليلًا منها في فتحة أنفها وتستنشقه بقوّة حتّى تصل المادّة اللّزجة إلى داخل الأنف، وأخبرها بأنّها ستعطس كثيرًا لكنّ الدّواء سيفتح مجاري العروق ويعالج الصّداع.

استنشقت الدّواء، وكانت رائحته نفّاذة وعطريّة، فشعرت أوّل مرّة باسترخاء في وجهها وفي الجيوب الأنفيّة، لكنّ المادّة سرعان ما تغلغلت داخل الأنف وأخذت تهيّج أغشيته جاعلة مريم تعطس

بشدّة حتّى إنّ عينيها سفحتا الكثير من الدّموع واحمرّتا مثل جمرتين متّقدتين.

وما إن هدأ التهيّج وتوقّفت مريم بنت حمد ود غانم عن العطس حتّى خَفت صداعها وغاب.

لقد شعرت بتحسّنٍ حقيقيٍّ كأنّ رأسها قد فُتِح وأُخرجت منه أكوامٌ كانت تثقله، فصار خفيفًا بشكلٍ لم تعهده من قبل.

اشترت منه العلبة، بعد أن أخبرها كيف تستخدم الدّواء ومتى، وحاولت أن تدعوَهُ إلى الغداء لكنّه رفض وتحجّج بأنّه على عجلةٍ من أمره وأنّ من واجبه الوصول إلى بلادٍ بعيدةٍ لم يُسمّها، لعلاج مريض أعيت حالتُه أهله.

وبعد أن شرب كوب ماء من «الجحلة» المعلّقة على غصن «السوقمة» تناول أشياءه ورحل من دون أن تنتبه وتسأله عن اسمه والبلد الّذي جاء منه.

منذ بدأت مريم تستخدم ذلك النشوق اللّزج غاب الصّداع واختفى تمامًا، وكانت كلّما شعرت بعودة الآلام بين فترة وأخرى تأخذ قليلًا منه تطرد به الصّداع.

بعد مدّة انتهى ما في العلبة من نشوق، وبدأ الصّداع يعود إلى رأسها بدقّات خفيفة أخذت تشتدّ وتزداد مع الأيّام حتّى صارت حالتُها أسوأ ممّا كانت، وما انفكّت تنوح وتبكي حَظَّها العاثر، وتلوم نفسها على أنّها لم تسأل ذاك الطبيب الرحّال عن اسمه وبلده.

في الأشهر الأخيرة من الحمل، وصلت إلى حالة شديدة من التشتّت والضّياع، بين أوجاعها وحملها وواجبات المنزل، فأصبحت تمشي ببطء وتحمل الأشياء بيدين مرتعشتين، ثمّ صارت تقضي وقتًا أطول منكّسةً رأسها داخل الدّلو.

دخل عليها عبدالله بن جميّل مرّةً فوجدها على حالتها تلك، راقبها فلم يرها تتحرّك، خُيّل إليه أنّها لفظت أنفاسها ورأسها في الدّلو، فهرع لينتشله منها إلّا أنّ زوجته تحرّكت وقد أثارها وجوده ففزعت من حركة يده المباغتة وكادت تشرق بالماء. أخرجت رأسها وهي تكحّ، والماء يخرج من فمها وأنفها وعينيها الحمراوين، ويسيل على وجهها ونحرها.

لم تعد الحياة تعني لها شيئًا أكثر من البحث عن مسكّنات للضّجيج الّذي تعيشه، فبدأ كلّ من يزورها يقترح عليها وصفةً أو عشبةً أو طريقة.

جرّبت كلّ شيء، لكنّ الصّداع أبى أن يهدأ إلّا حينما تغطّس رأسها في الماء.

فقدت اهتمامها ببيتها، ولم تعد تكترث بمن حولها، وصارت غارقةً في أوجاعها وأنينها، تنوس برأسها وهي جالسة حتّى تصل به إلى الأرض كأنّها غارقة في صلاة صوفيّة، تتمتم بكلمات غير مسموعة ولا تنام إلّا نادرًا ولأوقات قصيرة جدًّا، فما إن تغفو عيناها قليلًا حتّى تصحو ممسكةً برأسها الثّقيل وكأنّه حصاة كبيرة يكاد الماء المختزن بداخله ينفجر.

فقدت مريم بنت حمد بن غانم أمّها وهي صغيرة، فتربّت في حضن خالتها عائشة بنت مبروك إذ كانت تسكن في بيتٍ مُلاصقٍ لبيتهم، وقبل فَقْدِ الأمّ كان فَقْدُ الأب الّذي سافر إلى زنجبار وهي بنت ثلاث، ومات في البحر جرّاء عاصفة قويّة ابتلعت السّفينة بمن فيها. فعاشت الفتاة طفولتها تتنقّل بين بيت خالتها وعمّاتها الثّلاث اللّاتي يسكنّ في الحارة نفسها، تنادي كلّ واحدة منهنّ بأُمّي، وتنهل من حنانهنّ جميعًا، ومع أنّ خالتها هي من تكفّلت بتربيتها وهي صغيرة، كانت مريم تحبّ أن تقضي الكثير من الوقت في بيت عمّتها كاذية بنت غانم.

عندما احتلّ رأسها ذلك الصداع العنيف قامت أمّهاتها بأمور بيتها، فكنّ يطبخن لها وينظّفن البيت ويعتنين بالمواشي ويجلبن الماء من الفلج، يأتين من حارتهنّ متناوبات أو يلتقين معًا ليكملن اليوم كلّه معها. يدلكن رأسها، ويضمّخنه بمسحوق السدر لعلّه يبرد قليلًا، فيهدأ صداعها. ويجرّبن معها روائح النّباتات والعطور لعلّ بعضها يأتي بنتيجةٍ. لم يتركن حيلةً ولا دواء، ولكنّ الصّداع كان يتمادى أكثر فأكثر مع الوقت، حتّى صارت في آخر أيّامها لا تعي ما يدور حولها.

كانت تخرج من البيت فتهيم مترنّحةً في وسط الضّواحي وبين النّخل، تئنّ وتتوجّع ولا تدرك إلى أين تتّجه ولا كيف تعود. تفقد القدرة على تحديد الاتّجاهات ولا تعرف حساب الوقت، فتعود أحيانًا مبكّرة، وتتأخّر أحيانًا حتّى المساء، فيذهب زوجها عبدالله

بن جميّل للبحث عنها، أو تتكفّل أمّهاتها بذلك. وفي أحيان كثيرة يجدونها إمّا مغمًى عليها بين النّخيل أو جالسة بالقرب من شلال الفلج النّازل إلى مزارع الحارة الحدريّة، هناك تعوّدت أن تجلس وهي تمسك برأسها تحت شلال الماء، وما إن يهدأ قليلًا وتشعر بالبرد في جسدها وتعود إليها أحاسيسها، حتّى تخرج لتبقى جالسة بجواره.

وأحيانًا يجدها بعض المارّة فيأخذون بيدها ليعيدوها إلى البيت، وتحكي لهم الكثير من الحكايات في درب عودتها بلا تسلسلٍ، تنتقل من فكرةٍ إلى أخرى ثمّ تعود إلى أنينها ووجعها حتّى إنّ الكثير ممّن عادوا بها أصابهم الحزن، والكثير بكوا في الدّرب.

ويحدث أن تستفيق للحظاتٍ فتقف مدهوشةً وهي تحدّق في ما حولها فتدرك مصيبتها، ومن دون أن تتكلّم تستغرق في بكاءٍ صامت، ثمّ ما تفتأ أن تعود إلى غيبوبتها ثانية.

قالوا عنها إنّها مجنونة، وقالوا أُصيبت بالحسد لجودة صنعتها، والبعض أكّد أنّ ساحرةً دخلت بيتها وسقتها شيئًا بدّل حالتها.

وجُلّ ما اختلقته ألسنةُ أهل القرية، كان يصل إلى أمّهاتها وزوجها فلا يستطيعون فعل شيء أو قول شيء أكثر من «لا حول ولا قوة إلّا بالله». كانوا يشعرون بالحزن وخزي قلّة الحيلة والعجز، ويتألّمون كثيرًا لأجلها، لكن لا ألم يشبه ألمها الّذي غيّبها عن الدّنيا وهي فيها.

في الأيّام الأخيرة اختلف الحلم، صار هناك صوتٌ يناديها من

بئرٍ عميقةٍ لا قرار لها، فترى نفسَها تهبط بالحبل حتّى قعرِ البئر، وعندما تدخل رأسها في الماء تُشفى من الصّداع.

تسمع الهمس فيهدأ الضّجيج في رأسها قليلًا، فتستسلم له وتتبعه، هكذا يجري الأمر في كلّ حلم حتّى تنزل إلى البئر فيتحوّل الهمس تدريجيًّا إلى أُغنيةٍ تنبعث من صوتٍ رقيقٍ يأتي من الأعماق.

في ظهيرة أحد الأيّام والسّكون يلفّ القرية وقد خبت أصوات المناجير، خرجت مريم بنت حمد ود غانم من بيتها متّجهة صوب بئر الخطم، حاملةً جسدها المتعب، تجرجره وتترنّح تحت وطأة الوجع، حتّى وصلت عند البئر، فوضعت قدميها على حافّتها، وأمسكت الحبل الّذي لطالما رأته في الحلم، مستجيبةً للهمس المنادي من الأعماق، «تعالي تعالي». تدلّت هابطة في البئر وإذ ثقل جسدُها على الحبل أفلتت يديها وسقطت في الهوّة العميقة.

الفصل الثّاني

غسلت كاذية بنت غانم المولود بالماء ذاته الّذي غُسلت به والدته المتوفّاة. أخذت وعاءً مملوءًا وأدخلته فيه، ثمّ بدأت تُتمتم ببعض الأدعية. غسلت جسده الصّغير، رأسه، سُرّته، ثمّ نزعت غطاء شعرها وقمّطته به، تاركةً الجدائل الّتي غزاها الشّيب والمضمّخة بالآس تستريح على عنقها. لم تكترث للعيون الّتي أخذت تنظر إلى بياض مفرقها، وعنقها الّذي بدا من شدّة بياضه مثل صفحة قرطاس لم يخطّ عليها حرف.

وضعت الرّضيع في حضنها فنُسيت الجثّة وتوقّفت النّساء عن استكمال تكفينها وفغرن أفواههنّ دهشةً. وحلّ الوجوم على وجوه الرّجال وهم ينظرون إلى ذلك الحنق الّذي كسا وجه الشّيخ حامد بن علي بعد كَسر أوامره، ولولا أنّ التّقاليد تحتّم وجوده لانصرف، لكنّه على الرّغم منه صمت وانتظر حتّى يقتفي أثر الجنازة.

قالت كاذية لمن حولها بلهجةٍ آمرة، مُتجاهلةً عيونهم الشّاخصة:

«عجّلوا في الفقيدة، إكرام الميّت دفنه».

ثمّ اقتربت من المرأة المسجّاة، ووضعت قبلةً على جبينها،

وأجهشت بالبكاء وهي تضع الرّضيع لدقائق فوق صدر أمه، وفي نهاية الأمر كفكفت دموعها بباطن كفّيها وتشهّدت واحتضنت الرّضيع وقامت.

عادت النّساء لتكفين الجثّة، أمّا كاذية بنت غانم فأخذت الطّفل وغادرت، هربت به وفي صدرها فرحٌ يخالطه حزنٌ عميق، وكلّ همّها أن تصل وتبحث للوليد عن امرأةٍ تتكفّلُ بإرضاعه. وإن لم تجد فلن يتبقّى أمامها إلّا أن تُرضعه من حليب بقرتها.

ما إن وصلت بيتها حتّى لحقت بها جارتها آسيا بنت محمّد، إذ كانت تقف متواريةً عند البئر وشهدت كلّ شيء، وسرعان ما تناولت الطّفل منها وألقمته ثديها، فراح يرضع حتّى نام.

لقد أنجبت آسيا بنت محمّد خمس بنات لم تبق منهنّ واحدة، وآخرهنّ طفلة وُلدت مريضةً وأصابتها الحصبة فلم تستطع المقاومة. طفلة دفنتها قبل يومين في مقبرة الأطفال، وظلّ صدرها بسببها ممتلئًا بالحليب، فصارت تستحلبه مرّةً في الصّباح الباكر ومرّةً عند المساء حتّى لا يُسبّب لها ألمًا وحمّى، راجية الله أن تجد له رضيعًا يستغني به.

ألقمت حلمة ثديها فم الرّضيع فشعرت بعاطفةٍ قويّة نحوه، وكأنّها صارت أمّه مباشرةً في تلك اللّحظة. كان هناك شيء ينمو في قلبها ويتفتّح مثل زهرةٍ بيضاء ذات رائحة زكيّة، فلم تشعر بالدّموع وهي تنهمر من عينيها. أمّا كاذية بنت غانم فجلست في الرّكن صامتةً، وهي تحاول فهم ما حدث، وكيف أخرجت الطّفل من بطن أمّه وهربت به.

بعد أن رضع الطّفل، أغمض عينيه شبعًا ونام، فوضعته آسيا بنت محمّد في حجر كاذية وذهبت. لم تنبسا بحرفٍ واحد، نكست كاذية بنت غانم رأسها على الطّفل في حضنها، ولفّت ذراعيها حوله، وبدأت تنوس وهي تُؤرجحه برفقٍ.

أخذت الرّضيع ووضعته على فراشها، ثمّ خرجت إلى الحوش، وجلست متّكئةً على جذع شجرة «الزام»، وأسندت رأسها بكفّيها وبدأت تستعيد ما حدث، ثمّ عادت تبكي فقيدتها وهي تتذكّر لحظات المحبّة والسّعادة بينهما. كيف للمرأة الّتي تُخبِّئُ في صدرها جوهرةً أن تغادر الحياة فجأةً؟ كيف رحلَتْ من دون أدنى إيماءة وداع؟ ثمّ كيف واتتها هي الشّجاعة كي تُخرج الحيّ من الميّت؟ التفتَتْ ناحية الطّفل النّائم بطمأنينة فزاد بُكاؤها على أمّه وعليه.

ما إن مشت الجنازة في الدّرب الضّيق الطّويل، حتّى بدأت السّماء تصبّ على الرّؤوس مطرًا ناعمًا استمرّ يُرطّب المكان والوُجوه. فقال رجل في الأربعين من عمره وهو يرفع رأسه صوب السّماء:

- هذي الحرمة ربّها راضي عنها.

وردّ عليه رجل قويّ يحمل النعش:

- ماتت غريقة، الله كتب لها ثواب الشّهدا.

وكان حفّار القُبور قد جهّز البيت وجلس ينتظر وُصول الجنازة، فتطوّع أحدُهم وأحضر دلاء الماء من الفلج، لكنّ الحفّار قال له «الله غناها عن هذا الماي».

وازداد انهمار المطر عند اقتراب النّعش من المقبرة، فابتلّت الرّؤوس وخضّل المطر اللّحى، وصارت الأقدام تخطو على التّراب والماء يُطرطش تحتها، وابتلّ لحاف النّعش الّذي تنام الجثّة تحته.

استمرّ الماء يسيل بغزارةٍ على الأرض، حتّى إذا وصلت الجنازة وأُنزلت الجثّة عند القبر، شقّ السّيل طريقه إلى جوفه وتجمّع الماء في قعره، فصاح رجل:

- عجّلوا بالدّفن الماي بيترس البيت.

حُملت الجثّة وأُنزلت ببطء، وزاد انهمار المطر فكادت تُفلت من أيدي حامليها، وما عادوا يستطيعون الرؤية، وكأنّ السّماء قد اندلقت بحرًا على المكان في تلك السّاعة.

وُضعت الجثّة داخل القبر وقد وصل الماء إلى النّصف، فصاح أحدهم:

- القبر جام والميّتة تغرق، أيش الحلّ؟

ردّ عليه آخر وهو يصرخ بنزقٍ وقد كانت قطرات المطر تخزّ جسده:

- الميّتة غرقانة من قبل.

لقد التصق الكفن بجسدها ووجهها فبدت كأنّها تبتسم في داخله، وأمام ذلك المنظر أجهش واحدٌ بالبكاء وجثا على ركبتيه فاختلطت دُموعه بماء المطر وانسكب بعضُها على الجثّة، فاستشْرَتْ نوبة البكاء في المكان، ودَمِعت المآقي واحمرّت العُيون وأجهش

العديد منهم، حتّى إنّ سالم بن سوّاد انتابته نوبة الصّرع فسقط يتخبّط على الأرض الرّطبة. وعندما أهالوا التّراب على الجثّة اختلط بالماء فلم يستطيعوا مواراتها إلّا وقد غرقت الأرض تمامًا.

وضعوا الحجارة حول القبر، وقد أنهكهم المطر، ورغم أنّهم في أَوْج الصّيف بدأ بعضهم يرتجف من شدّة البرد، فالحرارة انخفضت وكأنّ الشّتاء قد حلّ بغتةً.

ومع عودتهم أخذت شدّة المطر تخفّ رويدًا رويدًا، فقال رجلٌ طاعنٌ في السنّ وهو يعرج بساقه اليُمنى:

«لله في خلقه شؤون، ما عمرنا حملنا جنازة واستوى كما بو استوى اليوم».

ظلّ الوجوم والبرد يُلازمان النّاس حتّى تفرّقوا وذهب كلّ واحدٍ إلى بيته.

استيقظت كاذية بنت غانم على صوت المطر، فهرعت نحو الطّفل الّذي كان يبكي ولم تسمعه في غَفوتها، وعندما اقتربت منه لاحظت شقًّا في السّقف تنزّ منه قطرات المطر فتتساقط على أذن الرّضيع. كان فراشه مبلولًا، وقد امتلأت أُذنه اليسرى بالماء، فحملته وأضجعته على جنبه الأيسر ليخرج الماء من أذنه، وهي تبكي وتلوم نفسها على تلك الغفوة الّتي بدت بمثابة سنوات من النّوم. ثمّ احتضنت الطّفل وهدهدته حتّى سكت ونام ثانيةً. وكان المطر في الخارج يغسل المكان والنّخيل، وما هي إلّا لحظات حتّى سمعت هدير السّيل يملأ الوادي.

عندما توقّف المطر مساءً، سمعت كاذية صوتَ «أبو عيون» من الحارة المقابلة يُنادي لصلاة المغرب، فقامت لصلاتها وقد تركت الطّفل قريبًا منها.

بعد الصّلاة بدأت نساء الحارة في المجيء، ليعزّين المرأة في مصابها ويأخذن الطّفل في أحضانهنّ ويتفحّصن وجهه مليًّا، ولولا حادثة الغرق الّتي أودت بأمّه لَكُنَّ ناغَيْنَهُ وبحَثْنَ له عن اسم يُشبهه.

ووقت العتيم جاءت آسيا بنت محمّد مرّةً أخرى وأرضعت الطّفل، ثمّ رفعته على كتفها حتّى تجشّأ، قبل أن تجلس هناك تراقبه وتمرّر أصابعها على تقاسيم وجهه برقّةٍ. ومكثت قليلًا ثمّ غادرت، لكنّ هذه الزّيارة الخاطفة بعثت في نفسها فرحًا لطيفًا، إذ أنّ حياتها صارت لا تُطاق بعد أن غادرتها طفلتها الخامسة. وقد كان حزنُها يستغرق شهورًا من الصمت، كلّما توفّيت ابنةٌ من بناتها، فلا تتحدّث مع أحدٍ ولا تقوى على النّظر إلى الوجوه.

قبل أشهر سافر زوجها إلى مسقط وظلّ هناك ولم يعد. سمعت أخباره مع العائدين إلى قُراهم ولم تتعمّق في السّؤال عنه. بل اهتمّت ببيتها وبالنّخيل والمزروعات، ودخلت في عُزلتها الصّامتة.

لقد اعتادت أن تمشي مُنكِّسةً رأسها، وهي تقطع طرقات القرية. واعتادت أن تُسرع الخطى كلّما اقترب منها أحد، وأن تختار كلّما ذهبت إلى البساتين مكانًا كثيف الظّلال لتجلس فيه.

في بيتها كانت ترتقب صوته، تنتظرُ إدَارته زند المغلاق،

وتُصغي لعلّها تسمعه يتكلّم كلّما سمعت حركةً قرب الباب. وفي اللّيل كانت تحتضن وسادته وتُبلّلها بالدّموع قبل أن يُداهمها النّوم.

في الأيّام الأولى كان صوته يرنّ في أذنيها، تأتيها خيالاته وهو يشرب الماء بقربها ثمّ يقول لها:

«كلّ حدّ يسقيه الله فهالدنيا من روح إنسان ثاني، كلّ حدّ عطشان الين يلقى لماه».

ويلفّ ساعده حول رقبتها، ويجذبها إليه بلطفٍ لتستكين تحت كتفه ثمّ يقبّلها ويختتم مقولته:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«انت عطشي وانت لماي».

وإذا تجرّع الماء، أنصتت إلى تجرّعاته وكأنّها تنصت إلى خريرٍ يسيل من ينبوعٍ عذب.

كان زوجها إبراهيم بن مهدي يُفكّر في الذّهاب إلى مطرح منذ زمنٍ بعيد. ولم يكن لها أيّ دخلٍ بقرار سفره المفاجئ، ولكنّها بعد ذلك فهمت أنّه كان يحدّث نفسه بالأمر ويخطّط له قبل فترةٍ.

لم يخبرها من قبل ولو على سبيل الدّعابة بأنّه سيهجر القرية ويتركها وحيدةً بلا رفيق أو معيل. كانت تظنّه يعشق الحياة في القرية، فهو لم يتذمّر قَطُّ من أهلها أو من العيش فيها، وحتّى الحكايات الّتي دأب أن يرويها لها عند عودته تدلّ على أنّه غارق إلى قمّة رأسه في حياة النّاس.

كان رجلًا رطبَ اللّسان، يجيد التحدّث والإصغاء، يركّب الجمل بسلاسةِ ساحرٍ، وكلّ من يستمع إليه يبقى مأخوذًا بكلامه، في قريةٍ لم يعتد أصحابها إلّا الحديث المباشر الفجّ.

أطلقوا عليه لقب «الملاق»، وبرغم جلافة المعنى الدالّ على النّفاق فقد أعجبه اللّقب، وكلّما نُودي به عَلَتْ ضحكتُه وأومضت السّعادة في عينيه.

ربّما قصد من أطلق اللّقب عليه أن يكسر من لباقته وجمال كلامه، لكنّه بكياسته حوّله إلى موضوعٍ للتندّر والمزاح، فصار النّاس يمازحونه ويضحكون لضحكته.

ذات يومٍ طرق الشّايب محمّد بن سلطان بابه وأخبره بأنّ الشّيخ عيسى بن حمدان سيمرّ بالقرية بعد أسبوع.

«محد يتقدمك للكلام، نبغاك ترفع راسنا بكلامك السنع، والله أعطاك لسان يقطر عسل، ونحن فوّضناك تكون المتكلّم عن البلاد».

جاء الشّيخ واستمع لكلامه، وهزّ رأسه مرارًا مستحسنًا الكلمات المنتقاة بعنايةِ رجلٍ يجيد التحدّث. وعندما انتهت زيارته وهمّ بمغادرة المجلس كان إبراهيم بن مهدي من ضمن مودّعيه، فاقترب الشّيخ منه وقال له:

«مكانك ما هنا، هذي البلاد ما بتنفعك بشي، لازم تروح مسكد».

ومنذ ذلك اليوم والفكرة تدور في رأسه، فما الّذي يوجد في مسقط حتّى يقترحها الشّيخ عليه؟ لمَ تُناسبه هو بالذّات؟ وهل في مسقط أناس غير النّاس الّذين في قريته؟ ظلّ يفكّر في الأمر كثيرًا، لكنّه لم يأت على ذكره لأيّ مخلوق، حتّى زوجته.

بعد سفره صارت زوجتُه تتساءل في سرِّها: «هل تحوّل شوقه إلى الأبناء عطشًا جعله يتركها وحيدةً ويسافر إلى مسقط؟ ما الّذي سيتغيّر لو كان على درايةٍ بحملها الأخير؟ ماذا يفعل هناك بعيدًا عنها؟ كيف يأكل ومن يطبخ له؟ من يمدّ له كوب الماء كلّما عاد مُتعبًا عطشًا؟ وهل سيجد هناك ماءً كالّذي يشربه عندها؟» كان قلبها يرتعشُ كلّما وصلت إلى هذه النّقطة، وبعد ذلك تسقط في كآبةٍ عميقة سببُها خوفها من أن يجد امرأةً غيرها هناك.

هطل مطرٌ كثيرٌ في أصيل ذلك اليوم، حتّى امتلأ الوادي إلى آخره بالماء ودخل السّيل بعض البساتين المنخفضة على ضفّة الوادي، لكنّ مطرًا آخر من الحبّ هطل في قلبها دون غيرها عندما ألقمت صدرها فم الطّفل وشرب من حليبها حتّى ارتوى. شعرت بأنّها هي من كانت ترتوي حين تُحدّق مليًّا في قسمات وجهه البريء، فلم تتوان كثيرًا عن العودة مرّةً أُخرى إلى بيت كاذية بنت غانم.

في الهزيع الأخير من تلك اللّيلة انهمر المطر ثانية، انسكبت سحابة كاملة على المكان وتدفّقت السّيول. كان الماء ينسكب من السّماء بلا رعود أو بروق، ولا رياح تصاحبه، لا شيء سوى ماء مسكوب على الأرض والحياة.

بعد ثلاثة أيّام تفتّحت السّماء عن زرقة صافية، وعادت الحياة في القرية رويدًا رويدًا. لملم النّاس أشياءهم المتناثرة هنا وهناك، وعادوا إلى استصلاح حقولهم الّتي أضرّ بها المطر بعد أن انبثق الماء من الأرجاء كلّها.

فرح النّاس بالخصب الّذي يعني لهم أفلاجًا تنضح بماءٍ وفير وحقولٍ خضراء ممتدّة فيها شتّى أنواع الزّرع، وبصيف أقلّ حرارة ومياه عذبة يشربون منها، ومراع خضراء لأغنامهم تمتدّ حتّى تخوم الجبال البعيدة.

انتهى العزاء سريعًا لأنّ المطر أعاق الكثير من النّاس عن الوصول إلى السبلة والقيام بالواجب، وبعد أيّام نُسي ما حدث للغريقة وذهب كلٌّ للغرق في تفاصيل حياته وأشغال يومه.

أمّا كاذية بنت غانم فوجدت سلوى حزنها في الطّفل، تهتمّ به وتُلاعبه وتُناغيه، وتنتظر أباه لعلّه يطلّ عليها ليحمله ولو برهةً بين يديه ويمنحه اسمًا، فلقد مرّت ثلاثة أيّام وهو غائب لا تعلم عنه شيئًا.

كان بيتها لا يخلو من النّساء طيلة النّهار، ولا سيّما اللّواتي لم يستطعن تقديم العزاء أيّام المطر، فتراهنّ يحضرن إلى بيتها وبعد أن يحتضنّها ويباكينها قليلًا ويستذكرن الفقيدة الغالية، يشربن القهوة ثمّ ينطلقن عائدات إلى بيوتهنّ. آسيا بنت محمّد دون سواها لازمت الطّفل وجلست مع كاذية طوال الوقت، لا تذهب إلى بيتها إلّا قبيل

غروب الشّمس، لكي تعطي بقرتها الحشائش وتغلق الحظيرة على دجاجاتها.

في اليوم التّالي، بعد توقّف المطر، جاء عبدالله بن جميّل إلى بيت كاذية و قد ملأ روحه الحزن ففاض وانعكس على وجهه، وتحوّل لونه إلى السّواد وتهاوت كتفاه على نحوٍ بدا من خلاله كأنّه يخبر بعجزه عن فعل أيّ شيء من دون زَوجته.

عندما سمع الصّراخ يعلو من الجانب الآخر للوادي، كان مشغولًا بإعداد الغداء، فقد عاد إلى البيت مبكّرًا ولم يجد زوجته، فقرّر أن يعدّ الغداء لها بنفسه، فيريحها من عناء ذلك، غير أنّ الهرج كان يتعالى، ويصل إليه واضحًا من دون أن يفهم ما يحدث. ومع ذلك لم تداخله ذرّة شكّ في سبب تأخّر زوجته، لكنّ الفضول غلبه فخرج متتبّعًا الصّراخ إلى أن وجد النّاس مجتمعين قريبًا من البئر.

ما إن رُفعت الغريقة من قعر البئر حتّى عرفها من لون «دشداشتها» الأخضر قبل أن تصل، فانعقد لسانُه وتوقّفت الحروف في حلقه، وظلّ صامتًا واجمًا، بين مُصدّقٍ ومُكذّبٍ، لا يدرك ما الّذي يحدث وماذا عليه أن يفعل.

اقترب منها وجلس بالقرب من رأسها، وضع يده على جبينها، وقد أدرك في تلك اللّحظة معنى الأحلام الّتي كانت تقصّها عليه، وتلك الأصوات الّتي تضجّ بها جمجمتها وتشكو منها طوال الوقت، لا شكّ في أنّ تلك الأصوات اللّعينة قد دفعتها إلى الهبوط في البئر، من دون أن تُدرك مدى خطورة الإقدام على ذلك.

بقي عبدالله بن جميّل يقلّب نظره بين وجه زوجته والماء الّذي يسيل تحتها واجمًا، وقد احتلّت القتامة وجهه وتجمّدت النّظرة في عينيه.

أراد أن يبكي ولكنّ جبلًا عظيمًا كان يجثم على صدره ويمنعه من ذلك، حتّى عندما حمل النّعش على كتفه مع الآخرين، مشى به كالمسحور، غائبًا عن الميّتة الّتي يحمل أو المقبرة الّتي تُساق إليها.

كان مع النّاس جسدًا ماثلًا مثل أجسادهم، أمّا قلبُه وروحُه ففي مكانٍ آخر. كأنّ زوجته قد تبدّت له وحده عندما غابت عن الدّنيا، فأخذته من العالم كلّه، جاءته بكامل زينتها وسحبته من ذلك الجمع حول البئر، وأخذته إلى وديان خضراء تجري فيها الينابيع منبثقةً من صخور الجبال. كانت تمسك بيده ولا تتركها، تجلس بجانبه وتنظر في عينيه، وتغنّي له أغانيها الجبليّة الشجيّة، حتّى صار يهيم بسعادةٍ لا حدّ لها. ظلّ غائبًا تمامًا، كأنّ صوتَ المطر في المقبرة ما هو إلّا خرير ماء النّهر الّذي كانا جالسين على ضفّته. وكأنّ يديها اللّتين تمسحان على قسمات وجهه وصدره وأطرافه ما هي في خفّتها إلّا الرّيح الّتي تلفّه، ورعشة البرد الّتي باغتته ليست إلّا نشوة المحبّ المستهام في حضرة المحبوب.

متى عاد من رحلته تلك؟ هو لا يدري ولا يكترث لعودته، بل كان يكتفي بأن يسأل نفسه عن الّذي حدث فحسب، وكيف حدث؟ ولماذا عاد من ذلك المكان الّذي يشبه الجنّة؟ ولماذا حدث ما حدث وهو واقع في أَوْج أزمته وحزنه؟ هل أرادت أن تنتشله من

لحظة الأسى العميقة تلك، وترفعه من واقعه إليها؟ هل أرادت أن تقول له إنّها بخير وتنتظره هناك على الضفّة الأخرى للحياة؟

في تلك الأيّام كان يسمع السّماء كُلَّ ليلةٍ وهي تبكي بدلًا منه، أمّا هو فغرق في موج من الأصوات المتداخلة، من دون أن يدرك أنّ الحمّى أصابته جرّاء المطر الّذي هطل وهو يُنزل زوجته إلى بيتها الجديد، ونتيجةً لذلك بقي في مكانه متكوّمًا على نفسه، تخضّه الرّجفة تلو الرّجفة وهو يهذي من شدّة ما به، وقد انقطع النّاس عنه بسبب السّيول الّتي فاضت، فلا أهل الحارة المقابلة كانوا قادرين على بلوغ بيته المقطوع ولا أهل الحارة الشّرقيّة يستطيعون تجاوز السّيل الجارف، فظلّ وحيدًا تنهش الحمّى جسده حتّى استيقظ في اليوم الثّالث وقد أفرج المرض عنه. وعندما توقّفت السّماء عن انهمارها وصمتت عن البكاء، أدرك ما حدث فبدأ بالنّواح في صوت مكتوم.

وبعد مدّة استجمع قوّته وكفكف دموعه وذهب إلى بيت كاذية بنت غانم، وجلس بجوارها يبكي مثلَ طفلٍ ضائعٍ فقد أمّه لتوّه.

بكت كاذية لبكائه وظلّا يستذكران مريم تارةً ويعودان للبكاء تارةً أخرى، هو لا يعرف أنّه أصبح أبًا، وهي غير مدركة أنّه لا يعلم شيئًا عن طفله.

ولمّا أتعبه البكاء همّ بالخروج، وقد قرر المشي بين الجبال لعلّ تلك الصّخرة الّتي سقطت على قلبه تنزاح قليلًا، وحالما بلغ الباب تذكّرت كاذية الطّفل فقالت له:

- ما تبغى تشوف ولدك؟

التفت إليها بحيرةٍ، ثمّ هزّ رأسه مستفهمًا، فقالت له:

- ولدك... ولدك.

قالت ذلك وهي تشير إلى لفّة من القماش تقبع في زاوية الغرفة. فاقترب عبدالله بن جميّل من الطّفل وحمله بين ذراعيه. كانت تلك أوّل مرّة يمسك فيها طفلًا رضيعًا بيديه، اقتربت كاذية، ونظر إليها بعينين مستفهمتين حائرتين، فهمست له وهي تمرّر كفّها على جبين الطّفل ووجهه:

- يشبهها، عيونه عيونها، وجبينه جبينها، لكن خشمه حالك.

سألها بحزنٍ وقد أعيته الحيرة:

- كيف.. كيف ولدي؟ متى ولدته؟

تعجّبت كاذية من سؤاله، وتأكّدت من فقدانه ذاكرته، وإلّا كيف لا يتذكّر ما حدث ذلك اليوم عند البئر؟ سحبت نفسًا عميقًا، ثمّ أخذت تشرح له ما حدث ودُموعها تنهمر، ومن حين إلى آخر تتوقّف عن سرد التّفاصيل لتجهش بالبكاء.

عادت ذاكرتهُ شيئًا فشيئًا، فتذكّر الغداء وانتظاره إيّاها، وتذكّر الصّراخ والهرج القادم من الضفّة الأخرى للوادي، إلى أن رآها هناك، ممّددةً أمامه على الأرض والماء تحتها.

كان الطّفل غارقًا في نومه، ثمّ تحرّك فجأةً وتمطّى في قماطه قبل أن يفتح عينيه الصّغيرتين وينظر في وجه أبيه، وعندما التقت

عيونهما، بقي الوالد غارقًا في تَيْنك العينين اللّتين تشبهان عينيْ مريم فعلًا. بدا كلّ شيء ساكنًا في تلك النّظرة، حتّى فتح الطّفل فمه كأنّه يبتسم له، فشعر عبدالله بصخرةِ الحزن الثّقيل تُرفع عن قلبه بهُدوءٍ، وشعر بجسده يزداد خفّةً، وبفضاء البيت يكبر.

رآها فيه، في وجهه كلّه، حتّى في لمعة الذّكاء في عينيه، فما كان منه إلّا أن احتضنه وقبّل جبينه وبدأ ينوس والطّفل في حضنه يتشبّع برائحة أُبوّته وحنانه ومحبّته.

قالت له كاذية بنت غانم:

- سمّيه.

فأجابها، وهو يهزّ رأسه غير موافق:

- الاسم عليك، إنت أمّه.

وعندئذ نظرت إلى وجه الطّفل الّذي غرق في نوم عميق بعد هدهدات أبيه، وتنفّست الصّعداء ثمّ قالت:

- اسمه سالم، سالم بن عبدالله.

قلّب الاسم الّذي اختارته في رأسه ثمّ سألها:

- ليش سالم؟

- لأنّ الله سلّمه من الغرق، من الموت.

أعجبه ردّها وهزّ رأسه برضى، ثمّ وضع الرّضيع في حجره وبدأ يحرّك رجله ببطء وهدوء حتّى يُواصل نومه.

دخلت آسيا بنت محمّد البيت لترضع الطّفل، دخلت مباشرةً دون أن تطرق الباب، فلمّا رأت أمامها عبدالله بن جميّل جالسًا وقد وضع طفله على حجره فُوجئت بوُجوده وتلعثمت وهي تَعتذر لدُخولها بغير استئذانٍ، لكنّ كاذية رحّبت بها قائلةً:

- البيت بيتك.

قدّمت الوافدة العزاء لعبدالله بن جميّل، وسألها ما إذا كان ثمّة خبر عن زوجها فأجابت بالنّفي، وبقيت واقفةً هناك تنظر بارتباك إلى الطّفل في حضن أبيه. ولم يفهم عبدالله لماذا تقف بجانبه ولا تتحرّك، فما انفكّ يقلّب بصره بينها وبين كاذية، الّتي تدخّلت لترفع الحرج والارتباك عن آسيا، وأخبرته نيابة عنها بأنّها تريد إرضاع الطّفل. رفع عبد الله الطّفل من حجره وناولها إيّاه، فانزوت به في ركن الغرفة وبدأت في إرضاعه.

في صباح اليوم التّالي كانت السماء صافيةً لا يشوّش زرقتها سحاب، إلّا أن ريحًا جنوبيّةً باردة قابلت المصلّين عند خروجهم من المسجد بعد صلاة الفجر ومشت معهم في أزقّة الحواري، فقال رجل كان يمشي متباطئًا خلف المصلّين:

- هذي الكوس وراها سالفة.

توقّف أبو عيون وسأله:

- أيش السّالفة؟

لكنّ الرّجل لم يكترث له وتعدّاه، فنظر أبو عيون إلى صفحة

السّماء ووجد بعض النّجوم الزّاهرة ما زالت ترسل أضواءها فيها، لكنّه لم ير شيئًا غير عاديّ، فهزّ كتفيه ومضى.

وبمرور الوقت ارتفعت الشّمس قليلًا وبلغت أعالى الجبال، وزحفت ناحيتها من الجنوب سحابة رماديّة داكنة، لم تكن كبيرةً جدًّا، لكنّها استطاعت أن تحجب ضوء الشّمس، وحينئذٍ ازدادت برودة الرّيح وأصبحت رطبةً كأنّها محمّلة بالماء البارد.

تحوّل الصّيف فجأةً إلى شتاء قارس، وأضحت الرّياح الباردة تزمجر في الحواري وبين الجبال، فهرب النّاس إلى بيوتهم ليحتموا بها. كانت ريحًا عاتية سقط جرّاءها بعض النّخل وتكسّرت أغصان الأشجار الكبيرة، وكادت أسطح المنازل تسقطُ على ساكنيها. ثمّ أظلمت الدّنيا وهبط الضّباب على رؤوس الجبال، وبدأ المطر ينهمر بشدّةٍ وكأنّ السّماء قد دلقت نفسها على القرية. جرفت السّيولُ البساتين وذابت جدران البيوت الطّينيّة فتساقطت الأسطح، وهرب النّاس بأمتعتهم وطعامهم إلى مغاور الجبال واحتموا بالكهوف الكبيرة أيّامًا عديدة، ومن هناك ظلّوا يراقبون الماء وهو يغمر البلدة ويأخذ في طريقه كلّ شيء، فصارت بيوتهم أثرًا بعد عين.

ترك عبدالله بن جميّل بيته مثلما فعل الآخرون، وكان أقربهم إلى الجبل فاختار كهفًا صغيرًا كان يلوذ به كلّما سكن الجبل، كاد لا يتسّع له ولكاذية وآسيا وطفله الرّضيع وما نجا من المؤونة.

عندما بدأ المطر ينهمر كانت آسيا مستغرقة في إرضاع الطّفل، ومثل الجميع توقّعت أن يتوقّف الهَطْلُ بعد دقائق، وفقًا للمألوف

من أمر الأمطار الصّيفيّة، ولمّا أرادت العودة وجدت السيول حاجزًا بينها وبين حارة سكناها، فبدا عليها القلق لكنّ كاذية طمأنتها وطلبت منها البقاء حتّى توقّف المطر.

استصلح ساكنو الكهف مكانًا لموقد النّار وآخَرَ لنومهم، ومن حسن حظّهم أنّ عبدالله بن جميّل قد ترك حزمةً قديمة من الحطب في الدّاخل عند إقامته الأخيرة بهذا الكهف، فاستخدموها في طهي القهوة، وهم يراقبون المطر، وأخرجت كاذية من جرابها حبّات من التّمر كان الجميع في أشدّ الحاجة إليها.

استمرّ المطر في تدفّقه الغزير أُسبوعًا كاملًا، ثمّ توقّف فجأةً كما بدأ واختفت السّحب وظهرت السّماء بزرقتها الناصعة تتوسّطها شمسٌ وهّاجة، فبدأ النّاس في العودة إلى بيوتهم، لكنّهم وجدوها قد تهدّمت وتحوّلت أطلالًا، ووجدوا السّيول قد جرفت بساتينهم وغمرتها بالأتربة والحصى واقتلعت أشجارهم وأسقطت نخلهم.

كانت سنةَ خصبٍ لم يتوان النّاس فيها عن ترميم بيوتهم، واستصلاح بساتينهم، ومع الأيّام عاد إلى القرية رونقها وبهجتها كأنّ شيئًا لم يمرّ بها من قبل.

الفصل الثّالث

لم تخلّف الجائحة وراءها شجرةً واحدة قائمة، إلّا أنّ أهل البلدة فرحوا بالخصب الّذي حلّ وقد رأوا امتلاء الوديان والشّعاب، وضجّت جنبات القرية بخرير الجداول وتدفّقت مياه الأفلاج بغزارة حتّى فاضت السّواقي.

أُعيد تقسيم الضّواحي ورُفعت جدران البساتين، وخُطّطت الأمكنة فعادت مثلما كانت، وجُلبت الأتربة من أماكن شتّى وكان أفضلها ما خلّفه السّيل في المنعطفات حيث يركد الماء العكر المحمّل بالطّمي ومخلّفات النّباتات.

جلبوا من القرى المجاورة فسائل النّخل وأشجار اللّيمون والسّفرجل والأمبا، و غرسوا مكان كلّ نخلةٍ أخذها السّيلُ فسيلةً من النّوع نفسه، وكذلك فعلوا مع الأشجار الأخرى، حتّى عادت القرية واحةً غنّاء متجدّدة.

شبّ عود الطّفل سالم بن عبدالله في رعاية كاذية بنت غانم وحنان آسيا بنت محمّد الّتي أرضعته إلى أن أكمل السّنتين، وحتّى بعد أن فطمته لم تتوقّف عن زيارته وكانت بين حين وآخر تأخذه إلى بيتها، فتغدق عليه من حبّها وحنانها وتطعمه من طعامٍ تعدّه له بنفسها.

عندما أكمل سالم السنوات الستّ، جاء إلى القرية بائع أقمشة ومعه رسالة يودّ أن يوصلها إلى آسيا بنت محمّد، فبحث عنها حتّى وجدها وأخبرها بأنّ زوجها في قرية تسمّى الغافتين مريض ويطلب منها الذّهاب إليه.

ظلّت آسيا تبكي يومين متتاليين، من دون أن تدرك كاذية أو غيرها سببًا لبكائها، فهي لم تُطلع أحدًا على الخبر الّذي جاء به التّاجر، ولم تكشف لأحد ما كانت تعيشه من صراعٍ مُرٍّ يُمزّقها بين الذّهاب إلى زوجها، وقد تذكّرها وهو في مرضه، وبين مُفارقتها طفلَها الّذي لم تعرف عذوبة الأمومة إلّا معه.

ظنّت كاذية أنّ شيئًا ما قد حدث لزوج صاحبتها فجلست تُواسيها وتُذكّرها بضرورة الصّبر. وعندما أخبرتها بالأمر، شجّعتها على الذّهاب إلى زوجها والاهتمام به، وقالت لها إنّ سالم سيبقى في انتظارها حتّى تعود، وطلبت من عبدالله بن جميّل أن يجد لها من يدلّها على الطّريق، فآسيا لم تخرج يومًا من قريتها، ولا تعرف الطّريق إلى الغافتين.

دلّها عبدالله على سلمان المسافر، وهو رجل يعرف مواقع القرى والاتّجاهات، فاتّفقت معه على أخذها إلى الغافتين على أن تدفع له أجرة الطّريق عند وصولها. وعندما سألته عن موقع القرية قال لها إنّها على مسير ثلاثة أيّام شرقًا، واتّفقا على التحرّك عند ظهيرة يوم غد.

وضعت كلّ ما تحتاج إليه في صرّةٍ واحدة؛ ملابس، زينة، مفتاح

البيت، صكًّا شرعيًّا لضاحية من ضواحي البلاد ورثتها عن أبيها، وبعض الطّعام والقهوة بما يكفيها لمسافة الطريق.

في يوم رحيلها ذهبت إلى بيت عبدالله بن جميّل وعانقت طفلها معانقةَ المودّع، فكانت تنشج في بكائها بحرقةٍ والطّفل يلتصق بها بحنوّ من دون أن يدرك سببَ ذلك كلّه.

عانقت كاذية وبكت ووعدتها بالعودة بأسرع ما يُمكنها، فباركت كاذية مسيرها ودعت لها وأعطتها زادًا للطّريق وبعض الهدايا من الملابس والزّينة للذّكرى، ومشت معها حتّى تخوم القرية وبقيت هناك هي والطّفل يرقبانها إلى أن اختفت في الدّرب بين الوديان.

سافرت ثلاثة أيّام بلياليها، راكبةً على حمار الدّليل، صامتةً لا تتحدّث معه إلّا نادرًا إن بدَتْ لها حاجة ماسّة إلى الوقوف.

كانت أحيانًا تغفو على ظهر الدّابة وتحلم بيَدٍ صغيرةٍ لطفلٍ تخرج من صفحة الماء، وتمتدّ إليها طلبًا للنّجدة، وعندما تحاول القبض عليها وانتشالها يُداخلها خوفٌ شديد من تلك اليد.

هكذا في كلّ مرّة تظهر اليد وما إن تسحبها إلى الخارج حتّى ينقطع الحلم، فتستفيق مرتعبة.

سمعها الدّليل مرّةً وهي تهذي بكلامٍ غير مفهوم، فاقترب منها محاولًا فهم ما تقوله، أنصت بشدّة، وبينما هو ملتصق بالدّابة شعرت به فجأةً فصحَتْ من نومها. نظرت إليه بريبةٍ، فلمّا أشار إلى

وجهها المنتفخ وعينيها المتورمتين، تحسّستهما بخوفٍ ثمّ طلبت منه أن يُوقف الدّابة في أقرب مكان به ماء لكي تغسل وجهها.

بعد ساعة من الوقت هبطا واديًا تجري مياههُ على حجارة الصفا وتتجمّع في أحواضٍ صغيرة ثمّ تتسرّب في رملة مختلطة بحجارة مصقولة لتخرج من مكان آخر.

يمرّ الماء عبر تلك الأرض الحجريّة المصقولة مثل قنوات نُحتت بمهارة وعناية، في مكانٍ يعمّه الصّمت والسّكون، لولا ذلك الحوار الطّويل الّذي لا يخفت للمياه المتدفّقة.

جلست آسيا على رملة ناعمة تستريح بالقرب من حوض تتراقص في قعره أسماك الصدّ الصّغيرة وتخطّ على صفحته حشراتٌ دائريّة الشّكل خطوطًا تُشبه كتابةَ ملحمةٍ طويلة، فرأت انعكاس وجهها المتورّم، وغسلته وهي تتشهّد مرّةً بعد مرّة، ثمّ ركنت لصمت الوادي العميق، وعندما استراح جسدُها قليلًا واسترخت في هدوءٍ تذكّرت الحلم والماء واليد الّتي تخرج فجأةً.

مرّ شريط ماضيها أمامها والكائنات الصّغيرة ترقص على الماء، فكأنّ تلك الكائنات كانت ترسم ذكرياتها وتكتبها لها. رأت أطفالها الموتى، حياتها الأولى، طُفولتها، أحلامها، الوحدة الّتي تعيشها في قريةٍ ضاجّةٍ بالبشر، بعد أن رحل عنها إبراهيم وخَلّفها وحيدةً تُصارع وحوش انتظاره الّتي لا تُغلب. تذكّرت الطّفل الّذي تركته وراءها ورحلت، وكيف انتزعت نفسها من أحضانه كمن ينتزع

غصنًا من الشّوك مغروزًا في قطعة صوفٍ، الطّفل الّذي أرضعته وسالَ حليبها ينبوعًا بين شفتيه، وما انفكّت تستعيد نبرة صوته ولثغة الحروف الأولى، ومناداته لها «ماماه»، تلك الكلمة الّتي ما إن سمعتها منه لأوّل مرّة حتّى احتضنته وبكت بحرقةٍ، كفلج نشيط رفع الصوار عن قنواته، فسال بلا رادعٍ.

إنّه طفلها الّذي قادته من يديه بأصابعها، ليخطو خطواته الأولى على الأرض، وفرحت به وهو يمشي مترنّحًا وفرحًا يصفّق لنفسه وهي تحثّه «تاتيه.. تاتيه»، حتّى خُيّل إليها أنّ ضحكته هي فوزها الأكبر، وعثرته أشدّ هزائمها وأكثرها مرارة.

كبر بين يديها، وعندما أصابته الحصبة بحمّى شديدة وهو في الثّالثة من عمره وكادت تهلكه، شعرت بخوفٍ شديد، وبأنّ الفقد يتربّص بها من كلّ ناحية.

لم تكن تنام مُطلقًا، وعندما يشتدّ قلقها تُخرج قلبها من مكانه وتعصره حتّى تهدأ، وتظلّ تسحب رجليها بتثاقل من يقودونه إلى المذبح، وكأنّ الحمّى الّتي أصابت الطفل انتقلت إلى جسدها فصارت تهذي لهذيانه وتتحسّر لحسرته.

تأخّر الطّفل كثيرًا في النّطق، فلم تخرج من فمه سوى بضع كلمات طوال السّنوات الأربع الأولى، ومنذ أن كان يحبو رأته يميل بأذنه اليسرى على كتفه ويحكّها عليها، وأحيانًا يفركها ببطن كفّه أو يُدخل إصبعه الصّغيرة في فتحتها، يظلّ كذلك بُرهةً ثمّ يتوقّف.

قالت لها إحدى النّساء: «فيه ذنايه».

لكنّه لم يكن يشكو من ألم في أذنه، ولا كانت أذنه تلك تُخرج أوساخًا. حتّى حين نصحت إحدى النساء آسيا ذات مرّةٍ بعصر القليل من أوراق الظّفرة وتقطيرها في أذنه، وفعلت، فإنّه لم يتوقّف عن الحكّ والفرك. بعدها توقّفت عن سماع أيّة نصيحةٍ قد تضرّ به، لأنّها أدركت بالمراقبة أنّه لا يشكو من أذنه ولا يتألّم.

في بعض الأحيان كانت تأخذه معها إلى الوادي وعندما تجلسه قريبًا من الماء ينكس رأسه حتّى تلامس أذنه الأرض، ويبقى على تلك الحال دقائقَ عديدةً كأنّه يُصيخ السمع إلى حديثٍ يجيء من باطن الصّخر.

ولقد قالت لها كاذية بنت غانم:

«الصّغار يسمعوا بو نعجز عن سمعه».

وحكت لها حكايات متشابهة عن أطفال كانوا يرون أشخاصًا يدخلون مكانًا ما ويفعلون فيه أمورًا بعينها، وعندما يعون ذلك بعد سنين يتكلّمون عمّا رأوه، فيتوافق مع حادثة معيّنة صارت في ذات المكان والزّمان.

وحدّثتها عن الحريق الّذي شبّ في عريش أحد البيوت، وامتدّ فأحرق حظيرة الأبقار، ثمّ أخبرهم صبيّ من أولادهم بعد سنوات بأنّه كان يرى رجالًا يدخلون الحظيرة حاملين في أياديهم أوعية مملوءة بالماء. فتذكّروا أنّهم بعد أن خبت النّار وجدوا البقرة تدور في

مكانها حيث ربطت على الوتد، ولم يمسسها حرق واحد، وعندما رجعوا إلى تاريخ تلك الحادثة وجدوا أنّ ذلك الطّفل لم يكن وقتئذ قد جاوز السّنة بعد.

«أهل الأرض يكلموه».

قالت لها كاذية، وهذه الجملة وحدها كانت كفيلة بإقلاقها، فما حاجة أهل الأرض إلى ابنها وما الّذي يهمسون به إليه؟

كانت تكتم عن النّساء كلّ شيء تلاحظه فيه، فهي لا تأمن ألسنتهنّ وقد يتقوّلن عليها ما لم تقله، لذلك من الأفضل أن تُبقي كلّ ما تعرفه في طيّ الكتمان.

الوحيدة الّتي تفتح قلبها لها هي كاذية بنت غانم، وهي أيضًا الوحيدة الّتي تفسّر لها الأحداث وتوجّهها، وتزيد من توجسّها ممّن يحيطون بها، وهي أمّ مجروحة لا تُريد أن تزيد فقدها فقدًا آخر.

- النّاس يأكلوا بعضهم بعض فهذي البلاد، لسانهم ما تشبع، ما يكلّوا ولا يونوا ليل نهار، ما يعجبهم شي، من الخير يصيحوا ومن الشرّ يصيحوا.

وما أصحّ ذلك الرأي الّذي سمعته من كاذية وما أوقره في قلبها، فالناس أكلوا كلّ ما لديها، حتّى زوجها أصابته ألسنتهم بالسّوء فرحل. لقد أكلوا حياته وأطفاله وجعلوا منه مُغيّبًا يهيم في الأرض، لا تعلم أين استقرّ ولا أيّ أرض سكن.

وعبدالله بن جميّل أيضًا أكلوه بألسنتهم، وجعلوا من حكاية زوجته الغريقة وجبةً دسمة يقتاتون عليها لسنوات، إلى أن ساءت

حاله كثيرًا ونحف عوده واسودّ وجهه وبقي يمشي في البلاد جلدًا على عظم، ولم يتركوه إلّا حين وجدوا وجبةً أكثر دسامة وثراء منه فانتقلوا إليها، وبذلك فقط عادت إليه عافيته.

انغلقت آسيا بنت محمّد على ذاتها بعد الفقد المتكرّر الّذي أصابها، وأصبحت تشكّ في كلّ ابتسامة تلحظها وكلمة تسمعها ممّن يحيطون بها، حتّى بلغ بها التوجّس مبلغًا جعلها تعتزل مجالس النّساء، وظلّت طيلة تلك السّنوات تمقت كُلَّ قولٍ جميلٍ من ألسنتهنّ، وتعدّه من حيل دسّ السمّ في العسل.

وهي تتذكّر أنّ إحدى العجائز قالت لها:

- خصيبة بنت مبروك سحرت زوجش.

فظلّت تفكّر في تلك الجملة لعلمها أنّ خصيبة بنت مبروك كانت تريد أن تزوّج ابنتها بإبراهيم بن مهدي، لكنّه اختار آسيا. وكلّما تحاول أن تطرد الفكرة من رأسها تعود فتتذكّر كلام خصيبة يوم التقت بها عند قنطرة الفلج وهي تحمل «هاندوة» الماء. كانت عيناها تشعّان حقدًا، حتّى إنّ آسيا أُصيبت بحمّى لأيّامٍ بعد ذلك الحادث. لكن الأهمّ أنّها قالت لها:

- ما شاف حد غيرش فْهذي البلاد يبغى يتزوّج منها؟

وفي محاولة للتخفيف من وطأة الفكرة المزروعة في رأسها أسرّت بها لزوجها، وقد عقدت العزم على الذّهاب إلى المرأة لعلّها تتوقّف عن أذيّتها في أطفالها، لكنّه قال لها:

- هذي مشيئة الله.

فردّت عليه بنزقٍ:

- كلّ شي بمشيئة الله، حتّى اللّي يقتلوا بعضهم بعض.

ومن باب الحرص سمّت طفلتها الأخيرة شنّة، إذ خافت أن تختار لها اسمًا جميلًا فتموت، فقد أخبروها بأنّ الأسماء الشّائنة تمنع الحسد وتحرس الطّفل من العين.

ثمّ علّقت حرزًا في رقبة الطّفلة وربطت حرزًا آخر في زندها، ووضعت ثالثًا في خلخال رجلها. وكان كلّ حرز لغايةٍ ما، واحد لأمّ الصّبيان وآخر لعين الحسد وواحد لعين الفرح.

واستخدمت آسيا الكثير من البخور، بعضه للنّهار وبعضه للّيل، وهو في المجمل لُبان وصمغ وحرمل ودقة ومخلّط من أشجار الجبل لطرد الجنّ من البيت. تُبخّر آسيا المكان وهي تتمتم بالتّعاويذ والأدعية.

نذرت النّذور وذهبت إلى قبور الصّالحين فوضعت نذورها كما أوصوها بيضًا فاسدًا وبخورًا وقطع نقود معدنيّة وبعض الفضّة ومزقًا من ملابس الطّفلة.

وزارت عيون الماء حيث تُرمى قطع الحلوى حول المنبع وهي تقول:

«يا عين زولي العين عن شنة بنت آسيا».

وتُكرّر تعويذتها وهي ترمي الحلوى عند جنبات العين.

فعلت كلّ ما بوسعها وهي ترقب طفلتها تذوي مع الأيّام، لم تترك حيلةً إلّا وقد جرّبتها علّها تنجح في إيقاف ذلك التّدهور الّذي يهدّ جسد الطفلة.

لكنّ الموت لا تمنعه الطّلاسم عندما يجيء، فلا الاحتراز ولا الطبّ يقيان منه، ولا الأسماء الشّائنة تبعده عن ضحيّته. ولذلك بعد أن صارعت طفلتها المرض مدّةً، أسلمت روحها لبارئها وتركت وخزًا عميقًا في صدر أمّها، وما أشدّ معاناة من يقف عاجزًا أمام الجائحة وهي تأخذ كلّ ما في طريقها.

وإثر الفقد الأخير لها، انتهزت غياب زوجها، وذهبت إلى تلك المرأة في بيتها وطرقت عليها الباب، وعندما فتحت لها المرأة العجوز رأت وجهًا باكيًا وعينين محمرّتين فهزّت رأسها مستفهمةً:

- خير يا بنتي، مو مستوي؟

فأجابتها غاضبةً والدّموع تبلّل لحاف شعرها المنسدل على صدرها:

- أيش بقى من الخير، أكلتي أولادي، وطفرتي بزوجي، ما يسدش؟ ليش ما تتوقّفي؟

غضبت المرأة من كلامها، لكنّها تمالكت نفسها وسحبتها إلى الدّاخل وجلست تُهدّئ من روعها وتمسح رأسها وتقرأ عليها بعض الآيات القرآنيّة حتّى استكانت وهدأت. وبعد أن قرأت عليها المعوذتيْن بصوتٍ مسموع قالت لها:

- استغفري ربش، إنّ بعض الظن إثم، أنا صحّ كنت حاقدة على زواجش لكن هذي قسمة ونصيب وهذاك شي وانتهى وقلبي صافي وما أحمل شي عليش ولا على زوجش.

فعادت آسيا إلى بيتها وألف فكرة وفكرة تدور في رأسها، هل تسافر؟ أين ستذهب؟ هل تبحث عن زوجها؟ وأين ستبحث؟ ولم تلبث أن اعتزلت النّاس وأكلتها الوحدة ومن شدّة يأسها فكّرت في الموت مرارًا.

وكأنّ الينبوع الّذي جلست أمامه يُعيد تفاصيل حكايتها، يسرد للحصى وللمكان وجعها القديم المتجدّد، هل كلّ ما دار في رأسها له صوت مسموع أم تخيّلت ذلك؟ نظرت ناحية سلمان المسافر فوجدته يعانق بنظره القِمم البعيدة بحثًا عن شيء ما.

مدّت كفّيها إلى الماء فأخذت بعضًا منه ونضحته على وجهها، كرّرت الفعل مرّاتٍ ثمّ غسلت ساعديها ومسحت قليلًا على رأسها كأنّها ستتوضّأ لصلاةٍ ما، ثمّ انتصبت فجأةً واتّجهت صوب الحمار لتصعد عليه إشارةً منها إلى الرّجل الصّامت.

كان الدّليل لا يتعب من المشي، فيظلّ يمشي في اللّيل وفي النهار ولا يتوقّف قَطُّ، وأثناء سيره يتغنّى بقصائد يحفظها، وأحيانًا يخترع حكايةً ويبدأ بسردها، فيشوب تلك الحكاية الكثير من الأشياء الّتي لا يُصدّقها العقل، وهو ينسب القصّة إلى نفسه مرّةً وإلى غيره مرّاتٍ، ثمّ يصمت قليلًا ولا يتخلّل ذلك الصّمت المهيب سوى صوت الأقدام وهي تقضّ الحصى من تحتها.

عندما وصلا إلى الغافتين نقدت الدّليل ما اتّفقا عليه من أجرة فقفل راجعًا إلى قريته، أمّا هي فراحت تسأل النّاس عن زوجها، حتّى وجدته مستلقيًا تحت سدرة كبيرة في أحد أطراف القرية وقد تبعثرت أدباشه حولها. كان شديد الهزال، متغيّر الحال، حتّى إنّها كادت تنكره لولا بريق عرفته في عينيه.

عندما رآها واقفةً عند رأسه دمعت عيناه، فجلست عنده ووضعت رأسه على حجرها وبدأت تدلك جبينه وتقبّله.

لقد كتمت مشاعرها فلم تسقط من عينيها دمعة واحدة ولم يظهر في وجهها ما كانت تُعانيه من ألم الفقد وذلّ الهجران، بل أرسلت كلّ ذلك إلى أعماق بئرٍ لا قعر لها، وكلّما نظر زوجها في وجهها باحثًا عن رسالةِ عتابٍ ابتسمت له برقّةٍ تُنعش قلبه.

بنَتْ آسيا سياجًا من سعف النّخيل حول السدرة، ثمّ رتّبته ونظّفته حتّى صار مقبولًا للسّكنى.

في كلّ يوم كانت تبلّل قطعة من القماش بنقيع ورق السّدر المغلّى وتمرّ بها على جسده، وعندما يحلّ المساء تحضر أوراق الظفرة وتطحنها ثمّ تضع عليها قليلًا من عصير اللّيمون والملح وتدهن بها كلّ أطرافه.

مرّت الأسابيع وهو بين يديها، تطبّبه وتنظّفه وتدلّك جسده وتداعبه وتسلّيه. لم ير تلك الرّوح المرحة فيها من قبل، لاسيّما بعد توالي مرّات الحمل والفقد. كان يراقب روحها سنواتٍ وهي تذوي،

وها هو يراها وكأنّه يكتشفها للمرّة الأولى، بجسدها المصقول، ومشيتها المتغنّجة، وعندما ينحسر لحاف شعرها عن الرّأس ويلمع نحرها تقترب منه كأنّها لا تتقصّد ذلك وتبدأ في فلي شعره وأثناء ذلك ينغرز أنفه في منبت صدرها ويختفي وجهه هناك، ثمّ تضغط على قفاه وتسحبه ناحيتها فيحسّ بأنّ نهديها قد أحاطا بوجهه، وبأنّه غارق في روائح جسدها.

عندما بدأت حالته في التحسّن صارت تساعده على المشي إلى الفلج فتخلع ملابسه ولا تُبقي عليه شيئًا إلّا إزاره، ثمّ تُجلسه في داخل السّاقية فيتجمّع الماء خلفه مُشكّلًا سدًّا فتغرف منه براحتيها وتسكبه على جسده.

دلّلته مثل طفل، كانت تغسله وتطعمه، وتلعب معه لعبة الرّضى والغضب، إلى أن اكتملت صحّته وعادت إليه عافيته، فصارت تسمح له بالذّهاب إلى الفلج، وتمشي وراءه حتّى إذا جلس كما تعوّد تبدأ في تدليك جسده واستثارة أماكنه الحسّاسة.

في ليلةٍ من اللّيالي شعرت بجسده يلتصق بها، ويديه تبحثان عن كنوزها المستورة، ففاح عطرها وسافر مع نسيم اللّيل. وبعد أن تعانقا ساعاتٍ بدأت تبكي وتبكي، واستمرّت على تلك الحال، تسكب دموعها على صدره حتّى نامت.

عندما ذهب إبراهيم بن مهدي إلى مطرح، ظلّ فيها شُهورًا يتنقل من عملٍ إلى آخَرَ، فعمل حمّالًا في الميناء، وبائعًا عند أحد تجّار

الحبوب، ودلّالًا في سوق الجملة، وبائع حمير، وغير ذلك. لكنّه لم يثبت في عملٍ واحد، إذ كان يبحث عن شيء لا يوجد إلّا في داخله.

سكن أيضًا في أمكنة كثيرة وتنقّل من بيتٍ إلى آخر، ثمّ بدا له أنّ الحياة في مطرح لا تعجبه فخرج منها مع قافلةٍ ذاهبة إلى الدّاخل، وهناك تنقّل أيضًا من قريةٍ إلى أخرى، فلم يستقرّ طوال هذه السّنين في مكانٍ إلّا تجاوزه إلى آخر.

في كلّ قريةٍ يشتري ضاحيةً صغيرة، غالبًا ما تكون مهملةً، ويبدأ في صيانتها وإحضار التّربة لها ثمّ يزرعها بأصناف عديدة من النّخل والأشجار، حتّى إذا استقامت وصارت كأجمل ما يكون من الضواحي باعها. وبعد ذلك يأخذ أشياءه البسيطة ويرحل باحثًا عن قريةٍ أخرى.

كانت يده خضراء مباركة، فما إن تمتدّ إلى الأرض الميّتة الّتي مرّت عليها السّنون ولم تُستصلح حتّى تصير بستانًا مخضرًّا يحوي صنوف النّخل وتحيط بأركانه أشجار اللّيمون والسّفرجل والأمبا. وكان يزرع في الجوانب الشّعير أو القت، وأحيانًا يجعل طرفًا منها لزراعة القمح.

وكلّما اشترى ضاحيةً يقف في مكانٍ مرتفع منها متأمّلًا شكل الأرض وزواياها ثمّ يبدأ تقسيمها في رأسه، ويأخذه الشّوق إلى رؤيتها قطعةً مكتملة كما تصوّرها منذ البداية، فينغمس في استصلاحها كلّ يوم، من شروق الشّمس إلى غروبها.

فإذا اكتملت وغنت وبانت معالمها جليّة كأحسن ما يكون، دخل البرود والملل إلى نفسه، ولا يلبث أن يُنادي عليها في القرية حتّى يبيعها، وفي صباح اليوم التّالي يكون قد غادرها إلى مكانٍ آخر.

ولكنّ قرية الغافتين كانت المكان الّذي ارتاح له وأعجبه، فاستقرّ فيها جاعلًا من ظلّ تلك السّدرة بيتًا له.

يقول أحدُهم ساردًا قصّة القرية مثلما سمعها من كبار السنّ:

«كان هناك راعٍ لديه قطيع كبير من الأغنام يطوف بها في أنحاء الأرض، يتنقّل من قرية إلى أخرى بحثًا عن العشب والماء، ويسكن على حوافّ كلّ قرية ثمّ يتركها إلى مكانٍ يتوسّم فيه مرعًى طيّبًا لقطيعه، حتّى هداه الطّريق إلى هذه القرية الّتي لم تكن سوى مكانٍ رحبٍ ممتلئ بأشجار السدر والسمر، وكان الماء يخرج من الأرض بالقرب من «غافتين» كبيرتين ويسيل مكوّنًا بركًا ومُستنقعات صغيرة قبل أن يغور ثانيةً في قاعها المملوء بالحصى والرّمال. ولقد أُعجب الرّاعي بتلك الأرض فأطلق عليها اسم الغافتيْن دلالةً على شجرتي الغاف الكبيرتين واتّخذ حذوهما مسكنًا له، كي يستظلّ بهما مع زوجته وأغنامه.

وبتواتر السّنين ولد لذلك الراعي الكثير من الأبناء ساعدوه في الاعتناء بالقطيع، ولكنّ أحدهم كان مختلفًا فصار يفكّر في تلك المياه المنبثقة من الأرض وبدأ يزرع عليها بعض المحاصيل والنّخل، ثمّ كبرت الفكرة في رأسه فقرّر أن يشقّ قناةً تحت الأرض متتبّعًا

المياه، آملًا أن يزيد تدفّقها ويستصلح بها الأرض المنبسطة الّتي تحيط بمنزل أبيه.

وجرّاء ذلك أخذ إخوتُه يسخرون منه، أمّا والده فنصحه قائلًا:

- لا تتعب نفسك، الماي الموجود ما بيزيد فيه شي.

لكنّ الشّابّ استمرّ يشقّ القناة ويحفر الفلج عميقًا في ذلك الوادي الكبير، وظلّ سنين عديدة يُعالج الصّخر، ولا يعلم إلّا الله طول الفلج ولا نهايته، ثمّ وصل إلى قطعة صخريّة ملساء وصلدة حاول أن يحطّمها أو أن يحدث حولها شقًّا ولكن بلا فائدة. استمرّ يكافح لفلقها أشهرًا، وجرّب طرقًا مختلفة في طَرقها وشقّها ونحتها أو تليينها، حتّى إنّه حاول الالتفاف عليها، غير أنّ حجمها حال دون ذلك، فتعب من الحفر وخاب أمله في ارتفاع منسوب الماء، ولكن صار لديه فلج يتدفّق هابطًا ناحية المنزل ويزيد تدفّقه كلّما جرى السّيل في الوادي، فزرع على جانبيه بعض النّخل والأشجار واستطاع أن يستصلح مزرعةً صغيرة ذات أصناف مختلفة من الزّروع والشّجر.

ومنذ أن بدأ في شقّ القناة جعل فتحتها واسعة، وشقّ الفلج في أعماق الأرض باتّساعٍ يجعل من يدخلُهُ يمشي واقفًا ولا يحني ظهره، وعرضٍ يمكّن رجلًا عريضًا من المرور براحةٍ.

لقد أمل أن تمتلئ قناته الواسعة بالماء، ولكنّ عناد الحجر وصلابته أبقيا ذلك النّحت الّذي عمل عليه لسنواتٍ على حاله.

ومن ثقبٍ صغير أعلى الصّخرة في ذلك العمق البعيد للفلج استطاع الشّابّ أن يستمع إلى خرير الماء وهو يتدفّق في أغواره البعيدة. كان الماء محبوسًا خلف الصّخرة، وكانت الصّخرةُ البابَ الّذي ظلّ مُغلقًا في وجهه حتّى الممات.

وتوارث أحفاده هذه القرية من دون أن يهتمّوا بها كثيرًا، إذ كان همّهم الأكبر تنمية القطيع، والمرعى من حولهم يكفيه للغذاء، وهم بذلك لديهم ما يحتاجون إليه من الحليب واللّبن والسّمن واللّحم، أمّا الحبوب فكانوا يُقايضونها ببعض الأغنام فيتوفّر لديهم ما يكفيهم لعامٍ كاملٍ».

حاول إبراهيم بن مهدي أن يشتري منهم ضاحيةً لكنّهم رفضوا، متمسّكين بكلّ شبرٍ فيها، ولقد أوكلوا أمرهم لرجلٍ طاعنٍ في السنّ لم يستطع إبراهيم إقناعه ببيع قطعةٍ من الأرض، ولكنّه تحصّل منه على عرضٍ آخر قدّمه الرجل باقتضاب:

- تريد تستأجر البلاد عندك، لكن ما نبيع شي منها.

أعجبته الفكرة فاتّفق معه على أن يعطيهم ثلث الغلّة ويأخذ الباقي له، فوافق الشيخ على ذلك بسرعةٍ، فالقرية شبهُ ميّتة، لا شجر فيها سوى نخلٍ سامق تكاثف جريده من دون أن يقلّمه أحد، وأيّ عرض لإحيائها مكسبٌ كبير.

ظَلَّ إبراهيم بن مهدي في قرية الغافتين ثلاثَ سنوات، يتقاسم الغلال مع أهلها ويبيعهم المتبقّي من نصيبه، لكنّه لم يفكّر في بناء

منزلٍ لائق له، وظلّ يسكن تحت تلك السّدرة في طرف القرية قريبًا من مخرج الفلج. وكانت سنوات خصبٍ فظلّ منسوب الماء ثابتًا يكفيه لزراعة ما يريد ويفيض.

زرع القت والشّعير وباعَه أصحابَ الأرض ليطعموا به أغنامهم، باعه بثمنٍ بخس، فلا مشتري غيرهم، و لم يكن همّه المال، بل الأرض، وحلمه الكبير بإحيائها، ورؤيتها وهي تعود نضرةً مبتهجة، يكسوها الأخضر من كلّ الجوانب وتتدلّى ثمارها ناضجة.

كان من النّادر أن يمرّ بالقرية المسافرون أو الباعة المتجوّلون، لذلك هو لا يسمع الكثير من أخبار العالم وما يدور خارج القرية، فضلًا عن أنّه بطبعه لا يُحبّ الاقتراب من النّاس والدّخول معهم في حكايات وأحاديث كثيرة، ويمكن القول إنّه أبقى فاصلًا بينه وبينهم متفاديًا الضّغائن ونقل الكلام والمشاحنات، وظلّ محتفظًا بغُربته، مستغرقًا في الأرض وزراعتها.

في الشّهرين الأخيرين أُصيب إبراهيم بن مهدي بمرضٍ في جسده جعله ضعيفًا جدًّا وغير قادر على مواصلة عمله في الأرض، فصار يقضي يومه جالسًا تحت الغافة ساهمًا، خائر القوى، حتّى مرّ أحد الباعة به وعندما سأله عن وجهته أخبره بأنّه سيقصد قريته القديمة فيما يقصد من قرى، فحمّله رسالةً إلى زوجته طالبًا منها السّفر إليه. لقد عاش سنواتٍ من دون أن تخطر آسيا على باله، سنوات لم يتذكّر فيها أنّ لديه زوجةً تركها وحيدةً في قريةٍ بعيدة، كان رأسه مملوءًا بأصوات الزّرع والغرس، فلم يسمع سوى خرير

الماء وصوت المسحاة وهي تعزق الأرض، وتلك السنوات مرّت كأنّه لم يعشها إلّا كالمسوس، وزوجته غائبة لا يتذكّر منها شيئًا، وعندما أقعده المرض تراءت له صورتها كأوّل شيء ينبثق من ركام الذّاكرة.

لقد شعر بثقبٍ في روحه، ثقب في وسط جسده بين صدره وبطنه، ثقب كبير كأنّه نافذة يستطيع أن يرى منها ما خلّفه وراءه، فطالعته صورةُ زوجته، وتشبّث بها كتشبّث الغريق بحافّةٍ متهدّمة من الفلج.

الفصل الرّابع

- ماي.. ماي..

يسقط على الأرض فتهرع إليه لتلتقطه وتحمله في حضنها.

- بسم الله عليك.. بسم الله عليك.

يشير إلى الأرض حيث وقع وهو يكرّر «ماي.. ماي».

تعتقد أنّه عطش فتمتدّ يدُها إلى الكوب، تملَؤُه بالماء، وتعطيه لكي يشرب لكنّه يهزّ رأسه ثمّ يشير مرّةً أخرى إلى المكان ذاته ويكرّر «ماي.. ماي».

يفلت من قبضتها ويركض مسرعًا ليحني جسده ثمّ يُلصق أُذنه بالأرض، ويضيّق عينيه كمن يحاول رؤية شيء ما في العتمة، ويصيخ السمع كأنّ أحدًا يناديه من الأعماق.

تبدو السّكينة والطّمأنينة على وجهه وهي تُراقبه بصمتٍ، والدّموع تتساقط من عينيها من دون أن تشعر بذلك، ترقب ضآلة وجهه النّحيف وشعر رأسه النّاعم يغطّي جبينه وقد قصّت أطرافه أعلى حاجبيه تمامًا. كانت تقف في مكانها غير قادرة على التحرّك

نحوه خطوةً واحدة، وقد احتلّتها الهواجس خوفًا عليه من المسّ والمرض، ومن دون أن تدري كانت يدها تطوي لحاف شعرها حول معصمها بشدّة حتّى كاد الدّم ينحبس في عروقها. ظلّت هناك في تلك اللّحظات الّتي لا يعلم إلّا الله كم استمرّت، رحلت بعيدًا مع الزّمن لتستعيد الحكايات والأحداث، مرّت بها أطياف كثيرة، وتداخلت في ذاكرتها الوجوه، وشيئًا فشيئًا بدأ وجه أمّها يتسلّل إليها مثل بصيص ضوءٍ يتسلّل إلى غرفةٍ مظلمة. كانت ابتسامتها تفتح في قلبها صناديقَ مُقفلةً منذ أعوام، ولكنّها سرعان ما احتجبت فجأةً، فعادت إلى حيث كانت تقف مُراقبةً طفلها فألفته في مكانه مغمض العينين، وما هي إلّا برهة حتّى فتحهما ونظر إليها وابتسم.

لم تستطع المقاومة، فسقطت من وقفتها مجهشةً بالبكاء، افترشت الأرض وطفقت تبكي، فقام الطّفل ومشى نحوها بكلّ هدوء ثم بدأ يحبو حتّى وصل إلى حضنها، وهي مستمرّة في بكائها فضمّته بحنان وحب.

كانت تلك المرة الأولى الّتي حدث فيها الأمر أمامها، لم يكن هناك غيرها ولم تحك لأحد، كتمت ذلك السرّ كي لا يشغل أهل القرية ويصبح حكاية تلوكها الألسن، فهي تدرك توجّس الناس منه منذ ولادته عند البئر.

رأت كيف تنظر بعض النّساء إليه، كيف يُتمتمن خلسةً بالتّعاويذ ويبسملن ويحوقلن ويلعنّ الشّيطان كلّما حضر معها، كانت تحتقرهنّ وتحتقر إظهارهنّ اللّطف والمودّة، وعندما تبدأ إحداهنّ بمسح رأسه

أو تقبيله، تلعنهنّ سرًّا وتمسك مشاعرها كي لا تمتدّ يدها أو لسانها إلى إحداهنّ، فتبتسم لها وهي تودّ أن تقتلع عينيها أو تنشب أظافرها في عنقها.

ظلّت تتوجّس من لقائهنّ باطّراد، لكنّها لم تنقطع نهائيًّا عن الزّيارات القرويّة، فذلك واجب عليها لا تستطيع بتره، إنّما بدأت تتخفّف منه شيئًا فشيئًا، ريثما يكبر الولد ويبدأ في الاعتماد على نفسه.

إنّ كلّ حكاية تظلّ صغيرة ما دامت في قلب المرء، ولكن حالما يكتشفها أهل القرية تنتشر وتكبر شيئًا فشيئًا. ذاك ما تعلّمته من السّنين حتّى باتت مقتنعةً بأنّ الناس لا همّ لهم إلّا لوك الحكايات الجديدة وخلق أحداثٍ غرائبيّةٍ لا أصل لها.

تُحدّث كاذية بنت غانم نفسها بذلك كأنّها تحدّث شخصًا ما بجانبها، أو ربّما تخاطب رجلًا غائبًا انتظرته كثيرًا ولم يعد، فهي تخاف من هؤلاء الناس على طفلها الصّغير، وهو لا يُدرك خطورة أن يكون مختلفًا في بلاد كهذه البلاد.مكتبة .. سُر مَن قرأ

في بداية الأمر، لم يعرف أحد شيئًا عن تلك الحالة الّتي يمر بها الطّفل الصّغير سالم بن عبدالله، إلّا أنّ كاذية بنت غانم أطلعت أباه على السرّ، ثمّ نبّهته إلى وجوب كتمان ذلك، فضحك عبدالله من كلام المرأة العجوز واعتبرها تُبالغ في التحفّظ على أمرٍ بسيطٍ يمارسه كلّ الأطفال بعبثٍ لا يعني شيئًا.

لكنّ الأمر حدث معه، وكان الطّفل قد جاوز التّاسعة من عمره، يومئذ أخذه في رحلة إلى الوديان البعيدة بحثًا عن بعض

الحشائش، وفي ذلك الوادي القاحل حتّى من بعض الثرى جلسا ليستريحا تحت غافة كبيرة كثيفة الظلّ، فوضع الطّفل رأسه على الأرض ثمّ ألصق أذنه بالتّراب وبدأ يهمس بخفوتٍ كأنّه يودّ من العالم حوله أن يصمت تمامًا حتّى يستطيع أن يستمع إلى صوتٍ يأتيه من الأعماق الصّخريّة، هناك حيث انغرس جذع الغافة وتشعّبت جذورها في أرض الوادي. نعم، لقد رآه عبد الله يغمض عينيه ويُتمتم بهدوء تامّ: ماي.. ماي.

وتعجّب الأب ممّا شاهده، فأراد أن يقطع إنصات ولده ويخرجه من تلك الحال، وقد نبتت في قلبه الوساوس كما تنبت على طرف الوادي شجيرات الظفرة بعد مطرٍ غزير، سأله: «تريد تشرب؟ هذي القربة معلّقه».

هزّ الطفل رأسه بالنّفي وهو يفتح عينيه ثمّ يبتسم في وجه أبيه، ويعاود الكرّة مُصغيًا إلى شيء ما بين جذع الشّجرة وحجارة الوادي، ما جعل صبر والده ينفد، أو بالأحرى خوفه وتوجّسه يكبران ويحتلّان صدره. أمسى القلق مثل هواءٍ دخل فجأةً بين صدره ومعدته، وبدأ بالضّغط على الحاجز الرّهيف للصّدر. ولم يلبث أن قال لطفله ناهرًا:

- قوم من مكانك، أيش فيك؟

فجلس الطّفل ممتثلًا لأوامر أبيه وقال:

- ماي، أسمع صوت الماي في الأرض.

يعرف عبدالله بن جميّل أنّ الأذن عندما تُصاب بالالتهاب يصدر منها طنين يختلف من شخصٍ إلى آخر، فالبعض يسمع ذلك الطّنين على شكل خربشات، والبعض الآخر على شكلِ صفيرٍ حادٍّ، وثمّة أيضًا من يسمع صوتًا مثل خرير ماءٍ ضئيل، وعلى ضوء ذلك عزا ما شاهده إلى أنّ الصبيّ مُصابٌ في أذنه، وقرّر أن يرى ما في داخل تلك الأذن، فطلب منه أن يقترب وأسند رأسه إلى رجله ونظر في داخل أذنه، لكنّه لم ير شيئًا، فلا شمع يبدو أنّه قد ملأها ولا حشرة على مدخلها تعمل تلك الخربشات، ولا قطرات ماء عالقة يمكن أن يعزو إليها ما حدث.

جلس الطّفل ونظر إلى والده وقال:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- باه، أسمع ماي في الأرض.

فابتسم الأب وقال له:

- هذي أذنك توجعك، يمكن بيجيك زكام.

فسكت الطّفل ولم يقل شيئًا، بل حدّق في قمم الجبال حوله، واهتمّ بعد برهةٍ بما يراه حوله من صخورٍ وحشراتٍ وطيور متناسيًا تمامًا ذلك الصوت الّذي صار يسمعه في أماكن بعينها.

أخذت الغفوة عبدالله بن جميّل ورأسه موضوعٌ على كيس الزّاد ورجلاه ممدّدتان على الحصى. كان الوقت ما يزال مُبكّرًا على العودة إلى البيت، وكانت تلك الغفوة بمثابة الغذاء الّذي ينتظره بعد جوعٍ شديد. وعلى الرّغم من أنّ غفوته تلك لم تطل، فقد كانت كافيةً تمامًا

لأن يستيقظ وقد امتلأ بالنّشاط فيعود من بحثه هبوطًا مع الوادي حتّى يصل إلى قريته. لقد حدث شيءٌ ما وهُو نائمٌ، ولكنّه تذكّر ذلك بعد زمنٍ طويل.

كان الطّفل قد بنى قرية صغيرة من الحصى، وصنع لها فلجًا جرت مياهه من غدير في الجوار، وامتدّت القناة حتّى دخلت الأزقّة والحارات وهبطت إلى بساتين خضراء جاء بمزروعاتها من أعواد النباتات الجبليّة على الضفّة، وبينما غرق أبوه في نومته العميقة، غرق هو في خلق تلك القرية ولم يكترث بعد ذلك بصحوة والده ولا بالرّحيل عن ذلك المكان، وكأنّ العودة إلى البيت لا تعنيه.

- قوم، غايته نروّح.

لكنّ سالم ظلّ مكانه يحدّق في كونٍ آخر أمامه من دون أن يسمع ما قاله والده.

وعندما وقف عبدالله بن جميّل مستعدًّا للمشي، منتظرًا أن يقوم طفله من مكانه، انتبه إلى جموده، إذ لم تصدر عنه حركة واحدة وقد تجمّدت أطرافه وبدا كأنّ نَفَسه قد انقطع.

اقترب منه ووضع يده على كتفه ثمّ هزّه برفقٍ، فانتبه الطّفل، ونظر إلى وجه أبيه. حينئذٍ رأى الوالد في العينين النّاعستين شيئًا لا يعرف له تفسيرًا، نظرةً لا يمكن أن تخرج من عيني طفلٍ صغير بل من رجلٍ كبير طاعن في السنّ، وخُيّل إليه أنّ التّجاعيد تملأ وجهه الرّقيق.

هزّ الطّفل رأسه كمن ينفض بعض العوالق، ثمّ مدّ يده إلى والده فجرّه ومضى في اتّجاه البلاد.

لم يكترث عبدالله بن جميّل بتلك اللّحظة، ولكنّه عاد إليها بعد سنوات، وضرب جبينه بكفّه وهو يقول:

- من كذاااااا.

كان يجلس في نهاية السبلة صامتًا كعادته يستمع إلى حكايات النّاس ويوميّاتهم، وأخبار من سافروا ومن عادوا، وكانت الحكايات الكثيرة تتداخل، والأصوات المختلفة ترنّ في أذنه، وهو يضع رأسه على الجدار، من دون أن يفقه شيئًا.

وكلّما اجتمعوا به كانوا يلتفتون نحوه، لأنّه لم يكن يشارك في الأحاديث، بل يظلّ متكوّمًا على ذاته وقد جمّع أطرافه وألصقها بجسده كأنّه ينأى بها عن بللٍ أو نار. ونادرًا ما كان يقول كلمةً واحدة طوال الوقت. فإذا تفوّه سهوًا بكلمةٍ أو بكلمتين، فإنّهم يخبرون زوجاتهم حالما يعودون إلى البيت بأنّ عبدالله بن جميّل قد أسهب في الحديث ذاك اليوم.

لقد صارت تلك حاله منذ أن فقد زوجته، يُنهي عمله في الحقل ويذهب ليأكل بضع لقيمات على الغداء، ثمّ يجلس بعد صلاة الظّهر في السبلة حتّى العصر مستمعًا إلى أحاديث الآخرين دون أن تبدر منه مُشاركة فيها.

وبين حينٍ وآخر يحلو لواحد من الجماعة أن يقطع حكايته

ويوجّه سؤالًا إلى عبدالله بن جميّل ظنًّا منه أنّه سيُجيبه، لكن بن جميّل ينظر إليه ويقطّب حاجبيه ثمّ ينكس رأسه ولا ينبس بحرف واحد.

يحدث أيضًا أن يخرج الشخير في غفوته من عمق الحنجرة ولكنّه يكاد لا يُسمع، فيبقى نائمًا حتّى يلكزه أحدهم كي يقوم لصلاة العصر أو يقلقه شيء ما زاره في حلمه فيستيقظ وينظر إلى الحاضرين بعينيه المحمرّتين ثمّ يعود ثانيةً إلى نومه.

ويومَ عاد فكره إلى تلك الرّحلة الصّغيرة مع طفله الوحيد تذكّر كلّ شيء، تذكّر أذنه الملتصقة بالأرض، تذكّر تكراره لكلمة «ماي ماي»، وتذكّر أيضًا غفوته ثمّ استيقاظه على صوت ذلك الخرير من فلج القرية الّتي صنعها ابنه سالم.

تذكّر كلّ شيء ونطق جملته الوحيدة ثمّ عاد إلى صمته.

كان خائفًا من أن يعلم النّاس بحالة سالم، ولكنّهم عرفوا، وحدث ما كانت كاذية بنت غانم تتحاشى وُقوعه.

خرجت ذات صباح إلى مزرعة تقع على تخوم القرية، فتبعها محاولًا مجاراة مشيتها السّريعة. لم تلتفت ناحيته إلّا مرّتين أو ثلاثًا طوال تلك الرّحلة الصّباحيّة، وعندما التقت بإحدى النّساء عند سدرة نبتت على ضفّة الوادي، وقفت تتحدّث إليها وتُعلمها بما سمعت من أخبار، بينما اتّكأ الطّفل على جذع السدرة وبدأ ينكش الرّمل بعصا صغيرة، وفي غمرة حديثهما أحنى رأسه ووضع أذنه على الأرض تمامًا عند جذعها، ثمّ بدأ يهمس بكلمته الّتي يُردّدها دومًا في تلك الحال.. «ماي.. ماي..».

التفتت المرأة صوب سالم فاسودّ وجه كاذية كأنّ ليلًا شديد العتمة قد هبط فجأةً على المكان، فلم تر المرأة ولم تسمع ما قالته بعد ذلك، إذ تركتها واقفةً وهرعت إلى طفلها وأخذته من يده تجرجره خلفها مسرعةً إلى أن اختفت في منحنيات الوادي.

وانتشر الخبر، انتشر كما الحريق يبدأ من شرارة في كومة ليف ثمّ تأخذ نسمة هواء خفيفة الشّرار إلى الأشجار والمزروعات الأخرى، وفي لحظة قصيرة من الزّمن يتوهّج المكان ولا تُبقي النّار ولا تذر.

«وَلد عبدالله بن جميّل يسمع شيئًا في باطن الأرض».

حكت المرأة ما رأته لمن التقت بهم في طريقها، ثمّ كبرت الحكاية وتحوّرت وتغيّرت وصار بينها وبين الأصل سيوح وجبال ووديان.

قالوا: «يكلموه أهل تحت».

وقالوا: «تو تأكد أنه ود الجن».

استعاد النّاس حادثة غرق أمّه وقالوا إنّ سكّان البئر في العالم السفليّ أخذوا جنينها ووضعوا أحد أبنائهم بدلًا منه.

وهناك من اتّهمه بالسّحر، فقال سيكبر وسيسحر الكبير قبل الصّغير.

وكانت تلك الأحاديثُ كافيةً ليبتعد النّاس عنه وعن كاذية بنت غانم ويتّهموها بأنّها تعلم سرّه علم اليقين وكتمته لأنّ أهل العالم السفليّ يراقبون كلّ كلمة تتلفّظ بها.

صارت النّساء يهربن من طريقها، يتجاهلنها ويغيّرن مسارهنّ حالما يلمحنها في زقاقٍ ما أو بين النّخل أو في أحد الوديان. وتبدأ الأدعية والتعاويذ الّتي تحفظ الإنسان من الحسد والسحر والجنّ بالانهمار من أفواههنّ، وهنّ يُتَمتمن بكلّ ما تجود به قرائحهنّ ممّا يحفظن.

أطلقن عليها الكثير من الألقاب: المنشار، راعية الضّبع، «بو تتقشع بنابها»، «بو تيبس الماي»، والكثير الكثير غير ذلك حتّى صارت لا تدخل إلى بيوت الحارة إلّا مع من يكنّ لها صادق الودّ.

ذات يوم قابلتها فتاة عند قنطرة الفلج وكانت تضع على رأسها وعاءً مملوءًا بالماء، فانفلت ونضح الماء عليها، وأخذت ترجُف من الخوف وَتستعيذ وتدعو الله في سرّها وهي ترمق كاذية بعينين متوجّستين.

وكان هذا الحادث كافيًا كي يصدّق النّاس قدراتها الخارقة.

وفي يوم آخر مرّ بها أحد الرّعيان وهو يجرّ بكلّ ما أوتيَ من قوّة تيسًا كبيرًا بقرنين معقوفين، وما إن فاتها حتّى سقط التّيس جثّة هامدة، فصرخ الرّاعي وهو يحتضن تيسه:

- وافقري من عمري، فقرتيني من التيس.

لكن كاذية بنت غانم لم تصغ إليه ولم تلتفت نحوه بل مرّت بهدوء واختفت في طرقات القرية.

فشكاها الرّاعي عند شيخ القبيلة قائلًا:

- ضربت بعينها على التيس ومات من لحظته.

واستدعى الشّيخ كاذية وسألها أمامه:

- الرجّال يقول عنتي تيسه، انتي فيش عين؟

وكان ردّ كاذية أن أمعنت النظر في الشّيخ فتغيّر وجهه وبدا الخوف ينزّ من عينيه وتعوّذ بالله منها مخافة أن تسحره، ولقد لاحظت ذلك وكادت تضحك، لكنّها تماسكت وفتحت عينيها على اتّساعهما وقالت للشّيخ:

- أنا فيي عين؟ أنا فيي عين بس؟ لا، أنا فيي عينين، عينين ثنتين، تشوفهن كيف ما أحلاهن؟ هذيلا عيوني، تشوفهن؟

فتيبّس الشيخ في مكانه ولم ينبس بحرف، واستدارت هي خارجةً من مجلسه، وقبل أن تتخطّى الباب قالت له:

- التيس مات مخنوق.

تقول كاذية بنت غانم «الشّي اللّي تخاف منه قبل ما يصير، بيزيدك قوّة من يستوي». وهذا ما حدث بالفعل، فقد ظلّت فترةً طويلة تحمل السرّ في داخلها، خائفةً من أن يلحظه أحد أو يخرج في غفلة منها فيتسرّب إلى عقول النّاس وألسنتهم، ثمّ يسري مع النّسيم بين سفوح الجبال متنقّلًا حتّى يصل إلى أصقاع الأرض والقرى البعيدة، وتجد نفسها وطفلها منبوذين من الكلّ.

وعندما وقعت في المعضلة وانكشف السرّ نبَذَها النّاس وقالوا ما قالوا، فإذا هي تخرج من رماد الخوف لتصير ذلك الكائن القويّ الذي يهابه الآخرون.

لقد صار الخوف في داخلها طمأنينةً كبيرة، وفي الآن ذاته كبر في صدورهم واتّسع حتّى صارت وهي المرأة العجوز الضّعيفة المتوجّسة تمشي بجلال وهيبة في كلّ طرقات القرية.

أمّا عبدالله بن جميّل فلقد سمّاه الناس بالمُغَيّب، واخترعوا حكاية مفادها أنّ السّاحرة أكلت زوجته واستحوذت على بيته وولده، وأنّه يعمل عندها كحيوان مُطيع تأمره بين الفينة والأخرى بأخذ ضحاياها إلى مغاور الجبال، وهناك تنفرد بهم فتأكلهم ضحيّةً إثر ضحيّة. ولمّا وصل كلّ ذلك الكلام إلى مسامع بن جميّل، لم يكترث به، بل ظلّ مخلصًا لعمله في البساتين الّتي كان يُباشرها من الصّباح الباكر إلى الظهيرة.

عندما كانت كاذية بنت غانم في الخامسة من عمرها هجر أبوها البيت وخرج هائمًا في الوديان والقرى، يحمل طبلًا معلّقًا على كتفه ويضرب عليه بعصا غليظة، ضربات هادئة وبنسق بطيء حتّى إنّ الزّمن الفاصل بين الضّربة والأخرى كان يكفي لتُروى حكايةٌ ما.

«الرحماني»، ذلك هو اسم الطّبل الضّخم المعلّق منذ القدم على وتد البيت الطينيّ، الطبل الّذي عاش والد كاذية طفولتَهُ وهو يحملق فيه ويرقبه دون أن يقترب منه يومًا، لأنّ والده حذّره منه قائلًا:

- سوّي في حياتك بو تبغاه، لكن لا تقرب منه.

تزوّج غانم وأنجب ثلاث بنات، ثمّ مات والده. وبعد أن دفنه عاد إلى البيت حزينًا صامتًا وجلس قبالة الطّبل المعلّق. ظلّ ينظر

إليه أيّامًا وأيّامًا، كان خلالها يسمع طرقاته في داخله تُرجِف صدره، وتناديه: «تعال»..

وفي صباح يومٍ مّا تناول غانم الطّبل من مكانه وأمسك بعصاه وخرج من بيته بلا رجعة.

كان ينتعل حذاءً من جلد ولكنّه تآكل من كثرة المشي وتقطّع، ثمّ بدأ يمشي حافيًا غير مُبالٍ بالجُروح والشُّقوق الّتي انتعلت قدميه، وقد تمزّقت ملابسه بعد أن كانت ناصعة البياض، وانتفش شعرُ رأسِه وكبرت حدقتا عينيه وبدأ زبدٌ أبيض يملأ فمه، وفاحت رائحته حيثما ذهب.

خرجت زوجته باحثةً عنه في الجوار، ثمّ قصدت كلّ الأماكن الّتي اعتاد أن يرتادها مع الرّفاق، بحثت في أزقّة القرية وفي الوديان والجبال ثمّ في القرى القريبة حتّى تأكّد الخبر بأنّ زوجها ظلّ ماشيًا هائمًا في الطّرقات يقطع الفيافي والجبال لا يستريح قطّ، وقد علّق ذلك الطبل على كتفه وما انفكّ يطرق عليه.

اختفى الأب فلم يَعُد يُسمع عنه شيءٌ، لم يعثروا عليه ولا على الطّبل، وتكاثرت الحكايات عنه كما يتكاثر النّمل الأحمر على حبّة التّمر.

لم يستطع سالم بن عبدالله اللّعب مع الأطفال مثلما كان يفعل سابقًا. صار الكلّ يتحاشاه وهو لا يدرك لصنيعهم سببًا، لم يعرف أنّ الأمّهات قد حذّرن أولادهنّ كي لا يقتربوا منه، وأَمَرنَهم أن يمتنعوا عن اللّعب معه.

وحدها الطّفلة المشلولة الّتي تجلس أمام باب بيتها تُحيّيه بيدها وتبتسم له عندما يمرّ.

اقترب منها مرّةً فمدّت يدها لتعطيه حبّات من التّمر، وما إن مدّ يده ليأخذها حتّى سمع صوتًا غاضبًا يأتي من الدّاخل، وخرجت امرأة سمراء برأس كبير وصوت حادّ فنهرته وطردته من المكان.

بكت الفتاة ممّا حدث، أمّا هو فقد ظلّ يركض ويركض قاصدًا البيت، وبكاؤها وصراخ أمّها الغاضب يتردّدان في مسامعه.

بعد ذلك تردّدت تلك الفتاة إلى أحلامه مرّات عديدة، تشرق بوجهها مبتسمةً ثمّ تقترب منه، كان يراها في الحلم تمشي على قدميها وترقص حوله وتغنّي أغانيَ كثيرةً بلا توقّف.

في تلك الأحلام كانت البدايات والأحداث تختلف من حُلمٍ إلى آخر، ولكنّ النهايات ظلّت متشابهة. يرى فيها الفتاة تسقط من رقصتها في بئر مظلمة، ويسمع صراخها وبكاءَها يتصاعدان من أعماقها، فيلبث مطلًّا من فوهة تلك البئر، مراقبًا الظّلمة علّها تنقشع فيستطيع أن يرى ما في داخلها، وبينما هو كذلك يخرج وجه مخيف من فوهة البئر فيخاف ويصرخ، ثمّ يستيقظ والهلع يملأ روحه.

ظلّت تلك الأحلام تأتيه على فترات متباعدة، ثمّ اختفت فجأةً، وبعد سنواتٍ مرّ أمام البيت الّذي تجلس الفتاة عند بابه، فلاحظ أنّه مقفل. وإذ اقترب منه وأصغى لعلّه يسمع شيئًا في الدّاخل، لم يجد غير الصّمت والخواء.

في العاشرة من عمره لم يعد سالم بن عبدالله ينصت إلى خرير المياه الجوفيّة، إذ أدرك أنّ ذلك ما يخيف النّاس منه فكفّ عن ممارسة هوايته ظاهرًا، لكنّه ظلّ يلعب من دون أن يشاركه أحد.

كلّ صباح يستيقظ ذاهبًا إلى مدرسة القرآن، يضع مصحفه في كيس قماشيّ تسمّيه كاذية بنت غانم «البخشة»، ويمشي بتأنّ وبطء، يستمتع بالأصوات من حوله، زقزقة العصافير وهي تنتقل من شجرةٍ إلى أخرى، حفيف أوراق الشّجر، مشي الفئران على حوافّ زور النّخل، زحف أفعى في الجوار قبل أن تدخل جحرها، وهمهمات تأتي من خلف جدار، وقد يسمع أحيانًا صوتَ بكاءٍ مكتوم لطفلٍ مريضٍ يتوجّع من شدّة الحمّى، أو صوتَ نبشٍ ما بين الحشائش.

كانت تلك الأصوات تنجذب إلى أذنيه من كلّ صوب، وكان يطيب له أن يحلّلها ويُرجعها إلى مكوّناتها الأولى، وكلّما وصله صوت غريب داخله الفضول، وشرع يتخيّل من يكون وراءه.

بين الخطوة والخطوة، في تلك الفترة الزمنيّة القصيرة والضئيلة من الجمود والترقّب تأتيه الأصوات، يشعر بها مثل دفقات من دوائر مائيّة تتكاثر حول أذنه، فيُؤخذ بجمالها وينفصل عن عالم الموجودات. يسحبه ذلك العالم الحسيّ، عالم الأصوات المتداخلة إلى عمقه اللّذيذ، فيشعر بذاته تخرج وتسافر في كلّ مكان بحثًا عن الصّوت، حتّى صار يدرك تمامًا ماهية الأصوات الّتي يجمعها.

وقد يكتشف صوتًا غريبًا ويبدأ في لعبته المحبّبة. وعندئذ يعمّ الصّمت فجأةً وتخبو كلّ الأصوات من حوله، وتتجمّد الأشياء وتصمت، ولا يتبقّى سوى ذلك الصّوت الضئيل الغريب قادمًا إليه من أماكنه البيضاء الخافية.

لكنّ رحلاته الصّباحية لا تخلو من منغّصات تظهر بين الحين والآخر، كأن يصادف امرأة تتشاءم من رؤية وجهه صباحًا فتُسمعه بعض الكلمات الجارحة، أو أن يرميه فتى بحجَرٍ وهو يصرخ فيه «ود الغريقة» وقد يُصادف رجلًا يخرج من بيته غاضبًا فيُفرغ ما أغضبه في وجهه مستعملًا أبشع ما يعرف من كلمات نابية، وكأنّه هو المسؤول عن عذابات النّاس وجروحهم، وسبب مصائبهم وخيباتهم كلّها.

في البداية كان يخبر أمّه كاذية بنت غانم بكلّ ما يلاقيه في طريقه، وكانت تواسيه، فتتحدّث عن أهل القرية وظلمهم مستدعيةً كلّ الحقد المخزّن في داخلها عليهم. كان كلامها يؤذيه ويوغر صدره، فتوقّف عن سرد تلك الأحداث واعتبرها عابرة، بل إنّه صار مع الوقت يشعر بقيمة ما يحدث معه ويستمتع به، وقد فهم أنّ مُعاملة النّاس له بكراهيّةٍ وإجحافٍ ليست سوى إقرارٍ بتميّزه في معرفة الأصوات من حوله، إذ كان يسمع حتّى دبيب النّمل وهو يتسلّق جذوع الأشجار.

في أحد الأيّام أمسكه المعلّم من قفاه بيدٍ من حديد، وراح يسوطه على ظهره وأطرافه، وهو يصرخ ويتوجّع، ويتوسّل إلى

المعلّم كي يتوقّف حتّى يثبت له أنّه لم يفعل شيئًا، لكنّ المعلّم صاحب العينين المندلقتين من محجريهما لم يتوقّف إلّا حين تعب من ضَربِه.

سقط سالم على الأرض باكيًا، ولم يتوقّف صوت المعلّم عن الهدير والصّراخ بغضبٍ، وهو يوجّه كلامه إليه ويعني به الكلّ.

حدث ذلك بسبب مؤامرةٍ دُبّرت له من قبل طفلين كانا يجلسان خلفه مباشرة، والقصّة أنّ المعلّم قرأ آيةً، وردّدها الجميع بعده، ثمّ عاود قراءتها مرّاتٍ حتّى ترسخ في عقول الأطفال، وبعد ذلك انتقل إلى الآية الّتي تليها وهو يجلس في وسط الحلقة، وفي كلّ مرّة يوجّه وجهه إلى مكان مّا أو يدور بجسده كلّه. فلمّا أدار ظهره ناحية سالم ومن معه، تناول طفل منهم حجرًا ورمى به المعلّم فأصاب رأسه. وبفعل الألم والمفاجأة معًا جمد المعلّم مدّةً ثمّ ترنّح وقد استبدّ به الوجع حتّى كاد يسقط في وسط الحلقة.

وعندما التفت إلى المكان الّذي جاء منه الحجر بعينيه المحمرّتين من الغضب والوجع، رأى الطّفلين وهما يشيران إلى سالم، وقبل أن يدرك الطفل شيئًا كانت عصا المعلّم تسوطه وتتلوّى على جسده.

تأخّر في عودته إلى البيت، لم يشأ أن ترى أمّه وجهه الباكي فظلّ هناك عند الشلّال يأخذ في كلّ مرّة حفنةً من الماء يرشق بها وجهه حتّى هدأ الألم وزالت آثار البكاء عنه. وفي طريق عودته إلى البيت رآها هناك تقف عند باب بيتهم وهي تنظر إليه بحنانٍ، كانت فتاةً

سمراء ذاتَ شعر أجعد وعينين كحلاوين، أغلب الظنّ أنّها في مثل عمره. فوقف يحملق فيها مذهولًا.

كانت هديّة الله، أرسلها إليه من السّماء حتّى يُنسيه آثار الضّرب، فبدا له أنّ الألم قد انقشع عن جسده كما تنقشع سحابة من الغبار عن الجبال فجأةً، فيصير المكان صحوًا، وأنّ كلّ ما حدث له في الصّباح لم يكن سوى كابوس من الكوابيس الّتي تقضّ مضجعه أحيانًا.

يا لها من هديّة! فتاة سمراء تعادله في الطّول أو هو أطول منها قليلًا، لم تخف منه، لم تُبسمل ولم تتعوّذ من الشّيطان، لم تؤذه بنظرةٍ متردّدةٍ قلقة، بل ظلّ وجهُها مثل زهرةٍ بريّةٍ تفتّحت للتوّ وقد نشرت شذاها في المكان.

الفصل الخامس

كان سالم بن عبدالله يصادف سلام ود عامور في طرقات القرية، ويشعر برابطةٍ تشدّه إليه، وبوجود شيءٍ غريبٍ في وجهه وعينيه يلفت انتباهه، لكنّه لا يُدرك كنه ذلك الانجذاب العجيب، فيظلّ متوجسًّا ولا يقترب منه.

مرّةً حكى لأمّه كاذية بنت غانم أنّه يُصادف في أوقاتٍ متباعدة رجلًا ذا شعر أشيب منكوش، له لحية كثّة وشاربٌ كبير يغطّي شفتيه، تقدح النّار من عينيه لشدّة احمرارهما.

ضحكت كاذية بنت غانم من كلامه وأخبرته بأنّ الرجل يُسمّى الوعري، سلام ود عامور الوعري، مؤكّدةً أن لا أحد في البلدة وفي الدّنيا كلّها أكثر شهامةً وطيبةً منه.

- هذا الرجّال هو اللّي طلّع أمّك من الطوي.

وكانت قد أخبرته من قبل بحكاية غرق أمّه في تلك البئر العميقة وبأنّ رجلًا شجاعًا استطاع بلا خوفٍ أن يصل إليها وينتشلها من القاع.

وما دام قد علم هويّة ذلك الرجل، فقد انطلق لسانُها يحكي له ما

تعرفه عن الوعري، عن ذلك الفتى الّذي كان في مثل عمرها، وتربّى في الحارة ذاتها الّتي تسكن فيها. حكت له عن الخوف والبغض واليُتم، وأغلب الظنّ أنّها كانت تحكي لنفسها والطفلُ صامتٌ لا يفهم معظم ما تقول.

في سنّ السّابعة مرض سلام بن عامور وسقط طريح الفراش، مرض مرضًا شديدًا، فاحتارت أمّه وعجزت عن معرفة ما عليها أن تفعله ليُشفى، حتّى قالت لها إحداهنّ:

- جايتنه مربيته.

ولا علاج لأمّ الصّبيان إلّا بالقراءة وتعليق الحروز، فلجأت أمّ سلام إلى الشّايب سويدان بن حسين فقرأ لها في فنجانٍ به ماء أصفر وطلب منها أن تسقيه ولدَها، ولكنّ طفلها ظلّ يهذي والحمّى تشتد به، فعادت إلى الشّايب سويدان وقد حملت طفلها على كتفيها.

وضعته بين يديه وهي تبكي وتقول:

- ولدي بتشله مربيته، ولدي بيموت ولا نفع معه دوا ولا محو.

مدّده أمامه وبدأ يمرّر يده على الجسد الصّغير، والطّفل ينتفض ويهذي، وأنفاسه تخرج ساخنةً، ثمّ قال للأمّ:

- اغسليه بماء الفلج.

فأخذته وغسلته وغسلت ملابسه كلّها وفراشه، لكنّ ذلك لم يُجْدِ نفعًا، فقد صَحَتْ في تلك اللّيلة ذاتها على صوت أنفاسه وهي

تتقطّع كأنّه يحتضر، فجلست بالقرب منه تبكي وتنوح، وتُنادي زوجها الغائب:

- تعال أوو عامور ولدك بتشله مربيته.

وطوال شهر كامل ظلّت الحمّى تخضّ الوعري وتسيله عرقًا ورجفة، ولم ينفع معه دواء أو تميمة، فلم تبقِ أمّه متبصّرًا أو مداويًا في البلاد والبلاد المجاورة إلّا وذهبت إليه.

ضرب خمّاسٌ الرّملَ ثمّ قال في صوت مخنوق إنّ الأرض قد ابتلعت الولد عند السدرة الوسطانيّة القريبة من حافّة الوادي وسط البلدة، فنظرت صبيحة إليه باستغراب، وقالت له:

- ولدي يا خمّاس ما غايب، ولدي مريض وراقد في البيت.

فهزّ خمّاس رأسه يمنة ويسرة، وقال لها وهو يفتح ذراعيه والحيرة تملأ وجهه:

- هذا بو يقوله الرمل.

وتنشّق حمّاد بو دحبة البخور فحضر صاحبه الجنيّ وجعله يهزّ رأسه وهو يسحب الدخان بمنخريه الكبيرين، ثمّ قام ومشى حتّى دخل وادي الغيلان ووقف أمام صخرة كبيرة بيضاء صمّاء وقال لها:

- ولدش هنا، داخل، مسجون في هذي الحصاة.

فتحسّست صبيحة صلابة الصّخرة وعادت متشكّكة في ما قاله بو دحبة صاحب شيخ الجنّ، وظنّت أنّه قد كبر وشاخ.

وفي صباح أحد الأيام صحا الطّفل فجأةً من رقدته الطّويلة وقد تعافى وانسلخ عنه المرض، فقدّمت له أمّه فطورًا أكله كلّه، وبقي صامتًا ينظر إليها ولا يتكلّم حتّى سألته ما إذا شبع، فهزّ رأسه بالنّفي، ما جعلها تقوم من مكانها وتعدّ له فطورًا آخر. وعندما وضعته أمامه بلعه بلعًا من دون أن يتوقّف لحظةً لالتقاط أنفاسه.

فرحت صبيحة بتعافي ولدها وإقباله على الأكل، إلّا أنّه ظلّ ينظر إلى وجهها بعينين محمرّتين، ولا يطرف له جفن، وحدقتاه مُركّزتان على وجهها، فقامت وأحضرت صحنًا مملوءًا بالتّمر فبدأ يأكله من دون أن يخرج النوى منه، وما هي إلّا لحظات حتّى أتى عليه كلّه.

رفع رأسه ثانيةً ونظر إلى وجهها تلك النّظرة الّتي بدأ قلبها يرتجف منها، فطردت هاجسًا في نفسها وقامت لتسكب له كوبًا من اللّبن، وعندما شربه بدا صوتُ بَلْعِه واضحًا. ثمّ عاد ينظر ناحيتها، فبحثت في البيت عمّا يمكنها أن تقدّمه له، ولم تجد أمامها إلّا جرّة اللّبن، وحالما ناولته إيّاها سكب كلّ ما تحتويه في جوفه فيما ظلّت هي تراقبه بصمتٍ.

وظلّ الطّفل يأكل كلّ ما يُقَدَّم له ولا ينطق بحرفٍ واحد، أكل أيّامًا وأسابيعَ، أكل التّمر الّذي في البيت، واللّحم المملّح، وذبحت له أمّه دجاجاتها واحدةً تلو الأخرى، ثمّ أكل الأرز، واختفى في بطنه مخزون البيت من الطّحين والحبوب وهو يأكل ويأكل حتّى نفد كلّ شيء، فما كان من صبيحة إلّا أن خرجت إلى دكّان القرية

واشترت ما استطاعت وعادت لتطبخه وتطعم طفلها الّذي لا يسدّ جوعه شيء، ولا يظهر على جسمه أيّ تغيّر مهما أكل.

في إحدى اللّيالي وهي نائمة بجواره، فتحت عينيها فجأةً فرأته جالسًا عند رأسها ينظر إليها بعينين حمراوين، كانت عيناه أشبه بجمرتين متّقدتين من شدّة احمرارهما، فارتعبت وقامت وأوصالها ترتعش، وركضت صوب الباب حتّى كادت تسقط متعثّرة، ثمّ أدارت ظهرها ونظرت إليه فوجدته لا يزال ينظر إليها، بِتَيْنك العينين النّاريّتين.

طوال الوقت وعيناه تتبعانها، وهي تمشي في أنحاء البيت، وعندما تدخل حظيرة البقر، وعند أيّ حركة من حركاتها. ما إن تلتفت ناحية الباب حتّى تجده واقفًا هناك وقد ثبّت نظرته على وجهها، فتحاول تحاشيه أو تناسيه قليلًا، وتمتنع عن التّفكير فيه وهي تطبخ أو وهي تكنس الحوش، ثمّ تسترق نظرةً نحوه فتخيفها عيناه.

وأحيانًا تجلس إلى جانبه وتبدأ في نسج حكايةٍ ما لعلّها تجرّه إلى الكلام، ولكنّ ملامحه تبقى جامدة وكأنّه لا يسمعها، تناديه باسمه فلا يستجيب. والحقّ أنّها جرّبت معه شتّى الطّرق عساها تُخفّف من عذاب عينيه اللّتين تلاحقانها، والصّمت العجيب الّذي أصابه.

كم مرّةً صحت من نومها على رعبٍ يدبّ في روحها وينفض أوصالها! وفي واحدة من تلك المرّات كانت مستغرقةً في نوم عميق،

ثمّ شعرت بثقلٍ على صدرها وعندما استيقظت وجدته جاثمًا فوقها وهو ينظر إليها، فصرخت وقامت جافلةً، وما إن سقط على الأرض حتّى أمسكت بدشداشته ورفعته ثمّ هزّته بقوّة حتّى كادت مفاصله تتفكّك. صرخت فيه:

- من انته؟ من انته؟ وهين ولدي.. هين ولدي.

وظلّت شهورًا تنوس وتبكي وهي تخبر جاراتها بأنّ ولدها قد اختفى ولم يعد، وأنّ هذا الّذي في بيتها ولد غريب.

كلّ محاولات الجيران ومعارفها في القرية لتغيير رأيها باءت بالفشل، فاستمرّت تبكي وتنوح ولدها الغائب وتلعن الحسّاد والسّحرة والجنّ في قريتها، وتعتبر أنّ الجميع كانوا ضدّها وقد تحالفوا ليخفوا عنها الحقيقة الجليّة، حقيقة اختفاء ولدها عند الجنّ، وأنّهم استبدلوا به الولد الجنيّ الّذي صار يعيش معها.

أهملت طفلها تمامًا، توقّفت عن إطعامه، وما انفكّت تطرده من البيت كلّ صباح ولا تطيق رؤيته، فصار يهيم على وجهه في طرقات القرية، ويلجأ إلى الظّلال فيندسّ فيها مختفيًا عن أترابه من الأطفال الّذين كانوا يركضون خلفه باستمرار، ويشدّونه من شعره ويرمونه بالحجارة ويصرخون عليه «ود الجن.. ود الجن».

وكان بعض الجيران يمنعون عنه الأطفال رأفةً به، وعندما وصل الخبر إلى الشّايب ساعد بن حميد، جاء إلى الحارة واجتمع بالجيران ونصحهم بأن يمنعوا أطفالهم من التعرّض للطّفل،

فامتنعوا عنه وتركوه لحال سبيله، لكن لم يستطع أحد أن يقنع أمّه بتغيير طريقة تعاملها معه، فقرّرت إحدى جارتها أن تعتني به وبدأت تقدّم له الطّعام والملبس.

كان الجميع ينتظرون عودة الأب من عمله البعيد، قالوا سوف يتغيّر الطّفل في الحال عند عودته، لكنّ غيبته طالت حتّى ظنّت صبيحة أنّ زوجها متواطئ مع الجميع في إخفاء ولدها.

كلّما سنحت الفرصة تَجمع النّاس في القرية، وتهدر بكلماتها مثل سحابة داكنة استقرّت وسط السّماء قبل أن تسكب ماءها، ومثلها تمامًا كانت تهدر ثمّ تسحّ دموعها فتبلّل لحاف شعرها وتذهب وهي تتحدّث مع نفسها.

قالت لها منيرة بنت سعدون، وهي امرأة من القرية المجاورة جاءتها حالما علمت بأمرها، واستمعت لحكايتها كلّها:

- انت تقولي هذا ما ولدش.

هزّت رأسها بالإيجاب، وهي تنظر إلى وجهها.

- يشبهه ولا ما يشبهه.

- يشبهه واجد، لكن هذا حواجبه عليهن شعر واجد، وولدي سلام شعره خفيف.

- يمكن الولد تغيرت حواجبه.

- وعيونه؟

- مالهن عيونه؟

سألتها منيرة وهي تفتح عينيها تعجّبًا من كلامها.

- عيونه حمرات كما الدم، يقدحن كأنهن شرار، وسلّوم ولدي عيونه سودات وبياضهن بياض.

- يمكن صابه مرض، حكة داخل عينه، أو يمكن صابته مضرّة من حسد، عيون النّاس ما ترحم.

- جايتنه مربيته.

- أم الصّبيان؟

- هيوا

- وتدوري سبب لعيونه؟ زين أنه بخير

- وقلبي؟

هزّت منيرة رأسها ووضعت يدها في يد صبيحة وبدأت تمسح عليها:

- علامه قلبش؟

- قلبي يعرف الطّفل اللّي سكن فيه، قلبي مغيبنه، قلبي يقول إنه مسروق، وأن هذا ولد غريب.

- ويمكن انتي انصبتي بالعين؟ يمكن حسدوش عليه، ومبغاي منش ما تحبي ولدش؟

بدأت صبيحة بالبكاء، فخرجت منيرة ووعدتها بالعودة القريبة،

وانطلقت باحثةً عن سلام في القرية، حتّى إذا وجدته أخذت بيده وعادت به إلى البيت، ووضعت يده الصّغيرة في يدها قائلة لها قبل أن تذهب:

- هالله هالله بولدش.

ثمّ جلست على الأرض قبالته تمامًا ونظرت إلى وجهه ومسحت عليه بكفّها:

- هالله هالله بأمك.

يقال إنّ صبيحة بنت حمدان بينما كانت ذات يوم تُغسّل طفلها في ماء الفلج صادفت رجلًا طاعنًا في السنّ لا تعرفه، أو ذاك ما شاع في القرية، فتوقّف يتأمّلها وهي تأخذ الماء وتسقطه على جسد وليدها، وظلّ واقفًا مكانه برهةً لاحظت خلالها في نظراته ما يُريب، ولكنّها بقيت منهمكةً في تدليك الولد وغسله، وهي تقرأ المعوذتين والأدعية الّتي تحفظ حتّى لا يضرّها شرّ من ذلك الرّجل الغريب.

وعندما بدأت تُلبس الطّفلَ ثيابَهُ اقترب منها الرجل وسألها عن اسم الولد، فظلّت صامتة وهي تقول في نفسها:

- الله لا يبليني من وراك ببلية.

وإذ أعاد سؤاله لها ولم تجبه أدار ظهره ومشى في طريقه، لكنّه سرعان ما توقّف فجأةً وقال:

- سلام، اسمه سلام.

فانتفضت صبيحة كأنّ دبُّورًا قد قرصها وقامت من مكانها على ساقية الفلج وهي ترتعش من الخوف. وفي اللّحظة ذاتها التفت الرجل نحوها وابتسم، ثمّ اقترب منها خطواتٍ وكانت هي في المقابل تتراجع إلى الخلف، فأشار إليها ألّا تخاف، وقال وهو يهمّ بالمغادرة:

- هاتيله أخ، ما حلو الولد يبقى وحده كأنه ود الجن.

ضربت صبيحة بكفّها على جبينها وهي تشرب القهوة في بيت جارتها فسكتت النّساء الحاضرات وتغامزن، ثمّ قالت إحداهنّ:

- صبيحة عندها خبر.

ولم تكتمل الجملة حتّى هزّت صبيحة كفّها أمام أعينهنّ وقالت:

- هو ذاك الرجال، هو بو دخل فراسي الدودة.

- أي دودة؟

سألتها جارتها مستفهمةً، لكنّها لم تجبها، بل قامت من جلستها قبل أن تُكمل فنجانها وركضت إلى بيتها.

بعد مدّة عاد زوجها إلى البيت، وسألها عن الطّفل الّذي تركه صغيرًا:

- وين سلام؟

نظرت في عينيه، وإذا فيهما انكسارٌ صريح، انكسارُ المهزوم في حروبٍ لا ناقةَ له فيها ولا جمل، فلم تزد في إجابتها عن كلمتين:

- سلام غاب.

شهق الرّجل كأنّ آخر شيء يتوقّعه أن يكون وحيده قد مات. ثمّ تمتم مُستوثقًا:

- مات؟

فأجابته صبيحة وقد غلَبَتْها دموعُها:

- صابته أم الصّبيان، أخذته معها.

وفي تلك اللّحظة دخل الطّفل من الباب فسألها زوجُها:

- من هذا الولد؟

فطفقت تصرخ وهي تشير إلى سلام:

- هذا ما ولدي، ولدي أخذوه الجنّ، هذا ولدهم، بدلوا ولدي وخلولي هذا.

ثمّ قامت فأمسكت بيد الطّفل وسحبته لتُخرجه من البيت وهي تقول:

- روح عند أهلك، هذا ما بيتك، وخبرهم يجيبوا ولدي.

حاول الولد التملّص من قبضتها فأحكمتها عليه، ثمّ امتدّت يدُها الثانية إلى وجهه وبدأت تخدشه، وما أفلتت يدَهُ إلّا لتقبض على عنقه مُحاولةً خَنْقَه.

وعبثًا حاول زوجها فكّ يديها المتصلّبتين على رقبة الطّفل. كانت تضغط بكلّ قوّة والولد يختنق وعيناه تجحظان، وفي غمرة

ذلك تناول الأب بندقيّته وضرب رأس زوجته بكعبها فألقاها صريعةً على الأرض.

بقي سلام جالسًا عند رأس أمّه ونطق لأوّل مرّة بعد مرضه، وهو يرى الدم ينزّ من رأسها المشجوج:

- ماه.. ماه.

وقف عامور ممسكًا بندقيّته ينظر إلى جسد زوجته المطروح على الأرض، وإلى ولده الّذي لم يكفّ عن مناداة أمّه والبكاء عليها، ثمّ خرج من البيت.

ذهب إلى الوالي وسلّم نفسه واعترف بقتل زوجته، ولم يعد بعدها إلى البلاد، ولا سُمع عنه شيءٌ.

زاد الوعري في توعّره بعد أن فقد أهله ولم يبق له أحد، صار يهيم في البلاد ولا يقبل أن يتحدّث مع أحد، يذهب كلّ يوم إلى الوديان العميقة ويختبئ بها، ثمّ يعود في عتمة اللّيل لينام في بيته.

- من هين يأكل؟

سأل الطّفل أمّه كاذية بنت غانم، فتناولت كفّه الصّغيرة ودسّتها بين كفيها وقالت:

- كنت أكبر منه بخمس سنوات، وكنّا جيران، البيت بالبيت.

ظلّت كاذية تأخذ الطّعام إلى بيت الوعري وتضعه في الدّاخل مغطّى بغطاءٍ سميكٍ عن الحشرات والحيوانات، وحين يعود

الوعري من جولاته في منتصف اللّيل جائعًا وتعبًا، يجد الطّعام في مكانه المعتاد، فيأكل ثمّ يترك الأواني عند مدخل البيت، فتأتي هي في الصّباح وتأخذها لتعيد الكَرَّة في غيابه.

- وليش ما تزوجتيه؟

ضحكت كاذية من سؤال طفلها، ثمّ أجابته وقد غطّت شفتيها حياء:

- أنا أتزوج الوعري؟ تريد النّاس يقولوا ما تزوّجت طول عمرها وما بغت غير الوعري؟

هرش الطّفل رأسه، محاولًا فهم الفكرة، كيف يمكنها أن تهتمّ بشخصٍ وترفضه في الوقت ذاته؟

وبمجرّد أن فعل ذلك اعتقدت كاذية أنّ طفلها مصاب بالقمل فبدأت في فلي رأسه، وهي تلومه:

- قلت لك إذا تلعب مع أولاد الجيران من تجي البيت لازم تسبح وتغسل شعرك.

كان سالم يفكّر في قصّة سلام ود عامور الوعري، محاولًا أن يتخيّل كيف عاش ذلك الطّفل وحيدًا بلا أب ولا أمّ، لا سيّما أن هنالك وجه شبه بينهما، فهو أيضًا فقد أمّه مثله، أمّه الّتي قال عنها أحد الصّبيان إنّها ممسوسة، وإنّ الجنّ كانوا يسكنون رأسها. نعم، ذاك ما قاله الطفل عندما غضب منه وهما يلعبان، لكنّه لم يخبر أمّه كاذية بالأمر، بل ظلّ يحتفظ بكلّ ما يسمع لنفسه.

الفصل السّادس

مرّت خمسة عشر عامًا على وفاة مريم بنت حمد ود غانم غريقة في البئر، واستمرّت آثار ما حدث بعد ذلك من سيولٍ وخصبٍ سنواتٍ لم يشعر النّاس خلالها مرّةً بانقطاع السّحاب، بل ما عادوا يحفلون بأن تكون السّماء غائمةً أو صحوًا، إنّما ظلّوا يسقون ضواحي النّخل والبساتين ويوردون مواشيهم المياهَ الوفيرةَ التي انبثقت من الأرض وشقوق الجبال، فنشط الفلج وسالت الغدران واكتست الجبال خضرةً كثيفة.

كان في القرية ثلاثةُ أفلاج تقسمها إلى أثلاثٍ متساوية تمتدّ موازيةً للوادي، وحولها الجبال الشّاهقة من جهة الشّرق، تقابلها من ناحية الغرب أرضٌ ممتدّةٌ ومفتوحةٌ على الأفق. وكانت شلّالات الماء تهبط من الجبال وتذهب إلى عمقِ صحراءَ حصويّةٍ نبتت فيها أصنافٌ من الأشجار الكبيرة مثل السدر والغاف والقرط والسمر، وفي سنوات الخصب الّتي أعقبت غرق مريم بنت حمد ود غانم امتدّت المزارع إلى السيوح البعيدة في تلك الصّحراء، وكان البرّ المفتوح يغري الجميع بزراعته ويقول لهم هل من مزيد؟

عاش النّاسُ حياةَ رخاءٍ وسال المال بين أيدي الأغنياء، أصحاب البساتين الكثيرة لاسيّما الّذين توسّعوا في المزارع الجديدة، فتمرّغوا في البذخ، وصاروا يشترون أشياءَ كثيرةً لم يعرفوها من قبل ولم يحتاجوا إليها، فتنافسوا في جمع الآلات والأثاث وبنادق الصّيد والصّيغة من الفضّة والذّهب، لكيلا يظهروا أمام النّاس في حال أقلّ من الدعة والغبطة والغنى.

وطوال تلك السنين ظلّ عريق بن خميس مجنون القرية يجوب الحارات وهو يردّد أنّ القيامة ستقوم قريبًا، وأنّ ما يفعله النّاس علامةٌ على ذلك، ولكن لا أحدَ كان يبالي به وبما يقول.

مرّت الأعوام من دون أن يخطر ببالِ أحدٍ أنّ الماء الّذي كان يجري منحدرًا مع الوادي سيغور ويختفي، والسّهولَ الممتدّة المكسوّة بالشّجر والأعشاب ستصفرّ وتيبس ثمّ تموت، وضواحيَ الحبوب الّتي ملأت السيوح والضّفاف ستبقى خبرًا بعد أثر.

يُقال إنّ الشّايب حميد بو عيون أخذته سنةٌ من النّوم وقت الضّحى، فرأى نارًا تجتاح البلاد حتّى التهمت كلّ شيء، نارًا أوقدت المزارع والبيوت وانتشرت في الجبال، وكان النّاس يهربون منها، يلوذون بالقمم والكهوف، وهي تمتدّ وتحيط بهم من كلّ الجهات، وسرعان ما بدأت تبلع النّاس في جوفها، فإذا أناسٌ يعرفهم يتلوّون ويصرخون وهم يُجرّون إليها، وقبل أن تمدّ إليه ألسنتها هبّ من رقدته مفزوعًا وصار يخبر كلّ من جاء لزيارته بالحلم، وبعد ذلك بأيّام قليلة مرض مرضًا لم يتعاف منه، ثمّ مات.

جاء الصّيف بقسوةٍ لم يعهدها أحد، الصّيف اللهّاب الحارق، والرّياح الغربيّة الّتي تشعل النّار في المواقد من سخونتها. جاء الصّيف وذهبت مياه الينابيع والوديان، تبخّرت ولم يبق منها إلّا آثارها في الصّخر وفي مجاريها دلالةً على ذلك الخصب الطّويل الّذي عاشوه غافلين، عندئذ شعر النّاس بالعطش، جفّت حلوقهم قبل أن يروه حقيقة، فصاروا يشربون بغير انقطاع، يُرى الشّخص منهم وهو يحمل ماءه أينما سار، يُفرغه في جوفه لعلّ العطش يستكين لكن لا فائدة، وكأنّ القحط الّذي ينتظر الأرض احتلّ أجساد النّاس ونفوسهم، فما عادوا يرتوون البتّة، حتّى الدعة المعهودة في عيونهم اختفت، فأصبح كلّ واحد منهم يحمل غضبه بين عينيه.

امتدّ المَحْلُ إلى كلّ البقاع، لم يُبق بلادًا ولا قريةً قريبةً أو بعيدةً على حالها، استمرّ يمارس قسوته على الكائنات، وبدأت الحياة تنحسر وتتلاشى شيئًا فشيئًا، حتّى إنّ الموت تفشّى في الأرض فأخذ الأطفال والمواليد والأغنام وصارت الطيور تقع من عليائها ميّتةً بفعل العطش، ثمّ انتشرت السّرقات وتقاتل أهل القرية على نصيبهم من الماء وما تبقّى لهم من زادٍ شحيح.

صار النّاس في كلّ جمعة يخرجون لصلاة الاستسقاء، لعلّ السّماء تجود عليهم بالمطر، ولعلّ الله ينظر إلى حالهم ويغفر لهم ما أسرفوا في حقّه وحقّ أنفسهم.

كانوا يخرجون ضعفاءَ مُتّسخين يحلمون بتلك الوديان الجارفة الّتي يسيل الماء فيها هادرًا متساقطًا من شلّالات الأعالي، مَنّوا

أنفسهم بتلك البرك الباردة بمائها الرقراق يسيل على أجسادهم فيغمرها بالحياة، أخرجوا مواشيهم وأطفالهم معهم، ذبحوا بعض الأغنام تقرّبًا، قلبوا ملابسهم باطنًا إلى ظاهر حتّى يظهر مدى اتّساخها، تضرّعوا واستغفروا لعلّ سحابة تنبت في الأفق، ولكن دون جدوى.

لم يبق في القرية إلّا نبعُ ماءٍ ضئيلٌ يسيل من صخرةٍ صمّاءَ مُنسكبًا في حوضٍ صغير في مزرعة سلام ود عامور الوعري، وكان الجميع يتناوبون على ذلك الحوض آخذين منه حصّتهم من الماء.

سمح الوعري لكلّ عائلةٍ بأَخْذِ نصيبها من الحوض دلوًا واحدًا كُلّ يوم، على أن يُؤخذ الماء في النّهار ويُترَك الحوض ليمتلئ ليلًا حتّى تُعاد الكَرَّةُ صباح اليوم الموالي.

وقسّم الوقتَ بين العائلات كي لا يزدحم المكان بهم، فصار لكلّ منهم وقتُه وحصّتُه من الماء، وكان الوعري يجلس تحت عريشه مستقبلًا كلّ من جاء، متابعًا حكاياتهم وأخبارهم الّتي لا تتغيّر في أغلب الأحيان، فتراهم يلوكون كلّ خبر يسمعونه مرّاتٍ عديدةً في اليوم، ولا يملّون من ذلك حتّى ينبت خبرٌ جديدٌ في المكان.

عندما كبر سلام ود عامور الوعري وعرف ما يسرّه وما يضرّه، لم يعثر على شيءٍ قد خلّفه له أبوه سوى تلك المزرعة الصّغيرة في أقاصي القرية، على ضفّة وادٍ تُحيط به الجبال من اتّجاهين متقابلين، تشرق الشّمس عليها متأخّرة بسبب القمم الشّاهقة وتغرب عنها باكرًا للسّبب ذاته.

لم يجد مكانًا أجمل منها ليعيش فيه عزلته بعيدًا عن النّاس وكلامهم، فظلّ يزرعها طوال تلك السّنين بالخضروات وقليلٍ من النّخل، غير عابئ بتمدّد النّاس في زراعتهم إلى كثير من الضّواحي، إذ لم يكن همّه أن يمتلك الكثير، بل أن يجد كفايةَ حاجته.

نسيه النّاس حتّى كاد ذِكْرُهُ ينقطع، وكبر في العزلة بهيئته العجيبة تلك، ولم يختلط بأحد إلّا في مناسبات قليلة جدًّا كالأعياد، فكان يأتي صباح العيد ليصلّي معهم وقبل أن ينتبهوا إلى وجوده يكون قد غادر المكان وعاد إلى عزلته.

وبمرور الوقت انعزل أكثر فأكثر، تاركًا النّاس ودوائر كلامهم، واتّجه إلى القمم والجبال، متلذّذًا بما يجد من العسل الجبليّ ولحم الوعول والظباء.

كان يتساءل متعجّبًا: كيف يقضي النّاس كلّ حياتهم في مكانٍ واحدٍ لا يبرحونه؟ وكيف يهابون المضيّ وحيدين إلى الأمكنة البعيدة خوفًا من الجنّ والشّياطين والسّحرة؟ وكانت متعته المُثلى إيقاد النّار في مكانٍ بعيدٍ ليُعِدّ قهوته أو ليشويَ اللّحم.

حدث ذات يوم أن مرّت به كاذية بنت غانم بصحبة سالم بن عبدالله وهي ذاهبة لبعض شؤونها، فطلب منها الجلوس للقهوة وبعد أن رفضت في بداية الأمر أذعنت لإصراره وجلست تنتظره على حصير القصب المتآكل. وبينما هو عند موقد القهوة وقد أعطاها ظهره، قام سالم بن عبدالله من مكانه كأنّ شيئًا ناداه، وصعد ناحية

حوض الماء وبدأ يتحسّس الجبل، ثمّ توقّف فجأةً ووضع أذنه مُنصتًا إلى الصّخر.

تنقّلت عينا الوعري من الموقد إلى مكان الطّفل، خوفًا عليه من الانزلاق والسّقوط في حوض الماء، لكنّ فضوله أنساه القهوة الّتي بدأت رغوتها ترتفع وترتفع حتّى فاحت.

انسكبت القهوة على الموقد فأطفأت النّار، فما كان من الوعري إلّا أن أزاح الدلة من فوق أثافي الموقد وعاد ينظر إلى سالم بن عبدالله في وضعيّته تلك، وما هي إلّا لحظات حتّى قام الفتى ونظر إلى الوعري، وبكلّ طمأنينةٍ وهدوء، قال له:

- هنا ماي.

نكست كاذية رأسها خجلًا، وقد أربكها تصرّف الطّفل، لكنّ الوعري استمرّ في الحديث مع سالم بن عبدالله، وسأله:

- بس هنا جبل صم.

- اكسر هنا، سوّي شقّ صغير بس ويطلع الماي.

هزّ الوعري رأسه موافقًا، ثمّ أداره صوب كاذية، وقال لها «ولدك صادق»

نظرت إليه بتعجّب، فأكمل «فهالمكان تستوي رطوبة كبيرة في الشتا، وأحيانًا في شدّة البرد يطلع ماي».

شربت كاذية قهوتها ثمّ خرجت قاصدةً بغيتها، فشيّعها بعينيه،

كان في القلب شيء قديم مازال يخزه بين الفينة والأخرى، فظلّت عيناه تتبعانها حتّى اختفت من دون أن تلتفت إلى الوراء.

بعد ذهاب كاذية وطفلها قام الوعري من مكانه وتسلّق الجبل أعلى الحوض حيث كان الطّفل تمامًا، وهناك في الموضع الذي أشار إليه بدأ يطرق الصّخر بمطرقة حديد كبيرة ومسمار طويل.

ساعده الماء الّذي تسرّب عبر الصّخر، فلم يتوقّف عن الحفر، حتّى صارت قطعُ الجبل تتهشّم تحت ضرباته، وقد أدرك أنّ الماء صنع طُرُقَه وفتّتَ الصّخر من الدّاخل منذ زمنٍ بعيد وما بقي سوى قشرة تبدو متماسكةً، لكنّها لا تحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ كي تتساقط.

وهكذا تهشّم الصخر قطعةً قطعةً، وانفلق عن شقٍّ صغيرٍ غائرٍ في الجبل. كان لون الصّخر مائلًا إلى الزّرقة القاتمة، الزّرقة المشبعة بالماء، وسرعان ما تصدّع الجبل وتسلّل الماء مُنحدِرًا إلى الحوض ضئيلًا، لكنّه كان يكفي لكي يملأ ذلك الحوض في ساعات قليلة كلّ يوم.

لم يشعر الوعري بأهميّة تلك القطرات المنبثقة من الجبل حينئذ، والمكان كلّه يعجّ بالمياه من كلّ الجوانب، كل ما في الأمر أنّه أراد التأكّد من صدق ما يقوله الطّفل، فترك الماء يسيل ويملأ البركة.

وعندما جاء المحْلُ وغارت المياه وذهب كلّ ذلك الخرير الّذي يحيط بالمزرعة، ظلّ ذلك الينبوع الصّغير يدمع من قلب الجبل، شاقًّا طريقه إلى الحوض من دون أن يشعر بوجوده أحد، وعندما جفّت

المياه من القرية ولم تبق سوى العين الّتي تنبع في مزرعته أطلق عليها النّاس «عين الوعري»، ولكن من يستطيع الذّهاب والتّحدث إليه عن ذلك، وقد هجره الجميع وعاش ميّتًا في قلوبهم؟

كان لا بدّ من رجلٍ يُنصت الوعري إليه، وبعد برهةٍ من التفكير اتّضحت ملامحه في رأس الشيخ حامد بن علي، قائلًا «عبدالله بن جميّل، محد غير عبدالله بن جميّل».

وسرعان ما ذهب إلى بيته، لكنّه لم يجده، فظلّ يبحث عنه في الحارات حتّى تعب، وكلّما طال انتظاره ازداد غضبه وحنقه، وما انفكّ يسأل كلّ من يُصادفه «وين هالمغيّب ود الجن؟ محد شافه».

وكان بن جميّل قد ذهب ليحتطب وعاد متأخّرًا بعد حلول اللّيل فوجد الشّيخ ينتظره عند الباب، وقد استغرق في التحدّث إلى ابنه، حتّى إذا رآه قادمًا هبّ من وقفته وقال له صارخًا «هين غبت؟ الواحد يوم ما يبغاك يلقاك فكلّ مكان كما الرمل، ويوم يدور عليك تغيب كأنّك قطرة ماي وتبخرت؟».

ثمّ طلب منه أن يذهب إلى الوعري ويتحدّث إليه في حاجة النّاس إلى ماء عينه، فوافق بن جميّل ووعده بأن يذهب باكرًا، ولكنّ الشّيخ صرخ غاضبًا «تو تروحله، من يضمن تعيش لبكرا؟».

فضحك بن جميّل ضحكةً تَردَّدَ صداها على جدران بيوت الحارة وتناقلتها سفوح الجبال، كانت ضحكةً غريبة، سمع على إثرها في أقاصي الحارة مُواء قططٍ تصيح خوفًا ورفرفة طيور غريبة في بقايا الأشجار.

ذهب بن جميّل ليخبر الوعري بأمر الشّيخ، خرج من القرية ودخل الوادي المظلم ولم يكن هناك قمرٌ في تلك اللّيلة يضيء الدّرب، إلّا أنّه لم يخف ولم يتوقّف حتّى وصل قرب مكان الوعري. نادى بأعلى صوته عليه، فجاء يستقبله وقد أخذته الحيرة.

قال له:

- الناس تابعينك.

شرع الوعريّ عينيه كي يتبيّن وجه الرّجل الّذي يتحدّث إليه:

- ما بيني وبين الناس شيء، أيش يريدوا؟

فأخبره عبد الله بأنّهم يطلبون منه السماح لهم بأن يستسقوا من حوض مزرعته كلّ نهار.

أطرق سلام بن عامور الوعريّ رأسه وبدأ يفكّر ويفكّر، ثمّ قال له:

- قول للشّيخ يجي عندي باكر الصّبح.

ثمّ قام وملأ وعاءً بالماء وناوله إيّاه وهو يقول:

- خذ هذا واعطيه كاذية.

في صباح اليوم التّالي ذهب الشّيخ إلى المزرعة وجلس معه، واتّفقا على قسمة الماء كما ينبغي، ثمّ عاد الشّيخ ليجتمع بأهالي القرية وبدأ في توزيع أوقات السقاية اليوميّة بينهم. بدأ من أقاصي القرية حتّى انتهى إلى بدايتها، وهكذا حصل النّاس على مورد قريب منهم يستطيعون أخذ الماء منه لشربهم وطهي طعامهم القليل.

مرّت الأيّام وعين الوعري كما هي، يشرب النّاس منها كلّ نهار، ويأخذ ما يبقَى في الحوض ليسقي به مزروعاته ليلًا، لكنّ الحياة لا تستكفي بشرب الماء فقط، فمن أين سيأكل النّاس وقد بدأت مخزوناتهم من الحبوب تتناقص شيئًا فشيئًا؟

في إحدى الجلسات بعد صلاة الظّهر في سبلة القرية عنّت الفكرة لأحدهم فقال:

- ليش ما نحفر الفلج؟

نظر النّاس إليه، بعضُهم هزّ رأسه متفكّرًا، وبعضهم كاد يردّ عليه ردًّا غاضبًا، لكنّ الشّيخ تدخّل وهو يقول له:

- لكن الدّنيا كلّها جافّة، من وين يجي الماي للفلج؟

تحدّث الرّجل وشرح فكرته، قال إنّ القرية قبل سنوات الخصب كانت تعتمد على مياه الفلج، لكنّ السّيول الجارفة طمرته فلم يعد يعرف مكانه، وربّما هناك من أخفى آثاره الباقية عمدًا -قاصدًا بكلامه بعض الحاضرين- وما عليهم إلّا أن يعيدوا حفر القناة مُجَدَّدًا لعلّهم يصلون إلى منبعه، فإذا لم يجدوا ماءً واستمرّ القحط هلكوا، لكن لو عثروا على الماء سوف تعود الحياة إلى قريتهم.

هزّ الكثير من الحاضرين رؤوسهم موافقين على الفكرة، وقالوا إنّ لديهم ما يكفي من معاول وأدوات وسواعدهم باتت تشتاق إلى العمل. وهكذا قرّروا البدء في شقّ الفلج، ومن لم يستطع العمل أُلزِم بالمساهمة في تكاليف الحفر.

اتّفق النّاس على ما قرّره الشّيخ، واجتمعوا صباح اليوم التّالي عند أوّل القرية، وساروا يتفحّصون الأرض، محاولين العثور على بقايا ظاهرة لقناة الفلج، ثمّ بدأ اليأس يدبّ في نفوسهم، لأنّهم لم يجدوا أثرًا لها، فأين سيبدؤون الحفر وفي أيّ اتّجاه سيحفرون؟

استعانوا بكبار السنّ، لكنّهم اختلفوا، فواحد يشير إلى الغرب والآخر يشير إلى الشّرق، ومنهم من اقترح حفر شقّ في الأرض على عرض الوادي من الضفّة إلى الضفّة الأخرى، ومنهم من أشار بحفر شقٍّ موازٍ للوادي، وكأنّ الخصب والسّنوات قد محت ذاكرتهم تمامًا، فلم يعودوا متأكّدين من مكان الفلج، بل إنّ بعضهم شكّك في الأمر كلّه، غير مسلّم بوجود فلج في القرية من قبل.

منذ اليوم الأوّل، تيبّست حلوقهم من العطش حالما توقّفوا صباحًا تحت عين الشّمس مباشرة باحثين عن أثر يدلّهم على مكان الفلج، فنظر بعضُهم إلى السّماء كأنّه يرتجي غيمةً عابرة تحجب سياط المحرقة، وأوشك آخرون أن يعودوا إلى بيوتهم وقد داخلهم اليأس من الوضول إلى ما يبحثون عنه.

ارتفع نهار ذلك اليوم من دون أن يتوصّلوا إلى شيء، أضحت فكرة العثور على الفلج وإعادته بعيدة المنال، بل أبعد من ترجّي مرور أيّ سحابة ماطرة أعلى الرّؤوس، وفيما هم واقفون في مكانهم إذا بالوعري قادم ناحيتهم بمشيته الهادئة المعهودة، يمشي كأن لا شيء في الحياة يدفعه إلى المضيّ.

وصل صوت نزاعهم إليه، سمع هديرهم يتناقله صدى الجبال، أحسّ بتلك الجلبة الّتي حدثت صباحًا، وشعر بأنّ هناك ما يهمّه فقرّر التدخّل.

توقّف النّاس عن الكلام ساعة وصوله، لقد بات الكثير منهم يكنّ له الاحترام على ما فعله من دون أن يتباهى أو أن يحاول استثمار كَرَمه، بل ظلّ على حاله، لا يردّ السّلام بأكثر من كلمة عندما يأتون ليأخذوا نصيبهم من ماء حوضه، وكلّما حاول أحدهم فتح حديث معه، ينظر إلى عيني المتكلّم ولا ينبس بحرف، وكان ذلك كفيلًا بأن ينهي استرسال أيٍّ منهم في الكلام.

قال له الشّيخ من دون أن يسأله:

- قرّرنا نحفر الفلج، لكن ما نعرف بدايته ولا نهايته.

عادت الذّاكرة بالوعري إلى الأيّام الّتي طردته فيها أمّه من البيت، عادت إلى الأماكن الّتي جلس فيها، وكان أحدها شريعة الفلج، هناك تمامًا عند انبثاق الماء من الأرض وخروجه، لقد جلس هناك طويلًا، فكيف لا يعرف مكانه، تذكّر الصّخرة الكبيرة الّتي استظلّ بها طيلة النّهار، نظر ناحيتها فإذا هي قد دخلت بطن الضواحي، كانت تلك الضّواحي لأكبر أغنياء البلد، وأكثرهم صيتًا ومكانةً بين النّاس، كانت للشّيخ، شيخهم، فكيف ينسى الشّيخ شيئًا أخذه بلا حقّ وضمّه إليه.

تذكّر مرور الفلج تحت تلك الصّخرة تمامًا، ثمّ استمراره

بمحاذاة الوادي على ضفّته حتّى يغيب في الأرض، تذكّر جدرانه المبنيّة بالصّاروج، وهي تمتدّ متعرّجةً مع انحناءات المكان.

ولم يلبث أن أشار بيده ناحية الصّخرة:

- هناك، عند الحصاة الكبيرة.

أطرق الشّيخ رأسه خجلًا، إذ تذكّر كيف تعدّى على حرمة القرية وامتدّت يداه إلى حرم الفلج وأخذ الأرض الّتي تحيط به وهدم كلّ ما حوله، فنظر النّاس إليه ولم ينبس أحدهم بكلمة.

ذهب الجميع إلى حيث أشار الوعري وبدا كأنّ ذاكرتهم قد رُدّت إليهم، تذكّروا كلّ شيء في تلك اللّحظة، واستعدّوا للحفر بحثًا عن أثرٍ يتتبّعونه ليصلوا إلى القناة القديمة.

مرّت أيّام وأسابيع، والنّاس يعملون ببطء شديد في حفر الفلج، لقد توصّلوا إلى بعض قنواته لكنّهم لم يتوصلوا إلى أمّ الفلج، فالسّيول طمرت كلّ شيء، ولم يعودوا يعرفون أين يتجّهون بالحفر، لأنّ السّيل الجارف قد ردم القنوات الدّاخليّة وملأها بحجارة كبيرة سدّت المجاري، إلّا أنهم كابروا وعاندوا ذلك كلّه، وتقدّموا رويدًا رويدًا مع الوادي.

امتدّت القناة عميقًا في الأرض من دون أن يجدوا قطرة ماء أو حتّى بعض الثّرى يُؤمّلهم بوجود الماء، كانوا يحفرون منذ الفجر حتّى اقتراب الظهيرة، ثمّ يعودون، ويتكرّر الأمر كلّ يوم بلا انقطاع.

شاركوا جميعًا في الحفر، كبارًا وصغارًا، حتّى سالم بن عبدالله جاء مع أبيه وحمل الفأس ونبش الأرض معهم بحثًا عن الفلج وهو لم يره من قبل.

مرّت شهور والفلج يمتدّ ويمتدّ، عثروا على سواعده وفروضه القديمة، وعثروا على أمّ الفلج، لكنّها كانت جافّةً وبلا قطرة ماء. شهور طوال من الطّرق والحفر واستخراج الحصى والرّمل والأتربة، تشقّقت فيها أياديهم وتيبّست وجوههم واغبرّت أبدانهم وشعورهم ولم يجدوا شيئًا.

قبل أن يصلوا إلى أمّ الفلج تذكّر أحد الّذين عملوا في القناة قبل الخصب اتجاه آخر الفرضات وكيفيّة الوصول إليها، فأعطاهم ذلك دافعًا لكي يُكملوا، لكنّ سالم بن عبدالله قال لأبيه وهو يحدّثه بهمس:

- الماي ما هنا، الماي هناك.

وأشار إلى نقطةٍ قد تعدّاها الحفر، وهي في اتّجاه اليسار بعيدًا عن مسار الفلج، لكنّ عبدالله بن جميّل خاف سخرية النّاس فسكت ولم يستجب لما قاله ولده.

مساءً أخبر عبدالله بن جميّل كاذية بما حدث، فقامت ونظرت إلى عيني سالم، حاولت أن تقرأ ما فيهما، لكنّ بصرها أعياها ولم تجد شيئًا ممّا تبحث عنه، وما هي إلّا برهة حتّى قامت فجأةً كالملسوع وهي تشهق. لقد تذكّرت شيئًا جعلها تأخذ وقايتها وتخرج من البيت مسرعةً.

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، ولكنّ ذلك لم يمنعها من الذّهاب، والخروج من بيتها وهي تتحدّى الوقت والعتمة، تقطع الممرّات المظلمة والدّروب الّتي صارت خالية من النّاس، وتتّجه ناحية عين الوعري لا تريد من الوقت سوى أن يُمهلها قليلًا، ومن العتمة إلّا أن تتأخّر دقائقَ حتّى تصل وتعود. صحيح أنّ عين الوعري ليست بعيدةً، غير أنّ الرِّجلين لم تعودا على حالها، ومع ذلك وصلت كاذية إلى المزرعة في وقتٍ قياسي بالنّسبة إلى امرأةٍ في عمرها.

وقفت حائرةً، ما الّذي سيقوله الوعري عنها وقد أتت إليه في تلك السّاعة؟ كيف جاءته وحيدةً؟ لم تكن تخافه، لكنّها كانت تخاف مواجهة حبّه لها في تلك العزلة وهما وحدهما لأوّل مرّة، فطوال عمرها لم تقف بجواره بمفردها، وها هي تُحدّث نفسها «وا لفضيحة مو بيقول عني؟».

رآها، رأى خيالها فعرفها، كانت العتمة قد تكثّفت قليلًا فشكّ في أمر نظره على الرّغم من أنّه ما زال يرى النّملة وهي تمشي على الصّخر. وقفت مكانها ولم تجرُؤ على التقدّم خطوةً واحدة إلى الأمام، ووقف ينتظرها، وعندما شعر بخيالها لا يتحرّك شكّ في بصره، هل ما يشاهده حقيقة أم خَيّلت له العتمة ذلك.

- ايه.. جن واا انس؟

صرخ بأعلى صوته فأجابت تُطمئنه:

- إنس، إنس.

تأكّد أنّها هي، ورغم تعجّبه من حضورها في تلك اللّحظة، فقد طلب منها الدّخول، وتوقّع أنّها لم تكتف بالماء الّذي أخذته في النّهار، لكنّها قالت له:

- هين شار لك سالم تحفر؟

عرف حينئذٍ سبب مجيئها فذهب مسرعًا ووقف عند الشقّ الّذي أحدثه في الصّخرة وأجابها:

- هنا، وكما قال طلع ماي، وما بقى ماي في الدّنيا إلّا في هذا المكان.

حاول معها أن تبقى قليلًا، لكنّها اعتذرت منه وخرجت مسرعةً عائدة إلى البيت، كانت عودتها في تلك المرّة ببطء شديد فقد تحقّق لها ما أرادت وعرفت أنّ ولدها عندما ينصت إلى باطن الأرض يسمع الماء.

وحالما بلغت بيت عبدالله بن جميّل قالت له:

- كلام الولد صحيح، ولدك صادق، الماي في المكان بو يقول به.

ضحك عبدالله ضحكته الكبيرة وهو يقول:

- بيستخفوه النّاس، بيستخفوني لمّا أقولهم إن كلامه صحيح.

فاستدارت نحو موقد النّار وردّت بحسم:

- أوّل بيستخفوه وبيضحكوا عليه وبيقولوا مجنون، لكنّهم في التالي بيتبعوه وبيلقيوا الماي.

عندما خرجت كاذية عائدةً إلى بيتها من مزرعة الوعري جلس يفكّر في ما حدث وبدأ يربط الأحداث، وأدرك أنّ لحفر الفلج دخلًا كبيرًا في مجيئها في ذلك الوقت، وقد مضى زمن طويل منذ أن دلّه سالم على مكان الماء فحفر الشقّ في الصّخرة، وتذكّر أنّه رأى سالم يعمل كلّ يوم مع النّاس في حفر الفلج. وقرّر معرفة السرّ في صبيحة اليوم التّالي.

سخر الجميع من عبدالله وابنه، أسمعوهما طوال نهار ذلك اليوم ما يكفي من كلمات، فتلقّوا السبّ والشّتائم بصمتٍ، وعندما وصل الكلام إلى الشّايب سليمان بن خميس وكان من الّذين استدلّوا بذاكرتهم على تتبّع قناة الفلج، لم يكتف بهزّ رأسه بل قال قولته الشّهيرة الّتي صار الجميع يُردّدها على مسامع عبدالله وابنه.

هزّ رأسه وسكت، ثمّ رفعه صوب السّقف كأنّه يبحث عن شيء يستعين به على الغصّة الّتي ألمّت به، وتنفّس بعمقٍ كأنّه لم يبق سوى القليل من الهواء داخل الفرضة الأخيرة للفلج. وفي الخارج كانت السّماء البيضاء تبعث قليلًا من الضّوء إلى داخل الفرضة، وهو جالس القرفصاء، ممسك بالبتك والمسمار، والجميع يترقّبون ما سيقول.

«ما سادنها من العطش، باقي تسمع كلام المجانين».

نطق جملته وسكت، ثمّ أطرق رأسه قليلًا وهزّه وانفجر ضاحكًا، فعجّت الفرضة والفرضات الأخرى بالضّحك وعادت السّخرية تسري في داخل القناة جيئةً وذهابًا كأنّها الماء الّذي انتظره الجميع، والارتواء الّذي سيطفئ وهج الشّمس، ويطرد العطش إلى أعماق الأرض.

الفصل السّابع

مكتبة
t.me/soramnqraa

وضع سالم بن عبدالله أذنه على جدار القناة، أغمض عينيه وانفصل عن الضّجيج من حوله. سمع الهدير في الأرض يُناديه، فحدّد مساره، طُولَه وعُمْقَه، ثمّ فتح عينيه ونظر إلى القناة الطّويلة الّتي استمرّ حفرها لأيّام، وسأل نفسه:

- لو حفرنا هنا من الأوّل ما كان أحسن؟

لكن من هو حتّى يقتنع النّاس بكلامه، هل يترك الجميع كلام مشايخهم وأعيانهم وشيّابهم الّذين خبروا الحياة وينصتون إليه؟

إنّه مجرّدُ طفلٍ يتيم فقير مع أبٍ ضعيف لا ضاحية ولا نخلة لديه في هذه البلاد، فقد تقاسموا إرث جدّه ونهبوه نخلةً نخلة، فذهبت كلّ أمواله في بطونهم.

كانوا ثلاثةً، رجلًا وزوجته يصطحبان معهما طفلًا رضيعًا، ويتّجهون جميعًا إلى صور أملًا في الوُصول قبل فوات الأوان ليلحقوا بالـ«نوخذة» ويسافروا على ظهر مركبه إلى بلاد السّواحل، ومُذ غابوا حيكت حول غيابهم قصص كثيرة.

رأى النّاسُ أملاكَ الرجل تندثر من دون أن يُوجد من يُقيّمها أو يحميها من طمع الطّامعين، فبدؤوا يقتسمونها فيما بينهم مُردّدين «من يُحْيِ الأرض الميّتة فهي له»، أُخذت ضاحية ضاحية، من دون أن يرفّ لهم جفن، سطَوْا على كلّ الضّواحي فلم يعد النّاس يتذكّرون صاحبها، والحكايات الّتي كانت تتردّد في جهات القرية ماتت ودُفنت في المقابر القديمة.

بعد عشرين سنة سرى خبرٌ عن شابّ يدعى عبدالله بن جميّل، يدّعي أنّه عائدٌ إلى قريته بحثًا عن أموال أبيه، لكنّه وصل وحيدًا ومُعْدَمًا إلّا من رداء ثقيل يحمله على كتفه اتّقاءً للبرد القارس.

أنكروا عليه أمواله وضواحيه، وقالوا إنّ أباه لم يكن يملك مقدار نخلةٍ واحدة في البلاد، كانت كلمتهم واحدة، فلو كانت لديه أموالٌ كما يقول فلماذا سافر عنها وتركها طوال تلك السّنين؟ اتّفقوا جميعًا لأوّل مرّةٍ في تاريخ القرية وردّدوا الكلام ذاته والحجج نفسها، ولإثبات نزاهتهم دلّوه على بيت أبيه المتهدّم واستطاع في فترةٍ وجيزة أن يُصلح من شأنه ويعيش فيه ويستقرّ.

أنصت سالم بن عبدالله إلى الماء وهو يناديه من بين جدران الصّخر والحصى، أنصت إليه فسمعه كأنّه يدعوه متوسّلًا تحريره من سجن الأرض، وهناك عند تلك النّقطة الّتي تجاوزها الحفّارون أمسك بمطرقته وبدأ يحفر في اتّجاه مغاير.

في البداية أسمعوه الكثير من الاستهزاء والسّخرية، لكنّ كِبْرَهم

جعلهم يتجاهلونه ويبتعدون عنه منشغلين بحفر قناة الفلج حيث دلّهم أكابرهم، وبين فينة وأخرى ومن باب التّرويح عن النّفس يجتمعون حوله ويتندّرون به.

في البداية لم يشاركه أبوه في الحفر، ثمّ عندما رأى إصراره ترك الجماعة وعاد إلى ابنه، يساعده ويحمل معه الرّدم المتساقط ويخرجه إلى جانب القناة ثمّ إلى الخارج، ويعلّمه ما لا يعرف من أمور الحفر.

اتّسعت القناة، وبدأت تمتدّ في اتّجاهٍ مغايرٍ لاتّجاه القناة الأمّ، وطال السّاعد شيئًا فشيئًا، وسالم يتّبع نداء الماء المحجور في الأرض، وكلّما اقترب منه ازداد عطشًا إليه.

وجد عبدالله بن جميّل في العمل مع ابنه ملاذًا مريحًا، وجد فيه العزلة الّتي ينشدها بعيدًا عن البقيّة، كان اليأس يلمّ به أحيانًا وهو يرى جهدهم يذهب هباءً ولا يصلون إلى شيء، غير أنّه قرّر مؤازرة ابنه والوقوف بجانبه، وليكن ما يكون.

بدأ الثرى يظهر على جنبات القناة، رملًا مبلولًا وحجارة مشبعة بالرّطوبة تكاد تتهشّم كلّما قبض عليها بيده، لم يخبر أحدًا بذلك، لكنّ أحدهم اقترب منهما في فترة استراحته ليسخر كالعادة، فرأى الثرى الّذي طال ترقّبه على أرض الفلج، وأمسك بقطع الصّخر المتجمّعة خلف سالم بن عبدالله وأبيه فشعر برطوبة الماء. حينئذٍ صرخ بأعلى صوته:

- الماي قرّب.. الماي قرّب.

جاءت الضّحكات مدوّية من أعلى الفلج، إذ اعتبروا ما قاله مجرّد سخرية من الطّفل، ولكنّه حمل القليل من التّراب وركض ناحيتهم مسرعًا. ركض وهو يحني رأسه داخل القناة حتّى لا يصطدم بالسّقف الواطي، متّجهًا صوب الشّايب سليمان بن خميس، وحالما وصل إليه، أعطاه الحفنة، فقال له:

- هذي التّربة الزرقا علكة الأرض، لّما تطلع فمكان شل شلولك، هذاك المكان ما فيه ولا قطرة ماي.

سخر الجميع منه وعلت ضحكاتهم، فأخذ يضحك معهم كأنّ ما فعله مجرّد تمثيليّة تهدف إلى التّخفيف من تأثير التّعب والعطش واليأس.

واستمرّ سالم وأبوه في عملهما بلا يأس، وذات يوم اجتمع النّاس واتّفقوا على التوقّف عن العمل إن لم يجدوا ماء على بعد ثلاثين خطوة من حيث انتهوا البارحة. وفي ذلك اليوم نفسه حفر عبدالله ثقبًا في الجدار الصخريّ للسّاعد بعيدًا عنهم، بعد أن ضرب بمطرقته المسمار وأوغل به في الصّخر حتّى غاب إلى رأسه، بدأ يضربه من اتّجاهات مختلفة كي يخلخل جوانب الصّخر ثمّ أخذ يسحبه إلى الخارج.

وما إن أخرج المسمار من ذلك الثقب الغائر في الأرض حتّى تسلّل الماء بخجَلٍ، وكأنّ هناك من يدفعه إلى الخروج.

وقف عبدالله بن جميّل مشدوهًا لا يعلم ما يقول، بقي واجمًا ينظر إلى الماء وهو يملأ القناة، ثمّ نظر إلى ابنه فرأى حالةً تشبه الهيام

تعلو وجهه، حالة من الفرح العارم، وعيناه تلمعان في تلك العتمة الّتي لا يُضيئها إلّا بصيص من الضّوء. وما هي إلّا لحظات حتّى تناهى خرير الماء إلى مسامع الجميع.

- ماي.. ماي.

كرّر سالم بن عبدالله كلمته، كرّر لعبته القديمة، ظلّ يكرّرها من دون أن يتوقّف كأنّه ينتشي بها. وسرعان ما تحلّق الجميع حوله، لا يدرون ما يقولون، واجمين مخذولين بعد أن رأوا بعيونهم صدق كلامه، فكيف يحدث ذلك؟ كيف استطاع هذا الولد الضّعيف معرفة مكان الماء ورجال الخبرة الّذين خبروا الأفلاج حادوا عنه.

ضجّت القرية وخرجت عن بكرة أبيها إلى تلك الفرضة الّتي انبثق منها الماء، واجتمع النّاس في الأعلى محاولين إيجاد دليلٍ لتصديق الخبر والتأكّد منه. كان العمّال ينزلون تباعًا إلى تلك الفرضة، وكلّما خرج أحدُهم جاء بحكايةٍ تختلف عن سابقتها.

سرت الفرحة بين الجميع إلّا الشّايب سليمان بن خميس، فقد شعر بالخزي والحقد والحسد وخرج من الفرضة وعاد إلى بيته ملفوفًا في صمته.

وبعد أن هدأ الضّجيج انتظر العمّال من سالم بن عبدالله أيّ كلمة تدلّهم، لكنّه ظلّ يكرّر «ماي.. ماي» وكأنّه غاب عن الوعي وذهب بعيدًا إلى عمق الأرض.

هزّه أحدُهم ورفعه من جلسته ثمّ نظر في عينيه، قائلًا له:

- قول لنا هين نحفر، واحنه بنشتغل عنك؟

فأشار سالم بن عبدالله إلى جهة من الجدار الصخريّ وقال له:

- هناك، ذراع بس، ذراع واحد وبيجي الماي كلّه.

لكنّ الذّراع لم تكتمل. لقد سدّت صخرةٌ صمّاء طريقهم كأنّها جبلٌ صلد. حاولوا كسرها بالطَّرق عليها بكلّ أدواتهم، وتناوبوا عليها بلا فائدة.

ذهب الطارش إلى القرية ليخبر النّاس، فجاؤوا جميعًا لرؤية ما حدث، وهناك حول الفرضة القريبة من النبع جلسوا يترقّبون كلّ رسالة تأتيهم من الأعماق.

كلّ من عنده المقدرة على الهبوط إلى داخل الفلج ذهب ليرى بأمّ عينه المعجزة الّتي حدثت، وسرى في كلّ مكان خبرُ قدرة سالم بن عبدالله ود لغريقة على الإنصات إلى الماء ومعرفة مكانه في باطن الأرض، أمّا سالم فظَلَّ أمام تلك الصخرة عاجزًا عن إزاحتها أو شقّها حتّى يفكّ القيد عن سجينه الّذي يناديه.

ووصل الخبر إلى الوعري فجاء، وعندما اقترب من الفرضة تنحّى النّاس وأفسحوا له المجال كأنّهم كانوا ينتظرون قدومه. هبط ببطءٍ وحذرٍ. لقد كبر في العُمر لكنّه مازال قويًّا، ويستطيع تسلّق الحبل بلا مساعدةٍ من أحد. وقف قريبًا من المنبع، رأى الصّخرة وهي تسدّ القناة وتحبس الماء، نظر إليه النّاس، بعضهم بدا متوجّسًا والبعض الآخر ظلّ يترقّب ما سيقول، حتّى نطق قائلًا لمن حوله:

- تحتاج تدهن بثوم.

فصرخ أحدهم وقد فتح عينيه متعجّبًا:

- ثوم، من وين نجيب ثوم في هذا المحل؟

وضجّ الفلج بالكلام حتّى سمع النّاس بالخارج تلك الجلبة. لقد أكل المحل كلّ شيء، كلّ ما خزّنوا من ثمار، نفد البصل والثّوم واللّيمون المجفّف والتّمر، فأكل النّاس ورق الشّجر المرّ كالسيداف وورق الغاف والحشرات والثّعالب وبعض السّحالي. كلّ دابة تدبّ على الأرض كانت قوتًا لهم، وكلّ شجرة خضراء ظلّت تورق سحلت عن بكرة سلالتها. فمن أين لهم أن يحضروا ثومًا لسلام ود عامور الوعري؟

جرّبوا طرقًا كثيرة لفلق الصّخرة لكنّها لم تُجد نفعًا، فقد كانت صخرةً عملاقةً وعروقُها ضاربة في كلّ الجوانب، ومع ذلك لا بدّ من مُواجهتها، ومن أجل مواجهتها فإنّهم يحتاجون إلى الثّوم لكي يدهنوها به فتنفلق، لكن من أين لهم ببعض الثّوم؟

في المساء عاد الجميع إلى بيوتهم. لقد عجزوا عن إيجاد حلّ لتلك المعضلة، لكنّهم عادوا محمّلين بالماء، وقد مَلَؤُوا الكثير من أوعيتهم مرّات عديدة ممنّين أنفسهم بالاغتسال ممّا علق بهم من أدران الزّمن. عادوا بالماء العذب الزلال حالمين بتدفّق المحتبس منه ووصوله إلى قريتهم لتعود إلى الحياة مرّة أخرى، ويزرعوا نخلًا جديدًا وأشجارًا مثمرةً تُظلّلهم ظلالها ويعيشون من ثمارها.

تذكّرت كاذية أعواد الثّوم المعلّقة في حظيرة البقر الخاوية، تذكّرت أنّها علّقت رؤوس الثّوم بأعوادها في زاوية الحظيرة خلف عيدان العسبق المتيبّسة، ولمعت في ذاكرتها تلك الرّؤوس المنسيّة، لكنّها شكّت في إمكان بقائها كما هي من دون أن تسري إليها الرمة وتأكلها.

أرادت أن تذهب بعد صلاة العتيم لتتفقّدها، لكنّها خافت الأفاعي والعقارب الّتي تندسّ في العتمة.

وقبل أن يذهب عبدالله بن جميّل وابنه للعمل صباحًا في الفلج قالت لهما:

- تهيدوا شويّة.

ودخلت الحظيرة وكشفت عن الخبيئة الّتي دسّتها خلف الأعواد فإذا هي على حالها من النّظارة والجودة وكأنّها قد وضعتها هناك قبل شهر فحسب، تحسّست فصوص الثّوم فألفتها صلبة ممتلئة، وعندئذ تناولتها جميعًا، خمسةً وعشرين رأسًا من الثّوم أخرجتها من العدم، في قرية لم يتبقّ لهم فيها سوى السخبر اليابس يلوكونه قبل النّوم ويطبخونه ليسقوا أطفالهم ماءه.

- خلّي منه للبيت.

قال لها عبدالله بن جميّل، فقالت له:

- بيجي الجديد، ما دام القافر معك.

وكانت تشير إلى سالم، وقد أطلقت عليه القافر ليلتصق اللّقب به ولا يُعرف بسواه.

حين بلغا المكان ذاته وجدا الجميع في انتظارهما، كانوا يتشاورون في أمر الصّخرة والحيل الّتي تنفع حتّى تتفتّت أو تُثقب وقد جرّبوا أدوات الحفر الّتي معهم بلا فائدة.

لكن رؤوس الثوم أحيت فيهم الأمل، ففصّصوها واحدًا واحدًا ثمّ طحنوها حتّى صارت عجينًا. وانتظروا الوعري كي يدهن الصّخرة، وقد جاء متأخّرًا ولا يعلم شيئًا عن توفّر الثّوم، فلمّا عَلِم هبط إلى قعر الفرضة وبدأ يأخذ عجين الثّوم ويلطّخ به الصّخرة من كلّ جوانبها الظّاهرة. ثمّ قال:

- تحتاج ثلاث أيّام.

وصعد عائدًا إلى مزرعته، تاركًا الجميع في انتظار ما سيحدث بعد ذلك. تركهم متذمّرين وقانطين، إذ كيف سيستطيعون الانتظار ثلاثة أيّام والماء قاب قوسين من خروجه؟

ذهب الوعري وظلّ النّاس متحلّقين حول الفرضة. في البداية أحضر بعضُهم أوانيهم ليملؤوها، ولكن سرعان ما انخرط الجميع في العمليّة، إذ لاحظوا أنّ الماء بدأ يفقد عكارته ويصفو، وما كان لهم في ذلك اليوم وفي اليومين التاليين له سوى أن يملؤوا أوانيهم ويعودوا إلى القرية.

في اليوم الأخير تحلّق العمّال حول الصّخرة، ضربوها بمعاولهم

ومطارقهم، فارتدّت المسامير ناحيتهم من شدّة الصّلابة، وعبثًا جرّبوا طرقًا كثيرة لضربها وكسرها حتّى قال أحدهم بيأس غاضب:

- هذا عقاب الله تشوفوه قدامكم، الماي بينكم وبينه هذي الصّخرة، لكن عقاب الله على هذي البلاد أن خيرها فيها لكن محد ينطاله.

وإثر قوله ذاك تعلّق الوعري بالحبل حتّى وصل إلى القعر، ولم يلبث أن هزّ رأسه وقال لهم:

- هذي يبغالها قوّة، هذي المطارق كلّها بو معكم ما تساوي شي.

- كيف نقدر نكسرها؟

سأله رجل اتّكأ تعبًا على جدار الفلج وهو يلهث.

- ما أعرف، اللّي أعرفه قلته لكم، إذا الثّوم ما جاب نتيجه توكّلوا على الله وارضوا بنصيبكم.

كاد أحدهم يجنّ من قوله فشرع يصرخ ضاربًا الصّخرة بكلّ قوّته:

- ايش هالبلية؟ على ايش يصبر الواحد؟ على العطش؟ على التّعب والحر؟ على برودة أعصاب الوعري؟ على هذي الصّخرة الصما الملعونة؟ قولولي على أيش الواحد يصبر؟

وفي غمرة ذلك القنوط واليأس الّذي عمّ المكان سرت همهمة ضحكة خفيفة بين الجميع، ثمّ كبرت وكبرت حتّى اعتلت الفرضة

وبدأ النّاس في الأعلى يضحكون أيضًا. الجميع اعترتهم نوبة الضّحك وما توقّفوا، حتّى الوعريّ الّذي لم يُرَ مبتسمًا أو ضاحكًا قَطُّ ضحك في ذلك اليوم على نحوٍ زاد عينيه احمرارًا.

ثمّ صرخت امرأة من الأعلى تحاول إيصال فكرتها إلى عمّال الفلج، لكنّ كلامها ضاع وسط السّيل الجارف من الضّحك. ورغم ذلك لم تتوقّف عن الصّراخ حتّى قطع النّاس ضحكهم، وأنصتوا إليها مُحاولين استيعاب ما تقوله.

- البتك العود فبيت الشّايب سليمان، البتك العود فبيت الشّايب سليمان.

- ايش تقول هذا المجنونة؟

سأل أحد الرجال من حوله وقد سقط على الأرض متعبًا من الضّحك وابتلّت ثيابه بالماء، فرفع الوعريّ يده ليسكت الجميع، وقد وصلت إليه فكرتها، ثمّ قال:

- هذي ما مجنونة، هذي العاقلة بو فينا، صدّقها، الحصاة الكبيرة تحتاج بتك أكبر منها.

والبتك في بيت الشّايب سليمان بن خميس، وقد ذهب غاضبًا وناقمًا على الجميع، فمن ذا الّذي يستطيع التحدّث إليه؟ وكيف سيوافق على إعطائهم مطرقته الكبيرة؟

لقد خدم الشّايب سليمان في شبابه في كثيرٍ من أفلاج القرى بمطرقته الضّخمة الّتي كان يحملها على كتفه، تلك المطرقة الّتي لا

يستطيع ثلاثة رجال أقوياء رفعها، كان يرفعها بيد واحدة ويلقي بها على كتفه ثمّ يمضي.

استعان به النّاس في حفر أفلاجهم، كانت مهمّته تكسير الحصى الّذي يعيق الحفر، يستعينون به لفلق الصّخور الصلدة ويعطونه أجرًا عن كلّ يوم عمل، منذ خروجه من بيته حتّى عودته إليه.

لكن من ذا الذي يستطيع رفع ذلك البتك العظيم، والنّاس قد ذهبت قوّتهم ولم يبق منهم سوى الجلد على العظم؟ ولو أنّهم قدروا على ذلك فمن سيذهب للتحدّث مع الشّايب سليمان بن خميس ويطلب منه أن يعطيه البتك؟

ذهب الشّيخ إلى الشايب سليمان، فوجده يدور في حوش البيت مثل ثورٍ هائجٍ، ويُحدّث نفسه بكلام لا يُفهم، وكأنّ الجنّ الّذين يسكنون أعماق الأفلاج قد دخلوا رأسه واحتلّوه وصاروا يتحدّثون بلسانه.

أمسك يده حتّى يهدأ، لكنّه أفلتها بقوّةٍ فأوشك الشّيخ أن يقع، ثمّ تماسك وتشبّث بملابسه محاولًا منعه من الدّوران وهو كالملبوس لا يحسّ بشيء، حتّى ثقلت حركته فعاد إلى رشده، عندئذ رأى الشّيخ متعلّقًا بثيابه فتعجّب من ذلك، وقال:

- شايفني مرنجوحة؟

فضحك الشّيخ حتّى سقط على الأرض، وقال له وهو يبتلع الكلام مع الضّحك:

«زين راحوا عنك جماعتك، مستوي كما ثور الهياسة».

أخبره الشّيخ بما حدث، وبأنّهم يحتاجون إلى مطرقته الضّخمة حتّى يفلقوا بها الصّخرة، ويودّون أن يساعدهم بخبرته في ذلك، وسوف يُلبّون كلّ ما يطلبه منهم، كلّ شيء، المهمّ أن يُشير عليهم بما يستطيعون فعله، لعلّ الصّخرة تنكسر.

هدأ الشّايب سليمان، ذهب غضبه وعاد إلى رشده، فلم يشأ أن يُهدر مزيدًا من الوقت، ودخل عريشًا في جانب من البيت، ثمّ حمل المطرقة بيديه وألقى بها على كتفه لكنّها كادت تُسقطه وجعلته يتململ في مكانه، حتّى إذا ركض الشيخ ليُسنده أوقفه قائلًا:

- سليمان بن خميس ما مات.

فضحك الشّيخ وقال له:

- الميّت هو المقبور، وانت بعدك ولد أمس.

وحمل الشايب سليمان البتك وخرج من البيت يرافقه الشّيخ، وعندما وصلا، عقد العمّال المطرقة بأشدّ الحبال حتّى يُنزلوها إلى الأسفل، ولمّا حاولوا رفعها من مكانها لم تتزحزح شبرًا عن الأرض، فقالوا كيف سنضرب بها الصخرة وهي بهذا الثّقل؟

وقبل أن يُضيف أحدُهم كلمةً أخرى نزل الشّايب سليمان بن خميس ثمّ سحب المطرقة إلى داخل السّاعد الّذي به الصّخرة مُحاولًا طرقها مثلما كان يفعل لكنّ قوّته خانته، وجاءت ضرباته خفيفة لم تؤثّر فيها، فطلب منهم صناعة مشجب ليُعلّق المطرقة فيه.

ذهب بعض أهالي القرية وأحضروا جذوع السمر الكبيرة وقطعوها، ثمّ أنزلوها قطعةً قطعةً وصنعوا منها مشجبًا أقاموه أمام الصّخرة كأنّه مارد بأربعة أطرافٍ ضخمة جاء ليحمل الصّخرة من مكانها. وسرعان ما عُلّقت المطرقة بحبلٍ متين في وسط المشجب، فصار من السّهل القذف بها إلى الأمام.

سحب أربعة رجال الحبل الّذي رُبطت إليه المطرقة ثمّ أفلتوه مُسدّدين ضربةً قويّةً إلى الصّخرة اهتزّ لها سقفُ الفلج فاهتزّت الحجارة الصّغيرة وتساقطت مع الرّمل لكنّ الصّخرة لم تتأثّر، فصرخ الشّايب سليمان آمرًا إيّاهم بألّا يتركوا الصّخرة تبرد، وأن يعيدوا الكرّة مرّةً أخرى ويسحبوا الحبل إلى آخره ويتركوا البتك ينفلت بكلّ ثقله وقوّته متأرجحًا قاذفًا بنفسه على الصّخرة.

توالت ضرباتهم ضربةً إثر ضربة، بلا كلل ولا ملل، والشّايب سليمان بن خميس يصرخ فيهم حتّى لا يتركوا الصّخرة تستريح:

«اسحبوا الحبل، اسحبوه بقوّة، لا تخلّوه يهوي إلّا كما يهوي النجم».

كانت كلّ ضربة على الصّخرة تُشعر من حولها بأنّها في قلوبهم، والصّخرة مكانها كأنّ كلّ ما يحدث لا يعنيها، والشّايب سليمان واقف أيضًا مكانه لا يعترف بالزّمن، هو هناك مذ كان صغيرًا يطرق الأرض بمطرقته، هو هناك يفتح المنابع لتجري المياه حوله فتغمر قدميه وساقيه وأحيانًا تغمر جسده كلّه.

حدث ذلك مرّات ومرّات، حدث أن انكسرت الصّخرة وخرج ماءٌ ضئيل سال بين قدميه ثمّ غار في الأرض دون رجعة، وحدث أن انفجر الماء في المكان حتّى كاد يجرفه في طريقه من شدّة اندفاعه، لولا أنّه كان يربط وسطه دومًا بحبلٍ مشدودٍ إلى أيّ شيء ثابتٍ خارج الفرضة، خوفًا من أن يجرفه الماء ويذهب إلى أعماق الظّلمة ويموت غرقًا.

من قريةٍ إلى أخرى، ومن بلادٍ تتكاثر أفلاجها في الوديان، إلى بلادٍ تموت عطشًا بلا قطرة ماء تُعين شجرها ومخلوقاتها، امتدّت رحلاته كلّ تلك السّنين وهو لا همّ له إلّا البحث عن الأفلاج العنيدة الّتي تقبر الماء خلف جدرانها البازلتيّة الصّلدة.

وفي ذلك اليوم ذهب النّهار والصّخرة على حالها. طغى الوهن على النّاس دون أن تحدث المطرقة شقًّا بسيطًا في الحجر، ذهب النهار وتعبت الأيادي واحتلّ النّعاس عيونهم، وظلّ هو واقفًا هناك يشجّع الجميع على الاستمرار:

- ماشي يجي بالسّاهل، هذي البلاد تستاهل تعبكم، اتعبوا، اشقوا، هذي الحصاة خلفها رزق.

إلّا أن التّعب أسقط الجميع أرضًا، وغربت الشّمس، وتمنّى الشّايب سليمان ألّا تغرب، وألّا يذهب العمّال من أمكنتهم ويتيحوا للصّخرة أن تبرد وتتقوّى مرّةً أخرى، فكان آخر الخارجين من الفرضة، على أمل أن يعود الجميع غدًا صباحًا لاستكمال عملهم.

أحدث الطّرق صدوعًا كثيرة في الصّخرة ولكن من الدّاخل، وظلّتْ تحتاج إلى بعض الضّربات الأخرى المتتالية حتّى تنهار وتتصدّع، وحينئذٍ فحسب يمكن للماء أن يشقّ طريقه في ممرّه الجديد إلى القرية.

في نهار اليوم التّالي طلب الشّيخ من سالم بن عبدالله أن يبحث عن الماء في مكانٍ آخر، ولمّا أخبره بأنّ الضّجيج الّذي يحدثونه يعيق سماعه لصوت الماء طلب من الجميع أن يهدؤوا حتّى يتسنّى له اقتفاء الأثر.

نكس الفتى رأسه إلى الأمام وأحنى ظهره كمن يخاتل طريدةً، وبدأ يخطو خطوات بطيئة ذاهبًا إلى عمق القناة. أصغى للأعماق، سمع وجيب قلبه يدقّ، سمع صراصير الأرض تعزف لحنها الأبديّ، سمع همسًا، وسمع دبيب نملةٍ تتسلّق صخرةً ملساء، وصوت فأرٍ يقرض ورقة، سمع الأصوات تأتي من بعيد حتّى كاد يسمع هواجس البشر من حوله.

غرق في العتمة، اجتاز فرضةً أخرى ذاهبًا في اتّجاه القرية، وبعد ذلك اجتاز أخرى، وكاد يصل إلى شريعة البلاد، ثمّ عاد منصتًا مرّةً ثانية إلى الصّخور. لقد سمع كلّ شيء، ولكنّه لم يستطع سماع الماء وهو يمشي في محاجره تحت الأرض.

لم يكن هنالك ماء، ولو قطرة واحدة. وحينما أخذته قدماه ناحيتهم بدا صوت الخرير جليًّا وواضحًا يأتي من ذلك السلّ الّذي

صنعه مع أبيه. سمع هدير الماء، مساقطه في الأعماق تناديه، تغري مسمعه وتطغى عليه فيكاد لا يسمع شيئًا في الجوار سواها، وكلّما اقترب منها زاد ضجيجها إلى أن وقف بجانب الصّخرة.

تجاوزها ذاهبًا إلى الأعلى، إلى حيث وصل الحفر، أصغى وأصغى لربّما تأتي قطرة واحدة لتفتح المشهد له وتدلّه على الدّرب، لكنّ كلّ الدّروب، وكلّ المسارات والقنوات أضحت مغلقةً في وجهه، ولم يبق له سوى أن ينصت لذلك الهدير الكائن خلف الصّخرة.

اقترب من الشّيخ وهزّ رأسه نافيًا أن يكون ثمّة ماء آخر في الفلج عدا تلك البقعة الّتي يقفون عندها، فالتفت الشّيخ إلى العمّال وقال لهم:

- ماشي فايدة يقولكم القافر، عليكم بها، ما تتركوها أبدًا.

ومع كلماته تلك جنّ جنون رزيق بن خمّاس وتشنّجت أطرافه ثمّ سقط على الأرض وبدأ يهتزّ، قالوا جاءته صاحبته الجنيّة، وقال آخرون أُصيب بالصّرع، وظلّ هو يتخبّط في الأرض الرّطبة وهم يحاولون حماية رأسه من الاصطدام بالصّخر، وعلى غير المتوقّع سرت الحالة إلى شخصٍ آخر يُدعى حامد بن سيوف، فسقط أيضًا وشُجّ رأسه فاختلط الدّم بالماء.

فتح الوعريّ عينيه الحمراوين وضحك، وإذ نظر النّاس إليه قال لهم:

- المكان باغي تطيير دم، بيجي الماي بيجي.

هدأ المكان قليلًا بعد نوبة التشنّجات وعاد العمّال برفقة الشّايب سليمان بن خميس يضربون الصّخرة بالبتك الكبيرة، واستمرّ صراخه وتحفيزه طيلة ذلك النّهار حتّى غربت الشّمس.

ما الّذي حدث تلك اللّيلة كي يستيقظ الجميع وقد امتلأ الوادي بالماء؟ ما الّذي حدث حتّى تصرخ شنّوه منذ الفجر في سكك الحارات وقد انفلت لحافُ شعرها فمضت حاسرةً من دون أن تعي ذلك؟ من الّذي فتح مغاليق الماء في أعماق الأرض كي ينبثق الفلج وتمتلئ شريعة البلاد والضّواحي القريبة ويتدفّق الماء في كلّ مكان؟

بكت النّساء من الفرح، وساد الهرج البلاد، والنّاس يُخرجون كلّ ما في بيوتهم من أسمال وأغطية ومفارش ينفضون ما فيها من قمل ويُلقون بها في الماء، ويغتسلون هم أيضًا فيدخل الماء في مسامات جلودهم المتشقّقة فيتوجّعون.

خرج الفلج وتدفّقت مياهه واستصلح أهل القرية مزارعهم ثانية آملين أن تعود الحياة إليهم كما كانت من قبل، فما الّذي حدث تلك الليلة حتّى يصبح الصّباح على أهل القرية وقد تغيّر كلّ شيء؟

بعد يومين متتاليين من الطّرق على الصّخرة بواسطة مطرقة الشّايب سليمان بن خميس، تشقّقت الصّخرة من جوانبها ومن قلبها فدخل الماء في مساماتها، ثمّ احتاج إلى وقتٍ كي يسلك طريقه بين الشّقوق، إذ كان الحصى والتّراب يمنعانه، لكنّ الماء يدرك طريقه دومًا، ودومًا ما يُوجد طريقٌ يعبره الماء.

هبط العمّال بمعيّة الشّيخ والشّايب سليمان بن خميس ظهيرة ذلك اليوم إلى الفلج حتّى يتبيّنوا الأمر، فوجدوا الصّخرة قد تهشّمت، ولكنّها ما زالت تقف عائقًا في منتصف الفلج، وكان المشجب يقف أمامها حارسًا المكان.

طوال الأيّام الّتي تلت وصول الماء إلى القرية، عمل الجميع على استخراج شظايا الصّخرة بعد أن استطاعوا تفتيتها قطعًا صغيرة حملوها إلى الخارج في القفران المعلّقة بالحبال.

ولقد تطلّب منهم ذلك جهدًا مضاعفًا لأنّ الصّخر كان صلبًا أملسَ لا يستجيب للكسر بسُهولة، لكنّ تدفّق الماء وعودة الحياة إلى بيوت القرية وتلك الفرحة الّتي عمّت المكان أعطتهم القوّة للإجهاز عليها تمامًا.

وسرعان ما أُعيد استصلاح الفلج، فرُمّمت جدرانه وفرضاته الّتي بلغ عددُها اثنَتَيْ عَشْرة فرضةً اتّخذت كلّ واحدة منها شكلًا أُسطوانيًّا يبدأ من سطح الأرض وينتهي بقاع الفلج، وخرج الماء متدفّقًا يملأ سواقي الفلج، فسرى في ضواحي القرية حتّى بلغ آخرها، وفاض عن الحاجة فتركوا بعضه يسيل في الوادي، وبذلك بدأت البرك بالامتلاء وعادت الحياة إلى القرية، إذ انفقس بيض أسماك الصدّ وخرجت الضفادع من مكامنها الطّينيّة وعادت إلى أهل القرية نضارتهم وفرحتهم، فاغتسلوا من الماضي وأوجاعه وعطشه وجوعه.

أمّا الوعري فعاد إلى خلوته منقطعًا عن النّاس، رجع إلى مزرعته الصّغيرة واستصلح أرضها منتظرًا موسم الشّتاء حتّى يزرعها بما استطاع من خضروات شتّى تعينه على الحياة وتملأ وقته بعيدًا عن القرية ومشاكل أهلها الّتي لا تنتهي.

عاد عبدالله بن جميّل كما كان في سابق عهده، يعيش على زراعة الضواحي مقابل جزءٍ معلوم من الثّمار أو المال، يُرافقه هذه المرّة ابنُه الّذي أصبح شابًّا مفتول العضلات قويًّا يستطيع الوثوق به، وفي مقدوره حمل الجواني الثّقيلة وتعزيق الأرض وشدّ الحبال وإعادة استصلاح الجدران المندثرة.

وكفّ النّاس عن أذيّة سالم بن عبدالله وتذكيره في كلّ يوم بأنّه ابن الغريقة، صاروا ينادونه «القافر»، فاستساغ اللّقب الجديد وأعجبه، وأبقى ما فعلوه في دواخل نفسه وأعماقها.

لكنّها القرى، لا يستجدُّ فيها جديد، فالنّاس فيها كما عهدهم وكما تحدّث عنهم والده عبدالله بن جميّل وأمّه الّتي ربّته كاذية بنت غانم، يَصومون عن الأكل والشرب، وقد يصبرون على الجوع والعطش، ولكنّهم لا يصبرون على الكلام.

الفصل الثّامن

كما ينفجر الماء من قلب الحجر، ويسري الينبوع منحدرًا برقّته على الأرض العطشى، وكما كان القافر يطرب لخرير الماء في الأعماق، ناداه الحُبّ. رآه في ابتسامتها عندما كانت تقف أمام داره، في نظراتها الحالمة وهي تحنو على الكدمات التي خلّفَتْها ضرباتُ المعلّم فترفع عنها الألم. ناداه الحُبّ ليذهب إليها دون أن يُدرك أنّها هناك تنتظره في البلاد البعيدة.

ناولته حبّاتٍ من التمر وهي تبتسم فرقّ قلبُه واستكان ألمه، أراد أن يرتوي بابتسامتها ويعلّق نظره في أسنانها البيضاء. أمّا هي فقد جلست بجانبه وبدأت تتحدّث وكأنّها تعرفه من قبل، كانت كثيرة التلفّت، كثيرة الحركة، وكان ساكنًا يُنصت بقلبه إلى صوتها الشبيه بأغنية نسيتها الجنيّات في جنبات الدار.

ولكنّها رحلت سريعًا مع أمّها التي كانت تتناول القهوة مع كاذية بنت غانم، أخذت أمّها بيدها وسلَكتا الدرب الصاعد خارج القرية حتّى لفّهما الغياب، لم يكن يعرف عنها شيئًا، فظلّ يسأل أمّه، وظلّت ابتسامتها تزوره في منامه، ثمّ سكنت في داخله مثل سكون الينابيع في قلب الحجر.

انبثق الماء في فلج قرية المسفاة وسرى في قنواتها فعادت تنبض بالحياة، وانتشر صيت تلك القرية في الأقاصي، فتوافد عليها البدو الرحّل، ولم يطلبوا شيئًا سوى أخذ قليلٍ من الماء لشربهم ولسقي ما تبقّى من إبلهم.

خيّم البدو في سيوح القرية، كلّ قبيلة تأتي فرادى وجماعات، ووُضعت الخيام وكثرت العرشان وبدت رغبة الحياة على وجوه النّاس وظهرت ابتساماتهم وتردّدت ضحكاتهم.

وجاء رسل القرى القريبة والبعيدة، كلّ القرى الخربة العطشى الميّتة، تلك الّتي لم يبق من قاطنيها إلّا النزر القليل... جاؤوا يستكشفون صحّة الخبر، ويعقدون اتّفاقاتهم مع القافر.

وكانت الصدمة تبرز على وجه كلّ واحدٍ منهم حالما يلتقي به، إذ يجد أمامه شابًّا صغيرًا في الخامسة عشرة من عمره، وفوق ذلك يبدو من الوهلة الأولى متذبذبًا غيرَ متأكّدٍ ممّا يقول، يكرّر في كلامه لازمةً تُشعر مُخاطِبَهُ بالإحباط، فيودّ النكوص من حيث أتى لولا الحاجة الملحّة والأمل الضّئيل الّذي يتعلّق به العطشان كلّما رأى بقعة ماء في صحراء، فيظلّ يركض خلفها، وفي معظم الأحيان لا يُدرك الماء لينجو من العطش فيكون هلاكه محتومًا. والحقّ أن من جاؤوا إلى سالم علّقوا آمالهم على حكاية أهل قرية المسفاة الّتي انتشرت في كلّ أرجاء القرى والوديان والصّحاري المجاورة.

خمس سنوات مرّت على سالم بن عبدالله القافر وهو يتنقل بين القرى بمفرده أو برفقة والده، وأحيانًا برفقة والده والوعريّ،

يصغي للأرض ويكتشف موضع الماء، ثمّ يشارك هو وأبوه أهل تلك القرية العمل في شقّ قنوات الفلج في باطن الأرض بدءًا بالمنبع وانتهاءً بشريعة الفلج حيث يظهر على الأرض، أو العكس، وكانت خدمة الفلج لا تستغرق في بعض الأحيان سوى أيّام، وفي أحيان أخرى تمتدّ لأسابيع وأشهر.

هناك أفلاج قديمة حُفرت قنواتها ولا تحتاج إلّا إلى البحث عن ساعد يرفدها بالماء، وهُناك أفلاج طمرتها السّيول فتحتاج إلى إعادة إعمارٍ من جديد. وجرّاء تلك الفوارق تختلف المدّة الّتي كان القافر يقضّيها في كلّ قرية، وفي بعض الأحيان يعود ولا ينتظر اكتمال البناء لاشتراط أهل تلك القرى الإشراف على الحَفر بأنفسهم واكتفاء القافر بالوقوف على موضع الماء ودلّهم عليه.

في أحد الأيّام، وفد على القرية رجالٌ يبحثون عن القافر، جاؤوا من قريةٍ تقعُ على تخوم الرّمل اسمها المسيلة. صادفهم عبدالله بن جميّل وقد جلسوا يستريحون تحت السّدرة الكبيرة في وسط القرية، وإذ أشار إليه أحد الأطفال الّذين كانوا يتحدّثون إلى هؤلاء الغرباء، قاموا وأخبروه عن مقصدهم الّذي قدموا من أجله. كان للمسيلة حسب كلام أحد هؤلاء الرّجال فلجٌ غزيرٌ تتدّفق المياه في سواقيه، فلا يستطيع أعتى الشبّان أن يستحمّ في بدايته لقوّة جريانه، وقد صنعوا له أفرعًا كثيرة تذهب عبرها المياه في الآن ذاته إلى أماكن مختلفة من أرجاء القرية، وقد بلغ عددها في وقتٍ من الأوقات عشرة فروع.

لكنْ مع الجائحة الكبيرة الّتي مرّت بهم قبل سنوات، طمرت السّيول الجارفة قنوات الفلج وفروعه وملأتها بالصّخور والأتربة فلم يعد أحد يعلم مكان تلك القنوات وإذا عُثر على إحداها صدفةً جُهلت وِجهتها.

وجد عبدالله بن جميّل وابنه في عرض أهل المسيلة فرصةً جديدة للعمل بعد طول انتظار، فلم يتوانيا عن القبول، وأعدّا العدّة للخروج مع الجماعة، حاملين معهم ما استطاعا من أدوات ومؤونة تكفيهما للطّريق.

وعندما علمت كاذية بنت غانم بأمر الرّحلة شعرت بوخزٍ في وسط كفّها وبخالج على رقبتها، فرافقتهما إلى حدود القرية، سرعان ما انتهى الخبر إلى الوعريّ فانطلق بسرعة محاولًا اللّحاق بهما وقد جهّز صرّة وضع فيها بعض المؤونة الّتي يحتاجون إليها في الطّريق، بعض رؤوس الفندال، ودقيق القاشع، وحبّات من اللّيمون المجفّف، وخبز الرخال الّذي يجيد إعداده، حتّى إذا أدركهما قال لعبدالله بن جميّل وهو يعلّق الصرّة على ظهر الحمار:

-لا تبطوا في السّفرة، ومن يطلع الماي ارجعوا.

ثمّ وقف بجانب كاذية ينظران إليهما وهما يغيبان في تعرّجات الوادي. عجوزان أكل الدّهر من جسديهما يحاولان الوقوف لفترة أطول وهما يودّعان عبدالله بن جميّل وولده.

***

لم يقطع سالم بن عبدالله القافر مثل هذه المسافة من قبل، ولا رأى الرّمل الممتدّ بمحاذاة تلك السّيوح الشّاسعة الّتي لا يحدّها شيء، ولا ذلك الانبساط المتناهي إلى الأفق بلا جبل يصدّه ولا تلال تعرقل اندفاعه، فكان يلتفت في كلّ مرّة إلى الوراء ويرقب الجبال وهي تبتعد وتبتعد حتّى يبتلعها الأفق. بدا له الوادي عريضًا جدًّا مقارنةً بالوديان الّتي بين الجبال، وكان ممتدًّا تتخلّله أشجار السمر والسدر والغاف، وبرغم الجفاف ظلّ بعضُها محافظًا على تلك الخضرة الدّاكنة عكس أشجار الجبال الّتي لم تستطع مقاومة الجفاف.

ثمّ ظهرت قرية المسيلة، واحة كبيرة من النّخيل صارت يباسًا وتساقط بعضها وقد نخرته حشرةُ الأرضة، ومن حولها الحارات على شكل هلال.

وصل مساءً إلى قرية المسيلة، كان مرهقًا من السفر والمشي الطويل، فوجدها في انتظاره، رفع بصره يرقب سكك الحارات والمباني فأطلّت عليه بابتسامتها، ذات الينبوع العذب الذي شرب منه من قبل، أذهبت تعبَهُ وظمأه، لكنّه شعر بظمأ أشَدّ من ظمأ الماء.

وقفت أمام باب البيت، فتاة في الخامسة عشرة من عمرها أسندَتْ كتفها إلى الجدار وانثنى جسدها، كانت تنظر إليه وتبتسم، وكانت ابتسامتها تشرق من وجهها كلّه، لا من مكانٍ واحدٍ فقط،

فارتبك في مشيته وكاد يتعثّر، فتوقّف متسمّرًا في مكانه برهةً من الزمان، امتدّتْ حتّى صارت العمر كلّه، كانت برهةً تشبه الحلم، أو تشبه لحظة الاستيقاظ من حلم يحاول الإمساك به قبل أن تأخذه اليقظة إلى حقيقته.

دخل بيتها، صار ضيفًا عليها كما كانت ضيفتَهُ ذات يوم، دخل المجلسَ مع والده وبدأ يُنصت إلى ينبوع ضئيل يسيل متدفّقًا خجلًا في أعماقه، ينبوع ضئيل أنساه كلّ الأصوات من حوله، أصغى إلى وجيب قلبه فوجد كلّ شيء فيه معلّقًا في ابتسامتها ووجهها.

هل هي؟ تشبهها؟ ابتسامتها، عيناها البرّاقتان، شعرها المسترسل صوب طفولته الأولى، أسنانها البيضاء، نجوم تبرق في ليل سمائه... ظلّ تلك اللّيلة يتقلّب في فراشه، ليس كمن يتقلّب على جمر، ولكن كمن تؤرجحه أمواج السيل الجارف، فلا هي تقذف به على الضّفاف، ولا هي تُسلمه للغرق.

كانت أنفاسُه تخرج ساخنة وكأنّ الحمّى قد أصابته، وكان يرتجف من برودة الصمت والوحشة. لا يدري لماذا تذكّر في تلك الليلة أمّه الغريقة، لا يعلم لماذا شعر بوجودها قريبًا منه، ولأوّل مرّةٍ تبدّى له وجهُها في ابتسامة الفتاة، فأغلق على سمعه أصوات اللّيل، وذهب بعيدًا... خرج من غرفته رويدًا رويدًا متتبّعًا أنفاسها، بحث عنها في أركان البيت، عرفها، كانت أنفاس جميع من في البيت منتظمة إلّا هي، وكان قلبها يحدّثه، عندها فقط، أغمض عينيه واستكان تاركًا للنوم أن يأخذه على حديثها، ولأحلامه أن تسافر به إليها.

في صباح اليوم التّالي أخذهما الرّجال إلى حيث تدخل عروق الفلج في عمق الوادي. بدأ القافر عمله، طلب منهم الجلوس في انتظاره وانطلق يمشي مع الوادي وهو يُنصت إلى وقع خطواته على الحصى. نكس رأسه حتّى كاد يلمس الأرض، أنصت فجاءت دقّات قلبها لتملأ عليه المكان، ثمّ رفع رأسه ونظر إلى حيث يقف الجميع منتظرين اقتفاءه، أخذ نفَسًا عميقًا وحاول أن ينبتّ عمّا حوله كما كان يفعل من قبل، أغمض عينيه فرآها، كانت هناك صباحًا أمام باب البيت تنظر إليه وتبتسم، قالت له: «صباح الخير» فسمع أهازيجَ أعيادٍ وفرحٍ تترقرقُ في صوتها، ولم يسمع خرير الماء.

نظر إلى عمق الوادي الممتدّ بمحاذاة الصّحراء. لم تلتقط أذناه شيئًا، عشر خطوات ثمّ نكس رأسه ثانيةً لكنّه لم يسمع شيئًا، عدّ عشرين خطوة، ثمّ زادها حتّى وصل المائة في المرّة الأخيرة ولم يسمع شيئًا.

لم يكترث بما سيقوله عنه الآخرون الذين يرتقبونه، كانت هي كلّ ما يراه، كلّ ما يسمعه، ولأوّل مرّة شعر بأنه يريد أن يقفز، أن يركض، أن يستلقي مكانه ويحدّق في السماء، أن يضحك ويبكي في آنٍ واحدٍ، تمنّى أن يصرخ بكلّ صوته ثم يتتبّع صداه في جنبات الصحراء.

عاد ذلك اليوم دون أن يعثر على شيء، لم يكن همّه سوى أن يعود، أن يجدها واقفة هناك عند الباب في انتظاره، وأن يهمس لها بتحيّة قبل أن يرتشف من ابتسامتها قوت يومه.

عاد وكأنّه لم يبرح مكانه منذ الصباح، ذهب جسده يبحث عن ماء لأهل القرية لكن قلبه بقي عند ماءٍ ما برح عتبة باب الدار.

سأله أبوه:

-فيك شي؟ تشكي شيء؟ يعوّرك شيء؟

ضاقت الكلمات ولم يعرف كيف يجيب، فنظر مكسورًا حائرًا إلى الأرض.

اعتذر والده لأهل القرية وعزا ذلك إلى التعب الشديد الذي أصاب ابنه من السفر، ثمّ طلب منهم أن يمهلوه أيّامًا حتّى يستردّ عافيته. فما كان من أهل القرية إلّا الموافقة. وكانت تلك الأيام كفيلةً بأن يرى القافرُ قلبَه يمشي بين طرقات القرية ويصعد تلالها الرمليّة، ثمّ يرحل مع النسيم متتبّعًا كلّ همسٍ يصله.

جلس في صباح أحد الأيام تحت ظلّ غافة كبيرة قريبًا من بيتها، وحيدًا وقد ذهب أبوه مع بعض الرجال، جلس هناك مزروعًا غائصًا بجذوره مثل الغافة إلى أعماق الأرض، باحثًا عن صوتها، عن ذلك النداء الذي كان يأتيه من عروق الأرض، عن الأمّ التي رحلت.

في الآونة الأخيرة صارت تتردّد عليه في الحلم، هو ذات الصوت الذي اعتاد سماعه، لكنّه كان يخرج من شفتيْ فتاةٍ تبتسم.

لم يذق طعم النوم أيّامًا، ولم يجد حلاوة في الطعام، كلّ ما كان يرجوه أن يراها في خروجه ودخوله، وعندما يتعذّر عليه ذلك،

عندما يعود إلى البيت ولا يلمحها، كان يجوس بكلّ حواسّه في أرجاء البيت باحثًا عنها.

ذهب خيالُها ناحيتَهُ، خرجت من باب البيت واتجهت إلى حيث يجلس، كان منكّسًا برأسه إلى الأرض، ولم ينتبه إلى صوتها إلّاحين اقتربت منه:

-كبرت راعي المسفاة.

رفع رأسه فقام كالملسوع، خاف أن تكون قد سمعت هواجسه، حملق في وجهها مستغربًا فضحكت، ثمّ قالت وهي تشير إلى قامته:

-صرت طويل.

لم يكن متيقنا من قبل أنها هي، ومع ذلك سألها:

-أنتيه..

وقبل أن يكمل سؤاله أجابته ضاحكة:

-هيه أنا.

رفرف قلبه في داخله مثل عصفور شعر بحلاوة الطيران، لكنّ القفص الذي سُجن فيه منعَهُ من ذلك، رفرف بشدّة حتّى كاد جناحاه ينكسران، وانتفش بعضُ ريشِه، ثمّ قال لها:

-استويتي حرمة.

في داخله أراد أن يخبرها بكلّ ما حدث معه، أراد أن يقول لها كيف تركت في نفسه بعد ذهابها ذلك الفراغ الذي لم يمتلئ قَطّ، وكيف عجز عندما رآها عن سماع أيّ شيء وكأنّما أصابه الصمم.

مرّت الأيام وكبر الحب في قلبه، جلس إليه والده محاولًا إدراك ما أصابه، فأخبره بما يجول في خاطره، نصرا بنت رمضان، الفتاة التي سكن بيت أبيها، نصرا ذاتها الطفلة التي مرّت بقريته في زيارةٍ خاطفةٍ ذات يوم، ثمّ لحقت هي وأمّها بأهلها ذاهبين إلى قريتهم البعيدة، نصرا البنت الوحيدة وسط مجموعة من الصبيان، المدلّلة، المحبوبة من الجميع.

انزاح عنه ثقل السرّ الذي كان يخفيه حين أخبر والده، فهدأت نفسه، رأى البشاشة والفرح في وجه أبيه، طمأنه بأنه سيخطبها له من أبيها، ليلتها رأى أمّه ثانيةً في المنام، كانت تلبس لباس العرس المزركش، وتضع حليّها على رأسها ومعصميها، كانت في قمّة السعادة، وابتسامتها تشبه ابتسامة نصرا بنت رمضان، وفي الصباح شعر بهدوء عميق، حتّى إنّه سمع رفرفة فراشة على الجانب الآخر من القرية.

نظر إلى الخلف فرأى النّاس ينظرون ناحيته، أنصت إلى الأرض. أنصت إلى عروقها لعلّه يستمع إلى الماء وهو يجري في جسدها الحصويّ، فسمع رفرفة طائرٍ صغيرٍ على شجرة أثل قريبة، ونوح حمامةٍ على ضفّة الوادي، ثمّ سمعه، سمع الماء الّذي ينتظر وصول حكايته إلى طبلة أذنه. سمعه خافتًا يأتي من الأعماق مثل فحيح أفعى تلتفّ على فريستها، فازداد تركيزًا وهو يكرّر اللّازمة الّتي تأتي وحدها إلى لسانه:

«ماي.. ماي».

***

تختلف طرق الأفلاج ومساراتها من قرية إلى أخرى اعتمادًا على طبيعة المكان والوادي، فبعض القنوات تُحفر من بداية المنبع هبوطًا وبعضها الآخر ينطلق من القرية صعودًا حتّى المنبع. كانوا بين مسافة وأخرى يحفرون فتحةً تصل الخارج بقناة الفلج، وكانت تلك الفتحات أو الفرضات تُساعدهم في الوُصول إلى الخارج وإخراج الحصى والرّمل، واستنشاق الهواء المنعش بدلًا من حرارة الجوف، وقد تمتدّ القناة لعشرات الأمتار حتّى تصل إلى الفتحة الأخيرة الّتي يوجد عندها منبع الماء، أمّ الفلج، وهناك يحفرون بمَيَلانٍ خفيف حتّى يجري الماء منحدرًا ناحية القرية.

ولمّا كانت قرية المسيلة تمتاز بالطبيعة الحصويّة المختلطة برمل الصّحراء، قرّر الرّجال حفر قناة الفلج من عند القرية صعودًا من شريعتها حتّى أمّ الفلج، لأنّ ذلك يُسهّل عليهم صيانة القناة ودعمها بالحجارة والصاروج اتّقاءً لسقوطها.

كانت المسافة بين مفلح الماء وأمّ الفلج كبيرة، ما يعني أنّ العمل فيها أكثر صعوبة وأنّ إكمالها يحتاج إلى وقت أطول من المعتاد. وكان من الضروريّ وضع الحواجز الحجريّة لدعم سقف القناة خشية انهياره عليهم في أيّ لحظة، وكلّما قطعوا مسافةً ازداد العمق وازداد العمل صعوبةً، فاستمرّوا يعملون كلّ يوم منذ الصباح الباكر حتّى الظهيرة، ثمّ يقضون الفترة المسائيّة في الصّيانة وتسقيف القناة.

دأب عبدالله بن جميّل أن يكون في المقدّمة، يحفر في الجدار الرّمليّ ثمّ يزيح الرّكام إلى الخلف، فيأخذه منه شخص آخر يقف وراءه ويجمّعه في قفير من خوص النّخل ثمّ يسلّمه إلى ثالثٍ يحمله حتّى فتحة الفرضة ويربطه في الحبل المتدلّي من الأعلى، وبعد ذلك يهزّ الحبل منبّهًا الرّجال في الخارج إلى وجوب رفعهِ وإفراغه ومن ثمّة إعادته.

وفي بعض الأحيان يتنازل بن جميّل عن مكانه لأحد الأشخاص كي يقوم بأمرٍ ما، كشرب فنجان من القهوة أو قضاء حاجته، ثمّ لا يتوانى عن النّزول ثانية ليكمل مهمّته، عاملًا بمعول أو بمجرفة أو طارقًا على رأس المسمار لفلق صخرة اعترضت طريقه.

ظلّ المكان ضيّقًا ولا يتّسع إلّا لشخص واحد فقط ليمشي فيه، فقد تجنّبوا زيادة عرضه لأنّ ذلك يتطلّب جهدًا أكبر في تسقيفه، ولم ينحصر دور القافر في الاستدلال على المسار الّذي يحفرون فيه كي لا يحيدوا عن الخطّ المتّجه إلى منبع الماء، بل كان يذهب أحيانًا إلى الخارج ليُساعد الآخرين في جرّ الحبل، أو يحمل الحصى حتّى قاع الفرضة.

أُقيم عرسٌ كبيرٌ في القرية، تزوّج سالم بن عبدالله القافر من نصرا بنت رمضان، بعد أن خطبها له أبوه، كان عرسًا لم تشهد القرية له مثيلًا منذ زمن، لأنّ القحط الذي اجتاح المكان قد أنسى الناس أفراحهم، بارك الجميع للقافر وكأنّهم يباركون لأنفسهم إذ استطاعوا أن يخرجوا أخيرًا من ذلك الوجوم الذي احتلّ وجوههم،

دقّت الطّبول وصدحت النساء بالأهازيج طيلة ليلتين، وذبح أهل القرية بعض مواشيهم ووزّعوا لحومها على الناس.

ناما متعانقين مثل بذرة لقيت نصفها الذي تبحث عنه، غرق في رائحتها، والتحفت بجسده، سمع وجيب قلبها وسكنت روحه، غرق في النوم ورأى أمّه ترقص بجانب أبيه، وفجأةً شعر بجفاف حلقه وقام ليشرب، فسبقته نصرا وأحضرت له الماء، جلست بجانبه ولم يقل لها عن الحلم شيئًا، سحبته ناحيتها ووسّدت رأسه بذراعها ثمّ أحاطت صدره بذراعها الأخرى وضمّته إليها حتّى ناما.

في صباح اليوم التالي تأخّر الرّجال الّذين يعملون في تسقيف سطح القناة ولم يكملوا مهمّتهم، فأبى عبدالله بن جميّل أن ينتظرهم حتّى يكملوا ما تبقّى وبدأ العمل، ثمّ طلب من ولده أن يحضر إليه بعض الماء ليطفئ العطش الّذي كان يلهب حلقه، فنادى مَنْ في الخارج طالبًا أن يرسلوا إليه في القفير الفارغ آنية الماء، وجلس ينتظر القفير النازل بالحبل رويدًا رويدًا حتّى لا ينكفئ الماء، وعيناه معلّقتان عليه، وكأنّ الزّمن قد بدأ يمتدّ ويمتدّ وهو يشعر بثقل ذلك البطء في حركة الحبل الهابط إلى قاع الفرضة.

انهار السّقف من بداية الفرضة حتّى المكان الّذي يعمل فيه عبدالله بن جميّل فأقام حاجزًا بينه وبين ابنه، كان صوت انهياره وما رافقه من هجوم الحصى والرّمل والغبار قد شلّ حركة القافر، وهكذا حدث ما توقّعه أهل قرية المسيلة، وصار عليه أن يتصرّف بسرعة لإنقاذ أبيه العالق في الدّاخل. أرهف سمعه فأتاه صوته

مختلطًا بسعاله كأنّه يناديه من داخل غيمة الغبار الّتي ملأت ذلك النّفق المظلم.

«سلّم على كاذية، قولها ولدِش يسلّم عليش، سلّم على الوعري، ولو فيوم من الأيّام بغيت تكلّمني روح عند قبر أمّك بكون هناك، باه سالم أسمع الماي يجي من بعيد، أسمع كلّ قطرة تبلّل روحي، عطشان يا باه عطشان. باه بلادك ما بلاد، البلاد اللّي تاكل أموالك بلاد فاجرة، البلاد بو تستغلّك وتاخذك تمرة وبعدين ترميك فلحة ما بلاد، باه سالم دور على بلاد غيرها، البلاد بو تنكر جميلك ما تستحقّ تعيش فيها ساعة. عطشان أسمع صوت أمّك، أسمع ضحكتها، باه صوت أمّك جنّة، ويدينها كانت حياة».

ظلّ سالم في مكانه تصله كلّ كلمة فتثقب قلبه، يجرف التّراب بيديه مرّة وبالمجارف الّتي حوله مرّة، لكي يصل إلى أبيه قبل فوات الأوان، يجرف التّراب ويصرخ حتّى يتعب، ثمّ يسمعه يُغنّي وهو هناك! نعم، كان والده يترنّم بأبيات شعر لا يصله منها إلّا اللّحن، فلا يعرف فحواها، وكانت الكلمات تخرج بغُنّة من الأنف، ثمّ يعود الأب الحبيس ليكرّر:

«عطشان، عطشان، ماي، ماي، هين الماي يا سالم، هين الماي يا ولدي، باه سالم عطشان عطشان، ماي ماي، أبغى ماي، ماي ماي».

هبط الرّجال إلى قاع الفرضة وبدَؤُوا يحفرون الركام مسرعين كي يصلوا إلى الرجل الغارق في عمق الأرض. كان سالم بن عبدالله

يسمع أنفاس أبيه وهو يلهث بحثًا عن هواء يرطّب جوفه، ثمّ سمع دقّات قلبه تخبو حتّى لم يعد يسمع لها حسًّا، عندئذ أيقن أنّ أباه قد أسلم روحه ورحل.

لم يترك الرّجال المكان حتّى حفروا النّفق، لكنّهم وصلوا بعد ساعات طوال فما وجدوا إلّا الجثّة مغطّاة بالغبار، فسحبوها إلى الخارج ووضعوها عند باب الفرضة، وهناك جلس القافر يتمعّن في وجه أبيه ورأسه الأشيب وشعره المنكوش. لفّ يديه حول ركبتيه ونكس رأسه وبدأ يبكي، وكان خرير الماء يسيل في أعماق الأرض كأنّ الأرض تبكي الفقيد في عروقها.

دفن القافر أباه في صبيحة ليلة عرسه، ثمّ ترك قرية المسيلة برفقة زوجته، وعاد حزينًا مكسورًا، يملأ الفقد روحه.

أمّا أهل المسيلة فقد استمرّوا في الحفر حتّى وصلوا إلى موضع أمّ الفلج، واصلوا العمل أشهرًا ببطء شديد متّخذين كلّ احتياطاتهم لكيلا يسقط عليهم السّقف، فكانوا ما إن يقطعوا مسافةً بسيطة حتّى يعزّزوها بدعائِمَ من الأخشاب والحجارة.

انفجر الماء من بين الرّمل، تدفّق من الأعماق وانحدر ناحية قرية المسيلة العطشى. في بداية الأمر ظنّ كلّ من لم يرَ الدفق بعينه أنّ كذبة سرت بين الحارات جعلت الصّايح يصيح في القرية قائلًا إنّ الماء يجري في الفلج، وإنّ شريعة الفلج قد فاضت ولم تستوعب السّواقي المياه، ولكنّهم لم يستطيعوا أن يكذّبوا أعينهم بعد ذلك وهم يرون المياه تجري منحدرةً تشقّ طريقها على رملة الوادي.

أمّا القافر فكان طريق عودته شاقًّا، فكيف له أن يخبر أمّه كاذية بنت غانم بما حدث، وهي الّتي كانت توصيه دومًا بألّا يسمح لوالده بالدّخول إلى عمق الفلج؟ وكيف له أن يعود إلى بيت لا يجد فيه رائحة أبيه؟ كيف له أن يستمرّ في البحث عن الماء بجنون؟

كان يعمل طوال الوقت لا حبًّا في العمل، بل ليكتشف ذلك الصوت الّذي يضجّ في جمجمته، فالخرير يتردّد في داخله ولا يسكت، وكأنّه يناديه من أعماق الصّخر حتّى يصل إليه فيحرّره من سجنه.

حدّثته نفسه بأنّه من الخطأ أن تخرج بعض الأشياء من سجنها، وأنّ الماء الّذي يُعيد الحياة إلى القرى كان لزامًا أن يبقى في مكانه، لأنّه مصحوب بلعنة منذ القدم. ولمّا كان قد سمع مرارًا أنّ الماء المحجور في باطن الأرض تحرسه كائنات الأرض السّفليّة، ظنّ ما حدث لأبيه انتقامًا منها حتّى يتوقّف عن ذلك العبث.

وعندما عاد إلى قريته قرّر التوقّف تمامًا عن اقتفاء أثر الماء. جاءته عروض من قرى بعيدة وتبعه الكثير من النّاس، لكنّه ادّعى أنّ شيئًا أصاب أذنه فلم يعد يسمع ما كان يسمعه من قبل.

أغلق أذنيه عن كلّ صوت، فلم يعد يستمع إلى الهمس الّذي كان يستطيع سماعه من خلف الجدران، ولا إلى رفرفة الفراشات والعصافير في الحقول البعيدة، أغلق أذنيه على الأصوات، سجَنَها في أعماق الصّمت وبدا للآخرين كأنّه أُصيب بالصمم.

كان وقع الحادثة على كاذية بنت غانم شديدًا. عندما علمت أنّه بقي محبوسًا في باطن الأرض حتّى مات مختنقًا عطشًا، فطغى عليها الحزن وضعف جسدها، واستكانت إلى فراشها لا تقوى على النّهوض.

كانت تقضي الوقت على حصيرة من السّعف ترقب الباب، فإذا رأت سالم بن عبدالله داخلًا تنوس برأسها إلى الأمام حتّى تصل به إلى الأرض وتعاود رفعه، تئنّ وتتوجّع، تبكي وهي غائبة عن الوجود، تلوم نفسها كثيرًا على تلك اللّحظات من الكشف الّتي رأت فيها عبدالله بن جميّل يرحل، وتندب عجزها عن الحيلولة دون ذلك. لقد رأت النهاية وبقيت ترقبه يذهب نحوها.

ماتت كاذية بنت غانم على تلك الحصيرة حزنًا وكمدًا، فحُملت إلى قبرها، خفيفةً كأنّ النّعش يسير فارغًا على أكتاف حامليه.

حزن سلام بن عامور الوعري حزنًا شديدًا على وفاتها، وصار يختار اللّيالي المظلمة ليقضيها جالسًا عند قبرها، يحدّثها عن تلك اللّواعج الّتي عاشت في صدره، ويخبرها بحكاياته الّتي ودّ لو أسمعها إيّاها منذ زمن.

الفصل التّاسع

انتشر الخبر سريعًا في حارات القرية وطرقاتها ومجالسها، انتشر كما تنتشر النّار في زور النّخل اليابس. قيل إنّ سالم بن عبدالله القافر قد جُنّ تمامًا وذهب عقله وغار في الأرض السّابعة.

قال حمدان بن عاشور:

«جنّ الطوي بو مشاركينه في راسه شربوا مخّه».

بينما هزّ سويلم بن عمران رأسه وابتسم ابتسامةً عميقة علقت بين شفتيه طويلًا كما تعلق آثار اللّبن عندما يشربه في الصّباح الباكر.

تناقل الجميع خبرًا مفاده أنّ سالم بن عبدالله يحفر صخرةً صمّاء في قمّة نجد النّوح، وأنّه شوهد هناك ساجدًا يستمع إلى الأرض، وأنّ المسكين قد خُيّل إليه بعد كلّ هذه السّنين وجود ماء في باطن تلك الصّخرة بعينها.

وبالفعل كان سالم يثابر في الضرب بمطرقته الضّخمة على رأس مسمار حديديّ غاص حتّى نصفه في الأرض، يتوقّف قليلًا ليريح يديه من عصا المطرقة الغليظة ثمّ يُعاود الطّرق ثانيةً فيما عيناه ترقبان تعمّق المسمار في تلك الأرض الصلدة.

يتردّد الصّدى في سفوح الجبال المحيطة به، تتناقل السّفوح تلك الضّربات فيما بينها فيستمع لصداها ذاهبًا إلى البعيد، إلى عمق تلك الوديان البعيدة حيث تبتلع الصّخور والهضاب الأصوات وتخبو حدّتها ثمّ تتلاشى.

بعد أن يدخل المسمار كلّه ما عدا عنقه يضربه من جوانبه لكي تتخلخل الحفرة حوله ويتفتّت الصّخر وتتشعّب التّشققات فيستطيع أن يخرجه ثانيةً وقد أحدث في الصّخر ثقبًا غائرًا.

وفي لحظةٍ بعينها وضع المسمار جانبًا، أبعد المطرقة من أمامه ثمّ اتّكأ بكفّيه على الأرض وانحنى فوق الثّقب. وضع أذنه عليه ليستمع إلى همس تلك الصّخرة الملساء، أصغى جيّدًا إلى ذلك الصّوت المنبعث من بطن الصّخرة، أصغى إلى خرير ماءٍ ينساب في عمق الجبل، و كلّما أرهف السمع اتّضح الصّوت، وكأنّه يُمنّيه بقربه. وشوشته الخافتة تغذّي يقينه، فيتابع عمله كي يصل إلى المنبع.

طيلة عمره كان يذهب صعودًا مع الوادي، لكنّه لم يدخل ذلك الشّغف قطّ، استوقفه صوت نابع من أعماق صدره، فوقف للحظات متردّدًا هل يغيّر طريقه ويمضي يسارًا صاعدًا إلى المكان الغريب، أم يذهب كما اعتاد مع الوادي؟

كانت الرّغبة في اكتشاف الشّغف الجبليّ أقوى فبدأ في صعوده وما إن فعل حتّى اكتشف كم هو مريح ذلك المكان، فعبّ أنفاسًا كبيرة ومتتالية من الهواء أنعشت قلبه.

مرّ بمضيقٍ صخريّ تقارب فيه جانبا الجبل حتّى صار لا يكاد يتّسع لمرور شخص واحد، ثمّ انفتح الممرّ على مكان رحب مليء بأشجار الحلف والحبن مع بعض أشجار القفص على الجانبين وشجرة غاف كبيرة منتصبة في نهايته. ولمّا ألفى المكان واسعًا ومظلّلًا بالأشجار تاقت نفسه إلى شرب فنجان من القهوة فيه، لكن من أين له بفنجان قهوة في تلك اللّحظة؟

صعد إلى الأعلى وجلس ليستريح قليلًا عند القمّة، اتّكأ على صخرة ملساء كبيرة مستظلًّا بما بقي من ظلّها قبل الظّهيرة، كان هدوء المكان قد أبعد عن نفسه قلقًا خالجه، أو لعلّه شعر بنعاس مع تلك النّسمات اللّطيفة الّتي صعدت من الوادي.

أغمض عينيه مُصغيًا إلى دقّات قلبه وهي تنتظم بعد جهد صعود القمّة، ثمّ فتحها فجأةً ليتأكّد ممّا سمع.

خُيّل إليه أنّه سمع صوت ماء يسيل بالقرب منه، خرير ضئيل ولكنّ صوته قريب جدًّا، التفت يمينًا ويسارًا فلم يجد ما يدلّ على وجود ماء هناك، لا شيء غير بعض الشجيرات أقرب إلى اليباس منها إلى الاخضرار. أغمض عينيه ثانيةً وأصغى إلى الصّوت باحثًا عن الجهة الّتي يأتي منها، وقد استند بظهره إلى الصّخرة.

بدّل من وضعيّة جلوسه ثمّ أحنى رأسه ووضع أذنه اليسرى على الأرض هناك تمامًا، عند التقاء الصّخرة بالجبل. عندئذ سمع الخرير بوضوح، ومن وضوحه وقربه بدا كأنّ الماء يسيل على وجه الأرض.

تحسّس الصّخرة، فإذا ملمسها ناعم، وهو يعلم جيّدًا صلابة هذا النّوع من الصّخور. ولقطع الشكّ باليقين استكشف ما حولها باحثًا عن طريق يدلّه إلى الماء، ولكن لم يُقابل نَظَرَه شيءٌ سوى الحجارة.

قفل راجعًا، وعندما وصل إلى فسحة الأشجار الكثيفة أسفل الشّغف، قال لنفسه: هنا ستكون المزرعة.

عاد مبكّرًا إلى البيت، فلم يجد زوجته، وكانت قد دأبت أن تخرج في ذلك الوقت لتبحث عن قوت بقرتها بين نخيل أهل القرية، أو لتشرب القهوة عند واحدة من جاراتها، وتعود محمّلةً بحكاياتٍ تسردها عليه بعد ذلك.

لم يخبر أحدًا بما عزم عليه، ولكن كيف انتشر الخبر سريعًا في أرجاء القرية؟

فما إن عاد إلى المكان في اليوم التّالي وبدأ في الحفر حتّى وقف الشّيخ حامد بن علي أعلى الصّخرة وقد وصله الخبر وجاء من فوره ليتأكّد منه بنفسه. لكنّ الشابّ من فرط انشغاله بالطّرق لم يشعر بوجود الشّيخ بالقرب منه، فظلّ يعمل حتّى تحدّث إليه قاطعًا انهماكه:

-هذا بو هداك عليه عقلك؟ نهايتها تكسر حصاة صما؟

وضع سالم المطرقة جانبًا، نظّف ما حول المسمار المنغرز في الصّخر ثمّ قال للشّيخ من دون أن يرفع رأسه:

-وانت تارك شغلك وأموالك وجاي تشوف بو جالس أسويه.

-كلّ البلد عندها خبر.

كان القافر يدرك أنّه يعيش في قرية لا همّ لأهلها إلّا رصد أخبار وتناقلها، فكاد يلزم الصمت، لكنّه سرعان ما عدل عن ذلك وقال باقتضاب:

-تحت هذي الحصاة ماي واجد.

ضحك الشّيخ وقد بدا في صوته قلق لتلك المعلومة الّتي وصلت إلى سمعه.

-البلاد كلّها محلانه، وانت تدور عن الماي تحت هذي الحصاة؟ باغي النّاس تضحك عليك؟

تناول سالم مطرقته وعاود الضّرب مرّةً أخرى مُنهيًا الحديث المقتضب معه.

***

منذ السّاعة الأولى لانطلاق سالم في عمليّة الحفر، سمع هلال ود محجان صدى ذلك الضّرب وهو يمرّ أعلى النجد، فاجتذبه الفضول ليرى ما الّذي يحدث، وعندما شاهد القافر في جلسته تلك الّتي افترش بها الأرض ومدّ قدميه على جانبي الصّخرة، هرول راجعًا ناحية البلدة ونشر الخبر. بدأ بسلطان الصوّار وحميد بن غافر وانتهى إلى آخر العمران والنّخل وهو يردّد كلّما صادف أحدهم:

-شفت القافر يدقّ حصاة صما في نجد النوح.

وفي أقلّ من ساعة كانت حكاية سالم بن عبدالله القافر تلوكها الألسن في المجالس وعلى دروب القرية، مع بعض التّعديلات الضّروريّة لإضفاء النّكهة اللّازمة لبقاء الحكاية طازجة وساخرة وبالأخصّ مثيرة.

بدأ النّاس يذهبون إلى نجد النوح ليشاهدوا بأعينهم ما يحدث هناك. بعضهم وقف أعلى النجد يرقب المشهد من فوق، وبعضهم تلصّص من بين الأشجار والحجارة وعاد، وبعضهم الآخر تحدّث مع القافر قليلًا أحاديث مقتضبة جدًّا ومعظمها ساخر، وكلّهم حاولوا التأكّد من صحّة فقدان القافر عقلَهُ، كيف لا وهو يحفر صخرةً صمّاء في أعلى الجبل ظنًّا منه أنّ في بطنها عينَ ماءٍ غزيرة.

كانت العيون تراقبه من كلّ مكان، عيون صغيرة تيبّس الحلم على حوافها، عيون متعبة، عيون كبيرة، عيون خجولة، عيون تبدو جريئةً وظاهرة، وعيون تأتي وتهرب، وهو على حاله مستقبلًا صخرته ولا يكفّ عن الطّرق عليها.

وصل الخبر إلى زوجته، كانت تشرب القهوة عند فاطمة بنت القصيّر، فدخلت عليهما جميلة الملسونة وهي، تكلّم نفسها -وفقًا لعادتها- فلا يفقه أحد شيئًا ممّا تقول. وحقيقة الأمر أنّها تردّد، ولكن بلكنتها ولثغة لسانها وسرعته «مشي بخير فهالدنيا» ولا أحد يعلم لماذا تكرّر الجملة ذاتها، ومهما يكن السبب فإنّها لُقّبت بالملسونة فلسانها لا يكفّ عن الكلام حتّى في نومها.

دخلت الملسونة ورأت زوجة القافر فشهقت، وقالت:

-إنتيه هنا؟ مشي بخير فهالدّنيا.

ردّت عليها نصرا:

-أعوذ بالله، مو مستوي فهالدّنيا؟

لم تكن زوجة القافر لتسكت عن أيّ إيذاءٍ بالكلام، فخرجت عيناها من محجريها حتّى صارتا مثل فنجانين مقلوبين وقد همّت بأن تردّ الصاع صاعين للملسونة، إلّا أنّ الملسونة فعلت ما لم تفعله قطّ وأخرجت الكلام ببطء وهدوء لتقول لها:

-سيري.. شوفي.. زوجش.. يقولوا.. مختفّ.. عقله.. وجالس.. يقحف.. حصاة.. صما.. في.. قمة.. جبل.

وكالملسوع قامت زوجة القافر لتمسك الملسونة من رقبتها وتؤدّبها، وكادت تفعل لولا أنّ حميدة بنت خميّس دخلت عليهن وأكّدت ما قالته الملسونة.

-هين جالس؟

-في نجد النوح.

خرجت تركض في طرقات القرية، تحاول لملمة نفسها.

وقفت خلفه مباشرةً، عيناها تدمعان وهي تعضّ على لحافها، بلغه نشيجها المكتوم فعرف صوتها، عندئذٍ توقّف عن الحفر وقام فواجهها مبتسمًا وقال لها:

-شوفي ذاك السيح، هناك بسوّي مزرعتي.

-كأنّك ما بخير؟

-بخير، بخير، صحيح ما فيّي عقل لكنّي بخير.

انتابتها نوبة بكاء شديدة، لكنّها نجحت في إخراج كلماتها من بين النشيج:

-بسّ هذي حصاة صما، من شار عليك بهالشّور؟

ضحك القافر فردّدت الجبال صدى ضحكته الغليظة، كانت تلك الضّحكة كافية لتزيد من فزع زوجته فاستدرك قائلًا لها:

-هنا عين ماي حلوة ونشيطة، وبعد ما أخوز هالحصاة بتطلع وتسيل إلين تحت.

هزّت زوجته رأسها واستدارت لتعود إلى البيت، قالت له وهي تمضي:

-من مات أبوك وأنت قايل ما تقفر ولا تبصر ولا تخدم عن الماي.

انتظرت ردّه لكنّه سكت طويلًا فغادرته.

وهي تهبط المنحدر بدرت منها التفاتة يائسة نحوه، فرأته يعانق الصّخرة كأنّه يحاول زحزحتها، كانت تلك اللّحظة وحدها قادرةً على شقّ قلبها وانتزاع بقايا السّكينة منه، ملأت الدّموع عينيها مرّةً أخرى فلم تستطع تبيّن دربها، لذا توقّفت لتمسح دموعها وخدّيها

وكلّ وجهها بطرف وقايتها، ثمّ عضّت على شفتيها بقوّة حتّى لا تردّد الجبال صدى نشيجها.

واصل القافر عمله من غير أن يعبأ بمن جاء ومن ذهب، فاستطاع أن يُحدث شقًّا صغيرًا في الصّخرة، وكان بين الفينة والأخرى يلصق أذنه على الأرض ويُصغي إلى الماء الّذي يشقّ طريقه في جوف المكان، وكأنّ لحظات الإنصات تلك تُحفّزه ليواصل عمله دون أن يُداخله الملل أو يجرفه سيل اليأس.

وعند الظّهيرة حمل مطرقته وهبط ليستريح تحت ظلّ الغافة، هناك في ذلك الظلّ الكثيف اقتات بضع تمرات وشرب عدّة فناجين من القهوة، ثمّ تمدّد متوسّدًا عمامته الرماديّة وأغمض عينيه وغفا بضع دقائق كانت كافيةً لتُعيدَ له النّشاط، ومع ذلك انتظر ريثما تميل الشّمس قليلًا عن منتصف السّماء ويتمدّد ظلّ القمّة الغربيّة.

في السّاعات الأخيرة من النّهار، كان يحاول مرارًا شقّ جزء صغير في الصّخرة وكان المسمار في كلّ مرّة يرتدّ إلى الأعلى وكأنّ قوّةً تدفعه وتمنعه من الاستقرار والغوص حيث حُدّد له، في تلك السّاعات الّتي أوشك فيها أن يقوم تاركًا الصّخرة ويهبط، سمع صوتًا يصعد ناحيته، وإذ أصغى جيّدًا إلى نبرته عرف من يكون فتهلّلت أساريره وتوقّف عن الطّرق حتّى ظهر ذلك القادم.

جلس سلام ود عامور الوعريّ، مُسندًا ظهره إلى الصّخرة غير مكترثٍ بالقافر وموضع الحفر، كان يلهث تعبًا من الصّعود، وقد

احتاج إلى وقتٍ كي ينتظم نفَسُه ويهدأ. وحالما استرجع أنفاسه بدأ يضحك، بل استغرق في الضّحك حتّى بدأت الدّموع تتساقط على لحيته البيضاء. وكان القافر ينظر إلى وجهه ويبتسم، وكما احتاج إلى وقت ليهدأ من آثار الصّعود احتاج إلى مثله لتذهب عنه موجة الضّحك. توقّف محاولًا قول شيء، لكنّ الضّحك منعه، فبلع ضحكته، وبعد ذلك بقليل سكت، ثمّ نظر إلى عيني القافر وقال:

-أسميك بليت البلاد كلّها.

عاد بعد قوله إلى ضحكه فارتفع أكثر، أمّا القافر فنكس رأسه إلى الأرض مُنصتًا إلى ذلك الدويّ الخارج من حنجرة الوعري، وكان الوعري كلّما زفر تكاد تجزم بأنّها زفرته الأخيرة. ثمّ يأخذ شهيقًا، فيُخيّل إليك من قوّته أنّ صدره سينفجر لا محالة.

لكنّه لم يلبث أن توقّف فجأةً وقام من موضعه ليقف بجانب سالم بن عبدالله القافر ويقول له:

-خبّرني، مو لقيت هنا؟

بدأ القافر يشرح كيفيّة الوصول إلى الماء، وأخبره بأنّه لو استطاع أن يُحدث شقًّا في الصخرة حتّى يصل إلى العين فإنّ الماء سيخرج وعندئذٍ سيعرف من أين يأتي ويتتّبعه حتّى منبعه.

-ولو ما لقيت ماي؟

سأله الوعري بحرص، فمدّ يده اليمنى مشيرًا بإصبعه ناحية الصّخرة، ثمّ أجابه:

-الماي هناك، متأكّد كما أشوفك قدامي، لكن كيف أقدر أكسر هذي الحصاة؟

-ولو ما قدرت تكسرها؟

ضحك القافر ضحكةً هادرة وهو يجيب:

-ولا شي، بيقولوا فقير وشوره دمير.

كانت الشّمس تميل ناحية الجبال البعيدة، هناك، حيث تغرب مخلّفةً كائنات وبشرًا يلتحفون العتمة حتّى موعد شروقها الجديد.

هبط الرّجلان التلّ وذهبا إلى القرية. كان الدرب يسيل بحكايات وأحاديث سمعها الوعريّ في ذلك اليوم، وقصّها على القافر بتفاصيل تبعث على الضّحك، فلم يترك حكايةً إلّا سرَدَها عليه حتّى أتى على كلّ ما استطاع أن يتذكّره منذ الصّباح.

حاولت زوجة القافر نصرا بنت رمضان أن تثنيه عن عمله لعلّها تُوقف هدير ذلك الوادي الجارف من الكلام، كلام أهل القرية الّذي تشعر به كالشّوك يخزّ جسمها. أخبرته بأنّ النساء لم يتوقّفن عن الشماتة بهما، تحدّثت كثيرًا ورجته أن يكفّ عن الحفر ويعترف للنّاس بأنّه أخطأ لأوّل مرّةٍ في اقتفائه الماءَ، رجته أن يأتي بأيّ عذر كي لا يكسرها أكثر، فهي وحيدة لا أبناء لها ولا عائلة سواه.

لا يملك سالم بن عبدالله القافر شيئًا في هذه القرية، لا نخل له ولا ضواحي تُسقى بماء الفلج، ولولا زنده القويّ الّذي يعمل به في نخيل الآخرين لما وجد قوت يومه.

حاول إقناعها بأنّهما لن يخسرا شيئًا إن فشل الأمر، ولكن ماذا لو انبجست العيون من تحت الصّخرة؟ ماذا لو جرى الماء في المنحدر إلى الأسفل؟ ماذا لو صارت لهما مزرعة خاصّة؟ قال لها إنّه سيخسر حلمه إذا توقّف، سيخسر شيئًا ربّما يتحقّق. وأضاف أنّ الآخرين يريدون له أن يظلّ فقيرًا، أمّا هو فيرغب في التحرّر من العمل عندهم، فهل يعقل أن تحقّق رغبتهم وتقمع رغبته؟

عندئذٍ قالت له وهي على وشك البكاء:

-لكن كلامهم يلسع.

ضحك ضحكته الغليظة الّتي خرجت من حدود البيت في ذلك اللّيل السّاكن وقال:

-بيلسعنا كلامهم التوّ، لكن بيحرقهم الماي من يخرج.

شعرت بأنّ حديثها بلا جدوى، فلن يثني عزيمته شيء، وهي في قرارة نفسها مؤمنة به، لكنّهما يعيشان بين النّاس، ولا يمكنهما العيش خارج كلامهم.

ها هم يتّهمونه بالجنون، وينعتونه بنعوتٍ كثيرة، سمعتها كلّها في يوم واحد بأصوات وهيئات ومواضع مختلفة، أصوات شامتة وأخرى غير مصدّقة، أصوات ناصحة، وأخرى تتلذّذ بتعذيبها، وهي وحيدة في قرية كبيرة.

لأوّل مرّة تمنّت أن تكون غير حاضرة في المكان أو غير مرئيّة، تمنّت أن تبتلعها الأرض وتغور بها، أو أن تعيش في مكان آخر، فيحفر زوجها حيث لا تصل إليه عيونهم.

والقافر يدرك أنّه تحت عيون النّاس، وأنّ كلّ حركة من حركاته مرصودة، سواء صعد جبلًا أو نزل واديًا، سعيدًا كان أو حزينًا بائسًا، خرج من بيته أو ظلّ فيه، فلا أحد في هذه القرية يتحرّك خارج عيون الآخرين.

لكنّه يدرك أيضًا أنّ كلّ حكاية في القرية مهما كبرت ستخبو ذات يوم، وأنّ حكايات أخرى ستأتي فتُنسي النّاس وتشغلهم عن حكايته، ولذلك قال لها وهو يمسح دموعها بيده الضّخمة:

-«إنّ الله مع الصّابرين».

أخبرها القافر بأنّ أهل قريته يستقوون على الضّعيف، يشمتون بمصائب المساكين، لكن لو حدث ما حدث في أحد بيوت شيوخهم وَسَادَتِهم لَمَا نبسوا بكلمةٍ، فهناك يغدو العيب حكمةً والجنون فطنةً ورجاحةً، فالأعمى من أصحاب الجاه بصير بمكانته، والجبان قويّ بماله أو بانتمائه لبيت يعصمه، أمّا هم الفقراء الّذين لا يجدون ظهرًا يحميهم ولا مالًا يرفع من شأنهم فيكونون عرضة لألسنة النّاس ولتجريحهم في كلّ بقعة.

وإذ سكن اللّيل وهدأت حركة النّاس، راود النّعاس عيني القافر وتراءت له مزرعته خضراء يتماوج فيها القت مع النّسيم. رأى الماء ينساب من عيونه تحت الصّخرة ويهبط إلى الحوض، رآه يتدفّق في السّاقية يحرّكه الشوق إلى المزرعة، هناك حيث قامات النّخيل تحرس المكان وأشجار اللّيمون تحفّه من الجنبات.

سحبه النّوم إلى عوالم وأحلام أخرى، فرأى نفسه واقفًا على حافّة بئر، يحملق في قعرها كأنّه ينتظر خروج شيء مّا، أو كأنّه شاهد حركةً في البئر فأراد التحقّق.

أحلام كثيرة تذهب وتجيء، والقافر كلّما استفاق من حلمٍ بدّل من وضعيّة نومه ومسح وجهه بيده اليمنى وهو ينطق الشّهادتين ثمّ عاد إلى نومه في انتظار أذان الفجر.

يقع بيت القافر على جانبٍ منزوٍ من الحارة، وهو بيت صغير تُجاوره حظيرة فيها بقرة واحدة وثلاث شياه، وبعد الحظيرة حافّة تطلّ على النّخل مباشرة، إذ لا جيران له إلّا من ناحية واحدة، وخلف البيت ينتصب الجبل.

وقف سالم ينتظر زوجته عند مدخل الحظيرة حتّى تُنهي حَلْبَ بقرتها، وعندما أطلّت عليه بالإناء وضع التّمر فيه وخلطه بالحليب، ثمّ شرب المزيج كلّه وناولها الوعاء، وذهب في طريقه إلى حيث تنتظره عيون الماء لينقذها من سجنها الحجريّ.

لم يكن نجد النّوح بعيدًا عن القرية، فهو يقع على تخومها الشّرقيّة، لذلك لم يستغرق القافر وقتًا طويلًا للوُصول إليه من بيته، وعندما وقف بمحاذاة الغافّة أدرك أنّ الوقت مازال مُبكّرًا للحفر فقرّر أن يستصلح المكان تحتها، هناك حيث سيرتاح في مُقَيَّله إن لم يعد إلى البيت.

علّق أشياءه على الغافّة وصعد الجبل، لاحظ في الصّباح الباكر بعض الثّرى على التّربة الطّينيّة تحت شجرة قفص ضخمة،

نكشه بأصابعه فاستمرّ الثّرى حتّى بلغ الجذور، فقدّر أنّه أمام أحد احتمالين: إمّا أن يكون ذلك مجرّدَ بلَلٍ بسبب برودة الجوّ في الصّباح الباكر، أو أن يكون أثرًا للعيون الّتي تسيل في باطن الجبل.

وضع أذنه بالقرب من جذور الشّجرة ليُنصت إلى باطنها، لكنّه لم يسمع شيئًا فقال في نفسه «الماء ليس هنا»، لكنّ ذلك أيضًا غذّى فيه الأمل بوجوده قريبًا، في مكان مّا، وحينها وقف بجانب الصّخرة بحث في الاتّجاهات عن أرضٍ رطبة فلم يبصر شيئًا.

ثمّ عاين على بعد أمتارٍ مساحةً صخريّة تختلف بطبيعتها عن الصّخرة المصقولة الصّلبة، ذلك أنّ صخورها سوداء غير صلبة تتخلّلها تربة طينيّة تلصق تلك الحجارة بعضها ببعض، وتمتدّ حتّى حدود الصّخرة المصقولة.

عمل بمسماره فيها فبدأت تتفتّت. كانت تستجيب لحفره بسهولة جعلته يغيّر من خطّته ويحفر عميقًا في ذلك الاتّجاه قاصدًا التوغّل تحت الصّخرة حتّى يجد منفذًا في الثّرى يدلّه إلى طريق عين الماء.

أخذ يطرق المسمار والصّخور تواصل التفتّت، حتّى إذا جرف الفتات بمسحاته بانت حفرة صغيرة يحدّها من الأعلى حجر الصفاة المصقول ومن الأسفل تلك الصّخور السّوداء بتربتها الطّينيّة.

وعندئذ صار يستطيع أن يحفر حفرة أوسع وأعمق في تلك النّقطة، فهو يدرك ضرورة التّحايل على الماء المندسّ في باطن

الصّخور بالالتفاف حول مخزونه والبحث في كلّ الجهات عن مفتاحه.

نعم، للماء أيضًا مفاتيحُه، هذا ما يعرفه القافر من خلال خبرته الّتي راكمها طوال سنين عمله في تتبّع المياه، فهنالك -على حدّ قوله- مياه كريمة قريبة من السّطح تسري في تربة حصويّة أو رمليّة تقول لك تعال خذني، وهناك مياه مخادعة، تسكن التّربة الرّخوة والطمي، تبدو من خلال الثّرى وفيرةً، وما إن تحفر الأرض وتشقّ المجاري لتتبّعها، حتّى تخسر وقتك وجهدك كلّه، وبعد ذلك تُدرك أنّك كنت تطارد قطرات شحيحة تنبجس من منبعها لتسكن ذلك الطمي لا غير. وقد يحاول البعض مطاردة منابعها لكنّه كلّما حفر هبطت إلى القاع بالمنسوب الضّئيل ذاته، فلا هو ينال ماءها ولا هي تتدفّق كما يتمنّى.

وهناك أيضًا مياه الوديان المختزنة بين الحصى والرّمل، والمعتاد أن تكون وفيرة ومتدفّقة تجري بها الأفلاج لريّ القرى، ولكنّها تعتمد على الأمطار، فما إن تتوقّف السّماء عن الإمطار لأشهر، حتّى يقلّ تدفّقها وتجفّ الأرض ويعمّ المحل، وتبقى كما هي منتظرةً الخصب أشهرًا وربّما سنوات.

لكنّ العيون الّتي تسكن الصّخر هي التي تستهوي القافر، تلك الينابيع العذبة السّاخنة القادمة من أعماق الأرض بتربتها الكبريتيّة البيضاء، تلك المياه الّتي لا أحد يعلم من أين تخرج عيونها الدّائمة، وقد تمرّ عليها السّنون الممحلة والسّنون الخصبة ولا تبدّل شيئًا من

منسوبها، لا قليلًا ولا كثيرًا، تلك العيون الّتي لا تعرف مسكنًا لها إلّا الحجر المصقول.

وهذه العين الّتي يطربه خريرها في باطن الصّخرة تشبه الكنز المدفون، كما يقول القافر، فهي لا تُعطيك تفاصيلها بدقّة، تبدو موجودةً وتسمعها لكنّ الوصول إليها ليس سهلًا، ولا بدّ من الخبرة وإعمال العقل حتّى تجتذبها لتخرج.

توهّج المكان بضوء الشّمس، ويداه القابضتان على المطرقة الكبيرة تهويان بها على المسمار الّذي مازال يأكل جسد الجبل قضمةً قضمة، وكلّما تكرّر الطّرق كبرت الحفرة حتّى طالت ذراعًا في عمق الجبل.

***

يا لهذا الخرير الّذي يُعذّبه، ويا لهذه الصّخرة الكبيرة الّتي تقف عائقًا في درب النبع.

يكاد وهو ساجد في صلاته يسمع تلك النّغمة فيَهيم كمن تذكّر معشوقه لحظةً ففاض به الوجد، وكلّما استسلم للنّعاس يرى الماء يجري في الصّخرة شاقًّا طريقه ناحية المنحدر، فيتقلّب في فراشه يمنةً ويسرة كمن يبيت على شوك يخزّ جسده ولا يأتيه النّوم إلّا من إعياءٍ وتعب، ولا يفتح عينيه إلّا ويسبقهما لحن موسيقى يفيض من جدران البيت ليجتاح أحلامه وصباحه.

وبينما كان ذات مرّةٍ مُلتصقًا بالأرض مُنصتًا إلى صوت الماء في أعماق الصّخرة اعتراه فجأةً صداعٌ شديد كاد يعمي عينيه من

شدّته، فأغلقهما حتّى يزيح ذلك الألم الّذي بدأ يعاني منه في الفترة الأخيرة، وصار يحتلّ كامل رأسه ويتنقّل فيه من جانبٍ إلى آخر.

ظلّ عاجزًا عن فتح مسار صغير لذلك الماء الّذي يملأ خريره كلّ رأسه، فما إن يقترب من المكان حتّى يتسلّل إلى أذنيه، مثل موسيقى خافتة تنهش فؤادًا موجوعًا بالفقد، لكنّه كان أشدّ عنادًا من الصّخرة، وزادته سخرية من حوله عنادًا فوق عناده، فهؤلاء أنفسهم كانوا يستعينون بقدرته على اقتفاء أثر الماء، ثمّ صاروا يهمزون ويلمزون كلّما مرّ ذاهبًا إلى الصّخرة أو عائدًا من عندها، كأنّ قفره لماء يخصّه وحده أَوْجَعَهُم، فما انفكّوا يتحايلون على وجعهم بالسّخرية منه.

دلّه صوابُه على مُحاولة فلق الصّخرة من قمّتها، فقرّر أن يعتليها ولكن قبل ذلك احتاج إلى ما يساعده في تفكيك صلابتها من الدّاخل قليلًا، فصخرة مثل تلك لا تنفع معها القوّة، وعليه النّفاذ إليها باللّين والطّراوة، فطلب من زوجته أن تدقّ له عشرين رأسًا من الثوم وتعجنها جيّدًا ثمّ صعد الصّخرة وبدأ يدهن سطحها الأملس بذاك العجين.

ظلّ سالم بن عبدالله يجدّد دهان الصّخرة بالثّوم مرّة كلّ يومين، واستمرّ في ذلك حتّى لم يبق فصٌّ واحدٌ في بيته.

وتناقل أهلُ القرية خبر الثّوم فيما بينهم، فقال أحدُ الشبّان ساخرًا من الخبر:

-غبنا، بينكسر الجبل كلّه.

وقال آخر عندما رآه عائدًا وهو يحمل وعاء الثّوم الفارغ:

-بكم منّ الثوم؟

أمّا النّساء فلقد وجدن ما يجعل صباحاتهنّ ألذّ من التّمر مع القهوة، فتدفّقت منهنّ الحكايات، وهنّ يطلقن ضحكات طويلة كأنّها شلّالات ماء تسقط من الأعالي.

وبعد انقضاء أسبوعين جاء اليوم الّذي رأى فيه القافزُ الصّخرةَ جاهزةً لمسماره ومطرقته، فهمّ بالصُّعود إليها متحدّيًا صلابتها، لكنّه قبل أن يفعل ذلك سمع صوتًا يناديه باسمه من المنحدر، فتوقّف كي يرى ذلك المتطفّل على خلوته.

أمسك المطرقة بيد والمسمار بيد وظلّ واقفًا مكانه ينظر إلى ذلك الغريب الصاعد نحوه، وبين لحظة وأخرى يطرق بالمسمار على المطرقة وينصت إلى تردّد الرّنين الّذي يحدثه وكأنّه يقيس مدى توغّل الماء في الحجر، يطرق ويستمع إلى الرّنين ويرقُب في الوقت ذاته الرّجل وهو يقترب.

وإذا هو شابّ في الثّلاثين من عمره متوسّط الطول، يلبس دشداشة بيضاء ويعتمر مصرًا أزرق اللّون مزركشًا وفي أطرافه بعض الكشاكش الصّوفيّة، ويضع حول وسطه حزامًا مملوءًا بالرّصاص ويعلّق بندقيّة على كتفه اليسرى. حيّاه وقدّم له التّمر والقهوة ودخل معه في نقاش عن المحل والجفاف والقرى الّتي ماتت وهجَرها أصحابُها.

وبعد احتساء القهوة قال الزائر لسالم بن عبدالله:

-أنت القافر.

-هيه.

-قاصدنك، دلّوني عليك، اسمي محسن بن سيف، هناك بلاد ميتة، ما باقي من أصحابها غيري، وأريدك تشوف الفلج.

رفع القافر رأسه ونظر بتمعّن شديد في عيني محدّثه وبعد برهةٍ أجاب:

-من زمان عاهدت نفسي ما أقفر.

ثمّ حدّث الرّجل الغريب عمّا حدث لأبيه، وعن قراره التوقّفَ نهائيًّا عن القفر، وعن السّنين الّتي تلت ذلك، والنّاس الّذين جاؤوا إليه حتّى يقتفي لهم أثر الماء في قراهم الميّتة، وختم كلّ ذلك بالقول:

-ايش الفايدة، الماي فهذي الأرض فاسد ويخلق نفوس فاسدة.

تأمّل الرجل وجه القافر وتقاسيمه القاسية الّتي تشكّلت عبر السّنين، فرأى في عينيه وهجًا ضئيلًا ربّما خبا مع الحياة، لكنّه أدرك وجوده، ثمّ تأمّل أذنيه الكبيرتين والشّعر النّابت على حوافّهما فأحسّ بأنّ كلّ شيء فيه يشي بغرابةٍ مّا. وبعد ذلك قال له:

-ما تقدر تغيّر فساد الناس، لكن تقدر تبتعد عنه.

هزّ القافر رأسه، التفت إلى الصّخرة ومسح عليها بيده، ثمّ دار ناحية الرّجل وابتسم وهو يقول:

-كلّ شيء يغيب، النّاس والبلاد، أخبار اللّي عرفناهم وحكاياتهم، كلّ شيء يغيب وما يبقى لنا إلّا الوجع.

وضع محسن بن سيف يده على كتف القافر، وهو يقول له:

-تقدر توقّف كلّ هذا الوجع. بلاد ما تبغاك اتركها، دور بلاد تعيش فيها بكرامتك لو غريب، ولا تعيش فبلاد كلّ همّها ترميك بأمراضها.

-وين أروح؟

-تشتغل الفلج، والشّرط إذا خرج الفلج حالك نصّ البلد.

عقد القافر حاجبيه ونظر في وجه صاحبه لعلّه يكتشف فيه لوثة أو جنونًا، فإذا هو يقطع عليه تأمّله ويقول له:

-أنا ما مجنون، هذا اتّفاقي معك، تروح معي وتقفر الماي وتشتغل الفلج وأجيبلك من يشتغل معك، ومن يطلع لك نصّ البلد كما وعدتك.

التفت القافر إلى صخرته وربّت عليها متفكّرًا، هل سيتركها بعد أن أنفق كلّ ذلك الوقت محاولًا كسرها؟ هل سيرحل ببساطةٍ بعد أن تحمّل كلّ ذلك الكلام؟ لكن كيف له أن يرفض عرضًا كالذي قُدّم إليه؟ لو أنّه وجد الماء فله نصّ البلد، سيرحل عن تلك البلدة ويستريح في بلاد لا يعرفه فيها أحد. وماذا عن زوجته؟ هل ستوافق أم ستحذّره من مغبّة رجوعه عن وقف القفر؟ وهل سيتوقّف عن حفر الصّخرة وهو يودّ أن يرى مفعول الثوم فيها؟

كانت السّاعة تُقارب وقت الظّهيرة، فعرض القافر على الرّجل أن يتغدّيا معًا، فوافق الضّيف بلا تردّد، ثمّ نزلا عن التلّة متّجهين إلى بيت القافر.

بعد الغداء ذهب سالم بن عبدالله القافر إلى سلام ود عامور الوعريّ وطلب منه أن يأتي معه إلى منزله، وكرّر عليه الرّجل الرّواية الّتي قالها للقافر. وكان همّ سالم أن يستشير صاحبه المُسنّ في أمر تلك القضيّة الحاضرة، ولكنّ الوعري نفض يديه من التّراب في المجلس السعفيّ بحوش بيت القافر، وتنهّد طويلًا وصمت.

فلمّا نظر إليه سالم بن عبدالله نظرة استفهام، ابتسم له، ثمّ سأل الضّيف:

-هذا لو اشتغل سالم الفلج وطلع الماي، لكن لو ما طلع شي؟

أجاب محسن بن سيف وهو يمسح شيئًا ظنّ أنّه عالق في وجهه:

-له عن كلّ يوم أجرة قرشين ونص.

أُعجب الوعريّ بدقّة الرّجل وسرعته في تحويل الأمور لصالحه، ثمّ سأل القافر ضيفه:

-لو نزلت وطاح الفلج، ايش يستوي؟

دهش محسن بن سيف من هذا الاحتمال الغريب:

-ليش يطيح فيك الفلج؟ ليش تقدّم الشرّ على الخير؟

كان القافر يجلس منكّسًا رأسه فرفعه ونظر في وجه ضيفه:

-كلّ شيء يستوي وفي غمضة عين.

عندئذٍ أجاب الرّجل وقد حوّل نظره ناحية الوعريّ:

-كلّ فلوسك توصل لزوجتك، وأموالك تبقى لها.

فاقترح الوعريّ كتابة صكّ تُوضّح فيه هذه الأمور كلّها، وقال:

-تتكاتبوا، الدّنيا فيها حياة وموت، ولازم نضمن كلّ شيء.

وتبعًا لذلك كتب محسن بن سيف الكَتْب المطلوب وأشهد عليه الوعريّ.

قصّ على زوجته حكاية الرّجل وبلدته، وأعلمها بنيّته العمل في فلج الغبيرة، وبالاتّفاق الذي عقدَهُ مع الرجل بحضور الوعريّ، لكنّها عجزت عن الكلام، وظلّت تحملق في وجهه طويلًا.

أخافتها ذكرى عودته منذ سنوات والفقد يثقل كاهله والحالة الّتي كان عليها عندما انهار الفلج على أبيه، وجعلتها تتوجّس من فكرة أن يعود إلى خدمة الأفلاج والبحث عن الماء. لقد كانت عقب كلّ صلاة تدعو ربّها ألّا يعود إلى كلّ ذلك، وأن يهدأ ويعيش كما هو، مادام لديهما ما يكفي ليعيشا مستورين. وعندما عاد إلى فلق الصّخرة شعرت بأنّ كلّ السّنين الّتي مرّت لم تُزِل الفكرة من رأسه، وأنّ أدعيتها لم يُستجب لها.

انحدرت دموعها على وجنتيها، فأخذ كفّيها بين كفّيه، وأخبرها بهدوء أنّه سيعود، وسوف يأخذها معه ويخرج من هذه القرية إلى الأبد، ليعمّرا معًا نصيبهما من ضواحي القرية الجديدة.

تسرّب هدوء صوته إلى نفسها، وهو يشرح لها ثانيةً ما وقع الاتّفاق عليه والفرصة العظيمة الّتي انبثقت من المجهول.

اتّفق القافر مع محسن بن سيف على أن يسريا قبل أذان فجر اليوم التّالي كي لا يعرف الآخرون الجهة الّتي سيذهب إليها، وأخبر زوجته بأن تُبقي الأمر سرًّا بينهما، مُستعينًا بالكتمان في مواجهة الكلام الّذي لا ينتهي في بلدته. وإنّما فعل ذلك مخافة أن يتدخّل أحدهم في الأمر فيُقلق زوجته في غيابه.

خرج القافر مع محسن بن سيف من قرية المسفاة، ذاهبين إلى مجهول لا أحد يعرف مداه. وفي تلك المرّة فقط شعر بأنّه يذهب إلى مكان بدافع المصلحة وحدها، من دون أن تحرّكه رغبة في اقتفاء الماء. فظلَّ سمعُه متعلّقًا بتلك الصّخرة في قمّة الجبل وبذلك الخرير الّذي استمرّ لحنُه يسيل في جمجمته. لكنّه بعدما تقدّم في سفره صار يُنصت إلى الأصوات الآتية من كلّ الجهات، ليتعرّف عليها صوتًا تلو آخر، فيتمهّل في مشيه حينًا وراء الرّجل، ويُسرع تارةً أخرى فيتجاوزه، أو يُحاذيه كأنّه بلغ مرحلةَ تناغمِ الحركة مع الصّوت.

انقضت أيّام وهما يمشيان إلى القرية الميّتة، وتوقّفا مرّاتٍ عديدةً بحثًا عن عمّالٍ في القرى الّتي مرّا بها. كان التّفاوض يأخذ وقتًا طويلًا حتّى يقتنع الشّخص الّذي يتحدّث إليه محسن بن سيف. وكان محسن يحبّ أن يبدأ كلامه بتقديم القافر، وقد شاعت سيرتُه وامتدّ ذِكْرُه فوصل إلى القرى البعيدة، وصار النّاس يجتمعون حوله ليروه، ويسألوه عن الماء والقرى الّتي زارها، والحكايات

الّتي سمعوها عنه، فيؤكّد بعضها وينفي معظمها، وقد لحقها من التحريف ما يجعلها لا تُصدّق.

وإحدى تلك الحكايات تزعم أنّه ظلّ زمنًا طويلًا يبحث عن الماء في قرية الوضيحي بلا جدوى، حتّى كاد يجنّ وبدأ يضرب رأسه بحجرين من حجارة الوادي. تناقل البعض أنّ الجنّ عاقبوا القرية وسحبوا ماءها إلى الأرض السّفليّة. وادّعى آخرون أنّ ساحرًا مرّ على قرية الوضيحي وأُعجب بفتاة وطلبها للزّواج لكنّ أهلها رفضوه، فقرأ عليهم تعويذةً سحب بها الماء وطواه بيده كما يطوي السجّادة، ثمّ رفعه على ظهره وذهب خارجًا من القرية حتّى اختفى بين الجبال، وعندما تبعوه لم يجدوا له أثرًا.

وفي كلّ قرية مرّ الرجلان بها كان محسن بن سيف يتفاوض مع أهلها، فيخرج أحيانًا بشخص أو شخصين، ويستعصي ذلك في أغلب المحاولات، ولكن لم يكن ذلك ما يقلق القافر فخمسة أنفارٍ يكفون لخدمة الفلج، ما كان يُقلقه حقًّا هو أنّه لم يقف حتّى ذلك الوقت على موضع الفلج ولا يعرف ماهية الأرض ولا طبيعة الحصى والتّراب، ولا كيف هي القناة القديمة للفلج. أمازالَتْ صامدةً مثلما هي أم اندثرت؟ وهل هناك قرى قريبة منها يستعينون بها إن قلّ الزاد أو الماء؟

في الطّريق، كانت الحكايات تتناسل من أفواه الرّفاق، عن الخصب الّذي كان، في مقابل ما حلّ بالقرى من المَحل، عمّن سافروا بعيدًا إلى أصقاع الأرض ولم يعودوا، وعن الجوع والحروب

الّتي يولّدها الجفاف. حكايات تتكاثر وتنتشر فتسافر إلى أمكنةٍ لا حصر لها. والدّرب الطويل يحتاج إلى الحكايات حتّى يقصر.

عند وصولهم إلى القرية الميّتة، رأى القافر المكان المغبرّ وأطلال البيوت وبقايا الضّواحي وقد تناثرت حجارة جدرانها وانهارت سواقيها. لم يكن في المكان مسكنٌ واحد يأوون إليه، في ذلك الوقت من السّنة وقد حلّ الشّتاء، وزاد عصف الرّياح الباردة الّتي تشتدّ في اللّيل فتخرق الجلد واللّحم وتستقرّ في العظم، لكنّهم عثروا على كهف واسع يُطلّ على القرية، فنظّفوا أرضه وهيّؤُوه للمقام.

بحثوا عن مصدرٍ للماء، فانتشروا في الوديان القريبة حتّى عثروا على نبعٍ صغير يخرج من كومة حصى، فيختلط ماؤُه بالتّراب ويغور في الأرض. فجهّزوا له حوضًا صغيرًا من الطّين ساعد في احتجاز مياهه، وضمنوا بذلك ماءً لشُربهم وطهي طعامهم، في وادٍ قريب من كهفهم، لا يفصله عنهم سوى عقبة جبليّة مَنْ يتجاوزها ينتهِ إلى النّبع.

عندما استقرّ بهم المقام، خرجوا مع القافر متتّبعين قناة الفلج، فدخل أحدُهم الفلج من بدايته، وكانت القناة منخفضةً، لكنّها تكفي للولوج. أخذ معه مطرقةً وتوغّل في الدّاخل فلمّا وصل إلى الفرضة الأولى طرق على الجدار وصرخ حتّى سمعوا طرقه وصراخه فبدؤوا في إزاحة الحصى والركام عن الفرضة إلى أن بلغوا سقفها وأزاحوه. عندئذ انفتح المكان وعبر الضّوء إلى الدّاخل وأنار

جزءًا من الفلج فاستطاع الرّجل أن يرى السّاعد الرّئيسيّ وهو يمتدّ في الأرض مع علوّ الوادي.

ثمّ صرخ الرّجل مفزوعًا لسماعه صوتًا هادرًا يتعالى من عُمق القناة، وما هي إلّا لحظات حتّى هاجمه سرب من الخفافيش الّتي داهمها الضّوء فاستيقظت من سباتها. وكان ردّ فعله الغريزيّ أن استدار والتصق بجدار القناة وغطّى رأسه بذراعيه، تاركًا إيّاها تخرج من فتحة الفرضة وتحلّق بعيدًا إلى أعالي الجبال.مكتبة

وحينما اتّسعت القناة، وارتفع سقفها، نزل رجل آخر ليرافق صاحبه، وغابا في العتمة باحثين عن الفرضة الثّانية حتّى عثرا عليها، وفتحاها فاندلق الضّوء والهواء واتّضحت أبعاد الجدران وتفاصيلها.

تعاقبت الأيّام واستمرّ العمل، القناة تشقّ الوادي والرّفاق يفتحون الفرضات، وبعد الفرضة الحادية والعشرين، علقوا في الدّاخل، لأنّ ثقب القناة الّذي كان الماء في ما مضى يمرّ منه لا يكفي لدخول أيّ واحد منهم. فصرخ أحدهم على الموجودين في الخارج:

-هذا الفلج فيه خاتم.

وعمّال الأفلاج يُدركون معنى الخاتم في قناة فلج ما، ذلك المكان الّذي لا يستطيعون ولوجه فيتركون ثقبًا دائريًّا واسعًا في الصّخر يسهل للماء الخروج منه، ثمّ يتعدّونه ويدخلون من الفرضة التّالية. ولقد حاول الجميع الزحف عبر الخاتم لكن أجسامهم كانت

أعرض من الثّقب فخرجوا باحثين عن طريقة أخرى للوصول إلى الفرضة التّالية.

وبواسطة العصا الّتي كان محسن بن سيف يحملها دومًا في يده، قاس القافر المسافة بين الفرضات فوجدها متساويةً، واكتشف بذلك موقع الفرضة الثّانية والعشرين وبدؤوا يبحثون عنها ويحفرون حتّى عثروا على سقفها، وعندئذ ولج العمّال إلى الدّاخل مُكملين توغّلهم في الفلج، باحثين عن نقطةِ النّهاية.

حتّى ذلك الوقت لم يصغ القافر إلى الأعماق، ولم يترك لأذنيه السّبيل لاختراق الطّبقات بحثًا عن عروق الماء في ذلك الوادي العظيم الممتلئ بالحصى والصّخور والأتربة. كان معهم، يعمل في اختراق الأرض والكشف عن مكمن السّواعد القديمة للفلج، يزيح الحصى والتّراب ويدخل إلى الأعماق. يمشي بظهر منحن أحيانًا، وأحيانًا يستقيم جسده فيمشي منتصبًا، وفي بعض الأحيان يضطرّ إلى الحبو والزّحف على بطنه حتّى يجتاز منطقةً منخفضة جدًّا.

وبعد شهر من العمل استطاعوا الكشف عن فرضات الفلج والدّخول إلى قناته. كان كلّ شيء على حاله مَصونًا وقويًّا. وهو ما جعلهم يعتقدون أنّهم لم يبق لهم من العمل سوى البحث عن مكمن الماء، لكنّهم قبل أن يصلوا إلى أمّ الفلج وجدوا السّقف منهارًا على القناة وبذلك غاب أثرها. فقد ملأت الصّخور الفلج وشكّلت جدارًا قويًّا يحول بينهم وبين بحثهم عن ذلك الجدول الممتدّ في غور الأرض.

قاسوا المسافة كما فعلوا في الفرضات السّابقة لعلّهم يجدون سقف أمّ الفلج، لكنّهم لم يعثروا عليه. ولمّا حفروا في الزّوايا كلّها بشكلٍ دائريٍّ ولم يصلوا إلى نتيجة، بدأ اليأس ينخر قلوب العمّال، وحدّثوا أنفسهم بأن لا جدوى من الاستمرار في البحث، فكلّ شيء قد طُمر ولم يعد له وجود.

أغمض القافر عينيه، تاركًا أذنيه تستعيدان ملكتهما الّتي عمل على كبتها منذ زمنٍ بعيد. سافر مع الأصوات في باطن الأرض، وفي تلك اللّحظات كان رفاقه يرحلون وقد أنهوا مهمّتهم لذلك المساء عائدين إلى مسكنهم في الكهف. سمع أقدامهم وهي ترحل، تركوه في مكانه غير مدركين ما يفعله، اعتقدوا أنّه يستريح قليلًا من جهد العمل وأنّه سيلحق بهم فيما بعد. وكان يحتاج إلى ذلك الصّمت، إلى ذلك الرّفيق الّذي لطالما تسرّبت الأصوات الخفيّة من خلاله. ولم يلبث أن بدأ يُصغي ويتعرّف على أصوات الكائنات من حوله تمامًا كما كان يفعل في الماضي.

عاد الصّداع إليه مُجدّدًا، ثقل رأسه واحمرّت عيناه من شدّة الألم، وتذكّر حكايات كاذية بنت غانم عن الصّداع الّذي كانت أمّه تُعاني منه. لمَ بدا له في تلك اللّحظة بالذّات أنّ كلّ تلك المطارق التي ظلّت تدقّ في رأسها هي نفسها الّتي تدقّ في رأسه وقتئذ، وأنّ كلّ ما يشعر به قد ورثه عنها؟

في اليوم التّالي أخبر الرّفاق بأنّ بينهم وبين الماء مسافة أمتار بسيطة، وأفهمهم أن أمّ الفلج التي يبحثون عنها تحت أقدامهم،

وأنّ ذلك الرّدم قد حبس منبع الماء وباستطاعتهم أن يصلوا إليه قريبًا.

منذ ذلك الصّباح حتّى اللّيلة الأخيرة الّتي قرّر فيها الجميع أن يتوقّفوا عن الحفر لم يعثروا على قطرة ماء واحدة ولا عن بلل في الأرض يوحي لهم بأنّ هناك ماءً قريبًا منهم. حفروا نفقًا طويلًا امتدّ لأمتار بلا فائدة. كان صوت الخرير يطغى على أذني القافر كلّما دخل المكان، فيسمع الصّوت ولا يرى أثرًا للماء.

قال له أحدهم:

-ما هو القافر بو نعرفه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وقال له آخر:

-أظنّ أنّك شيبت.

وبدأت كلمات السّخرية تتهاطل من أفواههم.

وفي صباح اليوم الموالي أخذ أشياءه وعدّته وقد قرّر الرجوع قبل الجميع، وعندما وصل إلى أمّ الفلج نزل إلى بطنه، وعمل بمطرقته ضربًا في المكان الّذي يسمع فيه صوت الماء قريبًا منه.

قرّر الجميع مغادرة المكان ولم يتأخّروا في جمع أمتعتهم، فقد اكتشفوا بأنّ القافر قد رحل عنهم، ولم تعد لهم أهميّة تُذكر، لذلك غادروه دون رجعة.

حفر بقوّته كلّها. كان ساعدهُ يهوي على الحجر ويفتّته ثمّ يزيح الرّكام إلى خلفه ويحفر النّفق. حفر بأصابعه، تتبّع ذلك الصّوت

الّذي يملأ رأسه ويعذّبه، تذكّر حكايته مع الصّخرة في تلّ النوح وأيقن أن لا ماء في تلك الصّخرة، لقد كان كلّ ذلك في جمجمته فحسب. أيقن أنّ الأصوات لا حقيقة لها، وفي لحظة يأسه العظيمة تلك، هوى بقوّته كلّها على صخرةٍ كبيرة في وسط النفق فتهشّمت، وتدفّق الماء منها سيلًا هادرًا يملأ القناة. حينئذٍ لم يجد القافر ما يتشبّث به، فجرفته المياه إلى الأعماق.

الفصل العاشر

انفجرت العينُ بغتةً، وقد قرّر النّهرُ المختَزَنُ في أعماق الصّخر الاندفاع في وجه القافر، فلا قطرة ماء تسرّبت من قَبْلُ أنذرته بوجوده ولا ثرى دلّ عليه. كان اليأس على أشدّه عندما هوى بمطرقته على المسمار الّذي انغرز في جسد الصخرة. فتفتّتت وتحوّلت إلى رملٍ ناعم، ثمّ ضربت موجةٌ عاتية جسده فجأةً فلم يستطع الوقوف والثّبات في مكانه. جرفته الموجة إلى داخل النّفق، وصارت تدفعه بقوّة حتّى كاد جسده يُسحق في القناة الحجريّة. ارتطم مرّاتٍ عديدةً بالحجارة، وأوشك أن يُغمى عليه من هول تلك الصّدمات.

تشقلب جسده، وصارت دوّامات الماء تلعب به في تعرّجات القناة. أصيب بجرح في كوعه وضُربت ركبتُه بحجرٍ ناتئٍ في زاوية مّا، وشُجّ رأسه فانبثق خيطُ دمٍ ضئيل اختلط بعكارة الماء.

حمله الماء إلى الدّاخل، وكان الفلج يحاول لفظه والتخلّص منه مثل أيّ عنصرٍ دخيل، وهو يقاوم ذلك كلّه محاولًا القبض على أيّ شيء يُعيد إليه توازنه، ويوقف تلك القوّة الهائلة، ولكنّ اندفاع الماء المتدفّق كان يقتلعه من أيّ مكانٍ يحاول التشبّث به.

في بعض الأفلاج التي دخلها وعمل فيها كان جريان الماء شديدًا، ولكن لم يحدث أن باغته مثلما حدث في ذلك اليوم، كان لديه دومًا مُتسّع من الوقت كي يركض هو ومن معه ويصلوا إلى فرضة الفلج متشبّثين بالحبال، أمّا في ذلك اليوم فلم يجد فرصةً ليفكّر ويتحرّك في سبيل نجاته.

أخذه الماء إلى الدّاخل، تكالبت عليه العتمة وشدّة التيّار فلم يعلم ماذا يفعل. حمله الماء وهو حائرٌ مثل سمكةٍ في مكانٍ ضيّق، يتقلّب مُتدحرجًا، مرّةً يتكوّم على نفسه مثل كرةٍ، ومرّةً أخرى يسبق رأسه أطرافه، أو ينقلب عكس ذلك فتتقدّم قدماه إلى الدّاخل.

وكلّما مرّ الماء وجرى شاقًّا دربه صوب المخرج تقلّبت تربة الأرض الّتي يمرّ عليها وملأت القناة، فيزداد لون الماء قتامة آخذًا لون الأرض، متّحدًا مع الطمي والغبار والرّمل.

كاد يختنق، تعبت يداه ورجلاه من المقاومة، وأُصيب بشَدٍّ عَضَليٍّ في ساعده، فصرخ من الألم لكنّ الماء في اللّحظة ذاتها مرق إلى فمه ليُسكت صرخته. وما إن دخل جوفه حتّى شرق، وبدأ يكحّ ويشهق ويزفر بحدّة مُحاولًا أن يلفظه. دخل الماء السّاخن المشبع بالأتربة إلى مآقي عينيه فبدأتا تدمعان واختلطت الدّموع بالمخاط وهبط الألم إلى أنفه وحلقه، وزاد من وجعه في تلك اللّحظة ارتطام رأسه بجدار القناة، وهو ما أفقده وعيه، فسقط جسده مستسلمًا للتيّار.

غاب عن الوعي، رحل بعيدًا، وإذا صوت يناديه من الأعماق، صوت امرأة تسكن قاع بئر مضت إليه وانتشلت جثّته الغرقى وسحبتها إلى الأعلى، ثمّ جرّتها لتُرقدها تحت ظلّ شجرةٍ وارفة.

تركته نائمًا تحت الشّجرة عاريًا إلّا من إزار مُمزّقٍ يستر القليل من جسده. سمع أصواتًا كثيرة من حوله، سمع بكاء امرأة وشعر بحرارة دموعها المتساقطة على وجنته. وسمع ضحك صبية وهم يهمسون:

-ود لغريقة، ود لغريقة.

فتح عينيه على أغصان الشجرة فشاهد غرابا ينفش ريشه غير عابئ بتلك الأصوات، كان يقف على ساق واحدة، فتبادر إلى ذهنه سؤال: «ترى أين ترك ساقه الأخرى؟» وظلّ الغراب ينفش ريشه صامتًا ثمّ توقّف ونظر إلى جذع الشّجرة. التقت عيناهما، بدا الغراب مندهشًا من وجوده، وما انفكّ يحرّك رأسه عاليًا ثمّ يعود ويثبّت نظرته عليه. وفي المرّة الخامسة سالت دمعةٌ من عينه وهو ينظر إليه، وفجأةً نعق نعيقًا متواصلًا وحلّق مُبتعدًا.

بعد ذلك حملته امرأة شابّة على كتفها، وقد أمسكت برجليه الصّغيرتين. كانت تغنّي وتضحك، تداعب قدميه وتحكّهما معًا ثمّ تطبع قبلاتها في باطنهما. وضع ذقنه الصّغير في موضع التقاء رأسها بعنقها، استنشقها طويلًا ثمّ أخذه النّعاس شيئًا فشيئًا، أغمض عينيه، وهي تغنّي له وصوتُها الجميل العذب يتسرّب إلى أذنيه وقلبه.

وبينما هو غارق في حلاوة الصّوت المنبعث من الحلم الجميل، هناك حيث لا فرق بين حقيقة أو حلم، اصطدم جسده بالخاتم، اصطدم بتلك الثّغرة الدّائريّة الّتي يعبر منها الماء في القناة، فاحتوت جسده وجعلت منه سدادة تعيق تيار الماء عن الخروج. نعم، إنّه الخاتم نفسه الّذي تجاوزه هو ورفاقه من الأعلى لأنّهم لم يستطيعوا العبور من خلاله. علق جسده هناك فسدّ المجرى، وبدأ الماء يرتفع ويملأ القناة.

فتح عينيه، الظّلمة على أشدّها، ارتفع منسوب الماء حتّى عنقه وفمه، تحسّس أطرافه وجدران القناة من حوله، العتمة شديدة لكنّه أدرك أنّه يقف في موضعٍ يسدّ جريان الماء. كان ظهره متقوّسًا وداخلًا في ثقب الخاتم، وقد سدّت ثيابُه ثغراتِ المجرى الضّئيلةَ. لا بُدّ من تحرير التيّار وإلّا ارتفع منسوبه وأغرقه. قاوم الضّغط وتحرّك شيئًا فشيئًا منزاحًا إلى الزّاوية، فوجد الماء منفذه، وبدأ ينحسر عابرًا إلى العالم الخارجيّ مندفعًا صوب القرية. أمّا القافر فكان يعلم أنّه لن يستطيع المرور من الخاتم الضيّق بذلك الجسد العريض وتلك العضلات المفتولة.

هدأ صوت تنفسّه، فسمع خرير الماء وهو يسيل منحدرًا على الأرض آخذًا معه الحصى والتّراب. وبفعل الصّدى ملأ الصّوت سمعه. كان في ما مضى يسمعه ضئيلًا يأتي من الأعماق فصار لا يسمع سواه وهو عالق في باطن الأرض، ويالغرابة، بعد أن كان حُرًّا يبحث عن ذلك الصوت ونَفْسُه مُعلّقةٌ به، أصبح مسجونًا بين

جدران قناة حجريّة في مكان لا يسمع فيه صوتًا ولا همسًا، سوى ذلك الخرير.

التقط أنفاسه وهدأت روحه، وبدأ يعتاد الظّلمة. ثمّ اتّضحت الرّؤية قليلًا فشرع يلاحظ تموّجات الماء. رفع عينيه ليقيس بُعد السّقف عن رأسه فشاهد سوادًا قاتمًا في الأعلى. كان سقف القناة في تلك النّقطة أكثر عُلوًّا، رفع ذراعه مُتحسّسًا ليستطلع بُعد السّقف لكنّه لم يستطع لمسه، تحرّك في مكانه رافعًا رأسه محاولًا الوصول إلى نقطة يستطيع أن يرى منها أبعاد ذلك السّقف، لكنّه عجز عن تخمين المسافة.

ظلّ جسده في الماء، نصفه غارق حتّى وسطه والنّصف الآخر يتّكئ على الجدار. شعر بالآلام تغمر رأسه وظهره وصدره وساعديه ورجليه. وبالأوجاع المتأتّية من الرّضوض والجروح الكثيرة تسري في جسده. أحسّ بوخز الألم في كلّ موضع، وبقي الطّنين يتردّد في أذنيه قويًّا من أثر الصّدمة الّتي تلقّاها في رأسه.

بحث عن المطرقة والمسمار من حوله فلم يجدهما، أدرك أنّه فقد ما كان يعتمد عليه وما قد ينقذه من ورطته.

حاول أن يسبح عكس التيّار، قاوم انجرافه، تشبّث بالصّخور الملساء، قطع مسافة قصيرة ثمّ تمسّك بحجر لكنّه أفلت منه ففقد توازنه وجرفه الماء حتّى أعاده إلى نقطة البداية.

عاد إلى مكانه في الزّاوية ذاتها، وقف هناك مبلّلًا وخائر القوى وقد هدأت أنفاسه. وزاد عدد الرضوض جرّاء اصطدامه بالجبل،

شعر بالألم يسري في رجليه وساعديه، وشمّ رائحة دمٍ، فأغمض عينيه وتنفّس بعمقٍ.

فاجأته قرصة في رجله، قرصة في موضع الجرح، هناك حيث أصابه النتوء الحجريّ وقتَ انجرافه. بدأ الأمر بقرصة واحدة، ثمّ تتالت القرصات كأنّها هجوم مخطّط له لطرد كلّ محاولة للرّاحة.

ففي أعماق الفلج، أي في تلك المنطقة الّتي ظلّ الماء محبوسًا فيها منذ زمن، تعيش أنواع صغيرة من أسماك المياه العذبة، وهي أسماك صغيرة عمياء تمامًا، أخرجها الماء الجارف من سجنها فسبحَتْ مع التيّار في داخل القناة بحثًا عن قوتٍ من العوالق والحشائش لتأكله، وقد وجدت بغيتها في جروح القافر ، وبالأخصّ في رجليه المغموستين في الماء، واختارت تلك اللّحظة الحرجة، لتهجم بشراهتها كلّها فتمزّق الجرح بأسنانها الصّغيرة.

حاول طرد الأسماك من حوله ولكنّ هجومها اشتدّ على رجله، وبدأت تنبش الجروح. كان عليه أن ينقذ نفسه من تلك الوخزات المؤلمة، فحرّك قدميه، وسبح إلى منطقة أخرى هربًا منها، لكنّها تبعته.

بدأ يهشّها بيديه لعلّها تبتعد. كانت تهرب قليلًا ثمّ تعود لتهجم عليه بكلّ شراستها من الجوانب كلّها. غطّى الجرح بيده فانتقل الهجوم إلى ساعده، اهتزّ في وسط الماء غاضبًا، وقد توقّف كلّ شيء في عقله، ولم يعد له هَمٌّ سوى الفرار من تلك الحرب الضروس الّتي فاجأته، حرب لم يحسب لها حسابًا، جاءت في وقت عجيبٍ كأنّ عُلوقه في قاع الأرض واحتجازه في تلك البقعة لم يكونا كافيَيْن.

تذكّر السّقف المرتفع أعلى رأسه، فقرّر أن يكتشف علّوه، أعطته تلك الفكرة أملًا ودافعًا، وامتلأ بالنّشاط، جرّب الصعود، تشبث بنتوءات الجدار فصعد قليلًا، وعندما رأى أنّ فكرته قد نجحت تسلّق مُتحسّسًا النتوءات الصخرية.

وصل إلى السّقف العالي، أي إلى النّفق الدائريّ الصّاعد نحو الأعلى، تحسّس بيده المنطقة فإذا بسرداب طويل يمتدّ في الأعلى بمحاذة قناة الفلج.

كان السّرداب على قدر قامته أو أزيد بقليل، فتمدّد فيه مستريحا من هجوم تلك الكائنات الصغيرة ومن قرصاتها.

فكّر في نفسه، كيف يستطيع الإنسان العيش في تلك العتمة؟ تذكّر أنّ أحدهم حكى له عن بخّار المساجين في قلعة الرستاق، كيف يدلّى فيه المسجون بحبل من فوق ثمّ يفلت ليسقط في الحفرة الضيّقة، ويظلّ يدور ويدور في تلك الغرفة الاسطوانيّة حول عمود ضخم من الجصّ، يتحسّس تحت أقدامه بقايا عظام من هلكوا قبله، ويُسمع صراخه ونداءاته وأنينه من الخارج من دون أن ينقذه أحد، حتّى إذا خبا الصّوت وانتهى بعد أيّام طويلة عرفوا أنّه قد أسلم روحه.

لم يتبيّن كيف تستطيع العتمة أن تحتلّ بصر الإنسان ويصبح أعمى بعينين صالحتين للنّظر ولكن لا يرى بهما، لكنّه في السرداب عرف ذلك، وعرف أيضًا كيف يستطيع أن يرى الأشياء بيديه.

عندما استيقظ شعر بالجوع يمغص بطنه، لكن ما الّذي يستطيع أكله في ذلك السّرداب المعتّم؟ كيف له أن يصنع غذاءه؟

«الجوع كافر»، لقد سمع هذه الجملة كثيرًا، وجاع أوقاتًا كثيرة، لكنّه كان يحافظ في كلّ مرّة على أمله بقطعة يابسة من الخبز، أو ببعض أوراق الغاف المطحونة والمحلّاة بالملح واللّيمون، أو بحفنة من الجراد المجفّف المغلي بالزّيت، أو بقطرات من السّمن، أو بجرعة لبن ولو حامضة، نعم، لطالما كان الأمل بانتهاء الجوع الطويل أو بتهدئته قليلًا أمرًا قائمًا، كانت هناك دومًا احتمالات كثيرة، للجوع والشّبع، للحياة والمرض والشفاء وحتّى للموت، لكنّه في تلك اللّحظة وهو داخل الأرض العميقة لم يكن لديه سوى واقعٍ واحدٍ فقط، الجوع ثمّ الجوع ثمّ الجوع.

ماذا لو ملأ بطنه بالماء، هل سيختفي الجوع؟ تذكّر العذاب الّذي سيستقبله لو نزل، لكن ما من سبيل سوى ذلك.

شقّ طريقه إلى خارج السّرداب. زحف على بطنه حتّى أخرج رأسه إلى الثّقب الأسطوانيّ النّازل من الأعلى، تُرى إلى أين يأخذه ذاك الثّقب؟

وقبل أن ينزل إلى الأسفل مزّق إزاره وأخذ منه خرقًا، لفّها حول الجروح توقّيًا من هجوم أسماك الصدّ، ثمّ هبط بحذر.

أخذ نفسًا عميقًا وغاص إلى قعر الفلج، سوف يتحرّك من تلك النّقطة السّفلى عكس التيّار. كان يعتقد أنّ شدّة التيّار في الأسفل

أقلّ ممّا هي عليه في الأعلى، تمامًا مثل الرّيح الّتي تعصف بالقمم، وتكون في الوديان دومًا أقلّ وطأة.

زحف أمتارًا عكس التيّار وهو يتشبّث بالأرض. شعر بالنّصر في تلك التّجربة النّاجحة، شعر بالفخر لأنّه أدرك وحده أنّ شدّة التيّار في الأسفل أقلّ من شدّته في الأعلى. ظلّ يحبس الهواء في رئتيه وهو يزحف متّجهًا ناحية الفرضة، وقد شعشع الضّوء لامعًا في البعيد. سبح بجهده كلّه، وكلّما قرُب زاد ضغط الهواء في رئتيه محاولًا الخروج. حتّى وصل إلى نقطةٍ لم يستطع الإكمال بعدها، فكان لا بدّ له من أن يصعد إلى السّطح، ويسحب كميّةً من الهواء كي يُكمل ما تبقّى.

رفس بقدمه مُندفعًا نحو السّطح، لكنّ التيّار لم يُمهله حتّى يتمسّك ثانية بجدار الفلج. وشرعت المياه تجرفه مجدّدًا ناحية الخاتم، هناك حيث بدأ كلّ شيء وحيث انتهى في تلك اللّحظة محاولًا ألّا يصطدم بفتحة الخاتم وأن يهرب منها إلى نقطة الركود ليقف عندها ناظرًا إلى أبعد نقطة رأى لمعة الضّوء فيها.

كاد يصل، كاد يفلت من سجنه وينجو من وحدته، من موته الّذي أوشك أن يكون محتومًا. ولكنّ الأمل كاد يتحوّل إلى سراب فلبث يفكّر في مخرج جديدٍ لتلك المشكلة، لاهثًا تعبًا، وعيناه تُحدّقان في أبعد نقطة يستطيع رؤيتها وقد هدأت نفسه قليلًا. فكّر في أنّ عليه التمرّن على حبس أنفاسه أكثر، وأن يعتاد البقاء تحت الماء لوقتٍ أطول، فغاص برأسه إلى قعر الفلج. وهناك جلس فاتحًا عينيه على

الظّلمة المائيّة محاولًا الحساب من الواحد حتّى الرّقم الّذي يستطيع الوُصول إليه، بإيقاعٍ واحد كي يعرف المدّة.

في المحاولة الأولى وصل إلى الثّلاثين بصُعوبة شديدة، ثمّ خرج وارتاح قليلًا قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا مرّة أخرى ويغوص، ويبدأ العدّ ثانية فيصل إلى خمسين. صبر وقاوم اندفاع الهواء نحو الخارج، حتّى يصل إلى العدد خمسين، ثمّ خرج مندفعًا وشهق شهيقًا شديدًا محاولًا إدخال أكبر كميّة من الهواء الموجود في ذلك النفق إلى رئتيه.

ومرّت ساعات وأيّام وسالم بن عبدالله القافر يتمرّن على حبس أنفاسه تأهّبًا للمغامرة المنتظرة للخروج من مأزقه. وكان كلّما شعر بالجوع شرب جرعات من الماء، وكلّما حاصره النّعاس صعد إلى السّرداب ونام.

تحسّس جدران الفلج بحثًا عن أيّ غذاءٍ يملأ به بطنه. ومن شدّة جوعه تذكّر مقولة الوعريّ عندما سقطت ذبابة في إناء اللّبن. وكان قد نبّهه إلى وجودها قائلًا: «فيه ذبابة» لكنّ الوعريّ غمسها إلى الأسفل وشرب كلّ ما في الإناء، ثمّ قال: «بو أصغر منك كله».

لم يشعر القافر بالتقزّز من ذلك، فقد أكل في صغره الجراد والخنافس وبعض السحالي، لكن كلّ ذلك كان بوجود النّار، وها إنّها قد اختفت مثل كلّ شيء آخر. تمنّى لو يجد خنفساء صغيرة، أو جندبًا أخضر لزجًا وهشًّا، فمن فرط جوعه كان مستعدًّا لالتهام أيّ شيء.

وبينما هو ممدّد داخل السّرداب شعر بدبيبٍ على قدمه، دبيب خفيف يصعد في اتّجاه ركبته، فمدّ يده بهدوء دون أن يتحرّك حتّى لا ينتبه إليه ذلك الزائر، ثمّ التقطه بسرعة خاطفة وإذا هو عنكبوت ضخم من تلك العناكب الّتي تعيش في الكهوف. كانت جعبته كبيرة، وكان يحرّك أطرافه الثّمانية بسرعةٍ مُحاولًا التملّص والإفلات من قبضته، لكنّه فصَلَ رأسَه عن جسمِه بحركةٍ خفيفةٍ من أصابعه فتوقّف عن الحركة، وعندئذ دسّه في فمه ومضغه سريعًا ثمّ ابتلعه.

لم تكن الوجبة كبيرة، ولم تستطع حتّى إسكات صوت معدته، غير أنّه سعد بدخولِ شيء مّا جوفه بعد تلك الأيّام. ووجود العنكبوت فرّخ الاحتمالات، وجعله يتحسّس جدران السّرداب وينصت لكلّ حركة فيها، وشيئًا فشيئًا استطاع تجميع عدد لا بأس به من السّحالي الصّغيرة والعناكب والنّمل، وكوّمها، مُمَنّيًا نفسه بوجبةٍ كبيرة.

كان صوت تكسّر مفاصل الحشرات في فمه يحدث دويًّا في ذلك المكان الغائر في الأرض، وبعد أن تناول وجبته حمد الله على نِعَمِه الّتي لا تُحصى ونزل صوب الماء ليشرب.

انزلقت قطعة القماش التي كانت تغطّي جرحه، وحينما وصل إلى قعر الفلج أثبت قدميه وبدأ يعبّ الماء بفمه ويشرب.

وقبل أن ينتهي سقط شيء كبير على كتفه، فبدأ يتحرّك محاولًا أن يتوازن خشية الوقوع في الماء، بُوغت القافر، لكنّه أمسك ذلك

الشّيء بيده. كانت إحدى السّحالي الكبيرة الّتي بلغت أغوار الفلج قبل أن يغمرها الماء، فلمّا حدث ذلك علقت في الداخل. أمسكها بيده فاهتزّت محاولةً الهرب من قبضته. كانت في نظره طعامًا سيُنقذه من الجوع بضعة أيّام، ولذلك ضرب رأسَها على الجدار بكلّ قوّته مرارًا حتّى توقّفت عن الحركة وتأكّد من أنّ روحها قد فارقتها. وعندئذ صعد نحو السّرداب وسحبها معه.

انقضت أيّامٌ وليال لا يعرف عدّها ولا حسابها. لا تشرق عليه شمس ليَعلم أنّ النّهار قد ظهر، ولا تلمع نُجوم فوقَ رأسه ليُدرك جمال اللّيل. لقد ابتعلت العتمة كلّ شيء من حوله، وظلَّ سجينًا لا رفيقَ له غير الحجارة والكائنات الّتي تسكن باطن الأرض، تلك الكائنات الّتي صار يشعر بأنّه واحد منها.

ومع دبيب الأسماك الصّغيرة على جسده، لمعت في ذهنه فكرة ربّما جاءت متأخّرةً رغم بداهتها. كيف ترك تلك الأسماك الكثيرة الصّغيرة اللّذيذة، وهي أوّل ما صادفه في المكان، وانشغل بصيد الحشرات والهوام الّتي لا تشبع جوعه؟

كان عليه أن يصنع فخًّا ليتمكّن من الإمساك بها، فهو يدرك أنّها شرهة جدّا لأكل كلّ شيء حتّى لحمه، وإذا جذبها إليه بطريقة مّا سوف تعلق بين يديه.

تذكّر أنّه ذات مرّة ملأ يده ببعض الطّحين المتبقّي في وعاء الخبز، ثمّ أدخلها إلى ماء البركة ليشاهد أسراب أسماك الصدّ وهي

تلتفّ حول قبضة يده وقد هجمت على ذلك الطحين. حدث الأمر وهو صغير، وقد استطاع الإمساك بالكثير منها بتلك الطّريقة. كان بعضها كبيرًا بحجم إصبع اليد. والمهمّ من كلّ ذلك أنّه يحتاج إلى شيء يشبه الطّحين حتّى تنتبه إليه، ولا طحين لديه في ذلك القعر المظلم. لكن ماذا لو اصطاد عنكبوتًا، أو خنفساء، ثمّ فصل بطنه وأخرج مادّته اللّزجة، هل ستُغوى الأسماك الصّغيرة بذلك؟

تحسّس الجدران وأرضيّة السّرداب، وأنصت للدّبيب على الصّخور، فاستطاع أن يصطاد العديد من الهوام.

أخذ عنكبوتًا كبيرًا وهبط إلى الأسفل، مدّ يده إلى عمق الماء وفتحها قليلًا ممسكًا ببعض أطراف العنكبوت وتاركًا للسّائل اللّزج الّذي يطفر من جعبتها أن ينتشر مع الماء، ورويدًا رويدًا، أحسّت الأسماك به وتحلّقت حول يده.

وضع قطعة قماشٍ حول رقبته كي يملأها بما يصطاده من أسماك. وكم كانت فرحته كبيرة إذ استطاع أن يحصل على الكثير منها. شعر بنشوة من انتصر على الجوع بعد عناء طويل وتسلّق الحواف نحو السّرداب حتّى يهنأ بوجبته اللّذيذة.

بعد أن شبع واستعاد طاقته، قدّر أنّ الوقت قد حان لمحاولة جديدة تنقذه من ذلك السّجن، فأخذ شهيقًا طويلًا ثمّ غاص في أعماق الفلج. بعد ذلك بدأ يسبح عكس التيّار، شاقًّا طريقه ناحية الفرضة البعيدة، الفرضة الّتي ما زالت ترتقب وصوله بأضوائها.

سبح بعيدًا حتّى وصل إلى بقعة الضّوء، سبح ولم يرفع رأسه مستعينًا بالأرض حتّى شاهد الزّرقة وهي تتلألأُ أعلى رأسه. أغواه الضّوء، فاندفع خارجًا بقوّته كلّها، وهو يلهث سامحًا للهواء بالدّخول إلى رئتيه.

رأى السّماء، رأى زرقتها، رأى سحابةً تُمدّد طرفها على جانب الفرضة، وظلّ يشهق بعد ذلك الجهد العظيم الّذي بذله. تعلّق بحجر ناتئ حتّى هدأت أنفاسه، حدّق في فوهة الفرضة باحثًا عن طريقةٍ لصعودها وهو أعزل ما عدا ساعديه المفتولين.

وإذا الحجر يتفتّت فجأةً. فينكسر الجدار ويتهدّم من دون أن يمنح القافزَ فرصةً كي يتمسّك بحجرٍ آخر، فيسقط المغدور، ويهوي مع وابل من الحجارة أصابت رأسه وكتفيه. سقط على صفحة الماء ثمّ أخذه التيّار إلى الدّاخل مجدّدًا.

الفصل الحادي عشر

كانت نصرا بنت رمضان تسمع صوته، تصلها أنفاسه، يكاد جسدها يحسّ بزغب ساعديه وصدره، وكلّما حرّكت يدها بدت لها أصابعها كأنّها تتخلّل شعر رأسه الكثّ الّذي لم يحلقه قَطُّ.

ففي الماضي كانت، عندما يهجع في البيت، تحبّ أن تدهن شعره بالزّيت ثمّ تقلّده في جدائل صغيرة، تربطها خلف رأسه، وكثيرًا ما يستسلم لأصابعها وهي تدلك فروة رأسه وجبينه فينام حتّى الشّخير.

صوته المبحوح، عيناه الخجولتان، ضخامة كفّيه، أنفه الحاد، أذناه الكبيرتان اللتان كانت تضع كفّها أحيانًا لتقيس اتّساعهما، هدوؤه الملحوظ، بطء حركته، طوله الفارع، صمته العميق، حزنه الّذي لا يقاس، تفاصيله الصّغيرة الّتي تحبّ، كلّ ذلك تراه وتسمعه وتحسّه، وفوق كلّ ما ذُكر هي ما تزال تشعر بحرارة روحه، ووهجه في قلبها كأنّه خرج لتوّه من باب البيت، فكيف تصدّق أنّه غرق ومات في أعماق الفلج؟

استمرّت تقف كلّ يوم عند الباب تُراقب الطّريق، وتنظر بين

الأشجار علّها ترى خياله يتحرّك نحوها، فإذا اشتدّ بها الشّوق يُخيّل إليها أنّها رأت ظلّه، أو لمحت حركة يديه مُلوّحة بين الأغصان. وعندما تخرج إلى جاراتها يتمثّل لها بين سكك الحارات، فتعود راكضةً إلى حيث تظنّ أنّها شاهدته لكنّها لا تجد سوى الفراغ.

يزداد العتاب ويتكاثر الكلام فيملأ صدرها، وتصيغ التفاصيل والكلمات في انتظار عودته، ستقول له كذا وكذا، ستمنعه في المرّة المقبلة من السفر، ستصرخ في وجهه وتغضب، لكنّها تعرف أنه ما إن يعود وتسطع رائحته في أنفها، ويحتضنها حتّى يندثر ذلك الجدار الذي شيّدته في مواجهة غيابه.

إنّها ترى فيه إنسانًا غير الذي يراه النّاس، النّاس الذين يقيسون بمسطرة الجاه والمال والمكانة الاجتماعيّة، ويعدّون كُلًّ مختلفٍ عنهم مجنونًا أو ممسوسًا، ولطالما حمدت ربّها على بذرة الحُبّ التي ألقاها في صدرها لتكبر يومًا بعد يوم حتّى صارت شجرةَ عشقٍ فارعة، كثيفة الظلال.

تدخل بيتها، تتّكئ على وسادةٍ ذات غطاء أحمر مزركش بخيوط خضراء وزرقاء، وتضع رأسها بين يديها وتفكّر. كانت بعض ملابسه ما زالت معلّقة على حبل الغسيل، رفعت رأسها على إثر رفرفة الأقمشة: إزاره البنيّ، دشداشته الرّماديّة، وكمّته ذات النّجوم الخضراء. أغمضت عينيها وحدّثت قلبها عن الفقد فلم تستسغ تلك الكلمة، فالفقدُ أن تدفن المحبوب بيديك، أن تواريه

التّراب، أو تراقب الرّجال يأخذونه من بين يديك في اتّجاه المقبرة وأنت تحاول تأخير النّعش كي لا يغادر المكان ويغادرك.

سوف تنتظره، كلّ شيء سيبقى على حاله، البيت، وملابسه الّتي تُبخّرها بالصّمغ واللّبان كلّ يوم. سوف تنتظره حتّى يقف عند عتبة ذلك الباب. وسوف تبني في داخلها -كما تعوّدت- جدارًا كبيرًا من كلام العتاب وتتركه ثابتًا ساكنًا حتّى تحين السّاعة الّتي يعود فيها.

قامت من مكانها وأخذت منجلها وخرجت تمشي بين النّخيل باحثةً عن الحشائش كي تعود بها إلى بقرتها. وقابلت في دربها بعض النّساء فسألنها عن زوجها، أمازال في سفرته أم عاد؟ فأجابتهنّ مثلما كانت تفعل من دون أن يبدو عليها أيّ انفعال. طرقت دروب القرية وضواحيها حتّى الظّهيرة، ثمّ عادت وهي تحمل على رأسها لفّة كبيرة من الحشائش.

وصلت إلى بيتها وقد جفّ حلقها من العطش، تناولت كوبًا من ماء الجحلة البارد ودلقته في جوفها، ثمّ جلست تستريح قبل أن تقوم لتطبخ غداءها.

دخلت الغرفة فلاقتها الرّائحة عند الباب، رائحته الكامنة في كلّ شيء حولها: في مندوسها القديم الذي تحتفظ له فيه بعطر عودٍ كان قد ابتاعه من بائع بضائع متجوّل، في ملابسه المكدّسة على الزّاوية، في دشاديشه المعلّقة على الجدار، في مصحفه المتّكئ على الروزنة، وفي الشرشف الّذي يتغطّيان به... نعم، رائحته في الأشياء

كلّها، حاضرة وحيّة، وهي كما هي تملأ وقتها في انتظاره كأنّه خرج لبعض الوقت وسيعود.

تتذكّره وهو يضع أذنه على بطنها ويسمع رغاء أمعائها، ويقول لها إنّ جريان الماء داخل عروقها يشبه جريانه في باطن الأرض، وأيضًا عندما يُنصت إلى دقّات قلبها ويُعلّق قائلًا إنّ قلبها هو قلب الأرض، وإنّها أرضه المليئة بالعجائب.

ويكاد يسمع أفكارها الّتي تُحدّث بها نفسها، فتقول له مازحةً:

-لا تسرق كلامي.

فيضحك، ويقول:

-أسمع كلّ شيء فيك إلّا هواجسك.

وعندما يسطع الصّيف بلهيبه يخرجان إلى سطح البيت ويفترشان أرضه تحت النّجوم السّاطعة، فيضع رأسه في حجرها مستلقيًا ينظر إلى تخوم السّماء بنجومها البعيدة وهو يسمّي كلّ نجمة ويحدّثها عنها، وعن دورها في مواقيت الفلج، ومتى تشرق ومتى تغرب.

كانت بحّة صوته وانخفاضه محبّبين لديها، ولا يتحدّث بصوت عال قطّ، بل يهمس حتّى تكاد لا تسمعه، وهي المرأة القادمة من مكان يتحادث فيه النّاس بأصوات عالية كأنّهم يتنادون من بعيدٍ. ولكم أعجبتها الحياة مع رجلٍ لا يكترث بالمديح ولا بالذمّ، ولا يستمع إلّا إلى صوت الماء المنبعث من أعماق الأرض.

والحقّ أنّها استشعرت الخطر منذ اللّحظة الّتي أخبرها فيها بنيّته مُرافقةَ الرّجل وخدمة الفلج المندثر في تلك القرية البعيدة. أحسّت بالخطر كمسمار يُغرَس في قلبها، وبالخوف يموج في بطنها، فبعد أن مات أبوه نتيجة انهيار الفلج عليه، صارت تضع يدها على قلبها لكلّ حديث يتحدّثه عن خدمة الأفلاج.

وهو أيضًا كره الخدمة والأعماق، وكره كلّ ما يتعلّق بها، فدهن مطرقته بالزّيت خوفًا من أن تصدأ ولفّها في خرق كثيرة، وأودعها مندوسه الخشبيّ العتيق.

لم يعرف ما الّذي عليه أن يفعله بالمبلغ الكبير الّذي جمعه سوى ادّخاره، فقريته خالية من أنشطة التّرفيه الّتي يمكن أن يستغلّ فيها ماله، وهو لم يفكّر في شراء بعض النّخل، وحتّى لو فكّر ما كان ليجد بائعًا، ففي قريته يتمسّك النّاس بنخيلهم وبساتينهم ولا يفلتونها، وإذا ألحّت عليهم الحاجة يلجؤون إلى الرّهن، وقد يستمرّ لسنوات طويلة حتّى يتمكّنوا من فكّه عن بساتينهم.

كانت زوجته قد أحبّت رعي الأغنام في صباها، فطرحت عليه فكرة شراء بعضها والاستفادة من لحمها وحليبها وسمنها، فلم يردّ طلبها واشترى بعض الأغنام وبقرة.

وبنى لها حظيرة خلف البيت على ضفّة الشرجة القريبة، فظلّت سنواتٍ عديدةً ترعى أغنامها وتستفيد من مواليدها وسمنها وصوفها، ولم يكن ينقصها شيء سوى أن يرزقها الله بطفل تتسلّى به ويكون لهما عونًا في قادمِ الأيّام.

اقترحت عليها النّساء أن تذهب إلى البصّارين والعطّارين ولكنّها كانت تقول لهنّ:

-بو يجي من الله حيّاه الله.

وكلّ صباح تسوق أغنامها وتصعد بها الجبل لتعبر إلى وادٍ تسرح فيه مواشي القرية، فترعى من عشب الجبال باحثةً بين الصّخور الصلدة عن أعوادِ عشبةٍ يانعة، وتجلس هي على شرفة إحدى القمم ترقب القطيع تحتها، أو تحت ظلّ سدرة أو غافة، متتّبعةً عن قرب تحرّكات شياهها، وعقلُها سارح في بقاع أخرى، يبحث عن الأمكنة الّتي تاه فيها سالم بن عبدالله القافر. تتخيّله حاملًا على رأسه لفّة القماش الّتي فيها ملابسه وأدوات الحفر، عابرًا سيوحًا ووديانًا، صاعدًا جبالًا وهابطًا تلالًا، وعائدًا إليها.

كانت تتحرّك صامتةً، كأنّها فقدت القدرة على الكلام والفرح، فهجرت الأغاني شفتيها إلى غير رجعة، كانت خائفةً ومتوجّسة، لكنّها في الآن ذاته متيقّنة من أنّ زوجها غائب في أرض الله، مثله مثل كلّ المسافرين الّذين غابوا عن أوطانهم وبيوتهم ثمّ عادوا إليها بعد زمنٍ طويل.

رأوها تجلس عند قنطرة الفلج مُنكِّسَةً رأسها تتأمّل انعكاس القمر على وجه الماء. وقال أحدُهم إنّه رآها تجتاز الوادي وتصعد قمّة الجبل وتجلس هناك في عتمة اللّيل تستقبل الدّرب من جهة المشرق. وقد بدا له أنّها تُحدّث أحدًا أو تكلّم شبحًا مّا.

صامت عن الكلام وكفّت عن الظهور فكثرت الأقاويل والتّأويلات. قالت امرأة إنّها شاهدتها تجلس قرب حافّة بئر الغريقة، تضع يديها على حافته وتحني عنقها مُدخلةً رأسها في البئر، وإنّها كانت تبقى على هيئتها تلك مدّة طويلة.

وعلّقت امرأة من اللّواتي سمعن الحكاية «الحرمة تسمع كلام أهل الطوي».

وقالت أخرى «تكلّمها الغريقة كما كانت تكلّم ولدها».

وزادت امرأة عجوز انحنى ظهرها وتقوّس وهي تمشي بينهنّ باحثةً عن موضع تجلس فيه «هذي المصايب كلّها من ذاك المكان بو سكنوا فيه، كلّ المصايب تجي من هناك».

وبعد أن استراحت ووضعت هراوتها بقربها رفعت رأسها تتأمّل وجوه النّساء من حولها وقد ضيّقت أهداب عينيها حادّة بصرها الّذي أخذ الزّمن بعضه، ثمّ قالت بصوتٍ مُتهدّج به حشرجة تخرج من أعماق صدرها:

-المكان النحس يبقى نحس، حتّى لو خطفت عليه السّنين ونسيوه النّاس.

فأنصتت النّساء لتلك المرأة العجوز وهي تجرّ كلماتها جرًّا وتخرجها بصعوبة لتحكي حكايتها العجيبة ومفادها أنّ مسيعيد ود خلفون فعل أمرًا لم يفعله أحدٌ قبله إذ خرج من الحارة ليبني بيته في ذلك المكان ويسكن وحيدًا منفردًا بنفسه وأسرته. وكان ذلك

بعد خلاف بينه وبين أخيه على خاتم فضيّ ورثاه عن أبيهما وأراد كلّ واحد منهما أن تتشرّف به إصبعه. ولمّا كبر النّزاع تدخّل شيوخ البلدة للإصلاح بينهما ولكن بلا فائدة تُذكر.

كان الخاتم موضوعًا في لفافة من القماش، محاطًا ببعض حبّات اللّبان إكرامًا للميّت لما يحتويه ذلك الخاتم من أعمال روحانيّة تُكرّم حامله وتُعلي من صورته في عيون النّاس. فهو لم يكن خاتمًا عاديًّا، وكان الشقيقان يعلمان أنّه السبب الذي جعل والدهما يستحوذ على تقدير النّاس ومحبّتهم له حتّى اللّحظة الّتي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة.

يُقال إنّه ابتاعه من مدينة بعيدة تسمّى نزوى، وإنّ صاحبه جاء به من السّواحل الشّرقيّة لأفريقيا، ولكن تلك كلّها مقولات يتناقلها النّاس، ولا يعلم الحقيقة إلّا صاحبه، وقد دُفنت معه.

سمع بالأمر صديق لوالدهما يسكن قرية أخرى فجاء، واقترح عليهما أن يُدفن الخاتم في مكان لا يعلمه أحد، وأن يُرفع عنهما تمامًا، فأُعجب النّاس بذلك الحلّ إلّا أنّ الأخوين لم يرضيا به وظلّا يُطالبان بحقّهما في حمله.

إنّه الخاتم الفضيّ ذو الفصّ الياقوتيّ الأحمر، الخاتم الّذي يلمع ليل نهار ولا يصيبه الصّدأ، ويزداد بياض فضّته مع الأيّام، وتُشعّ في العتمة ياقوتته إلى حدّ جعلَ النّاس يعرفون صاحبه عندما يمرّ في اللّيالي الدّامسة الظلمة.

ولم يجد شيوخ القرية بُدًّا من تنفيذ الحلّ الّذي اقترحه الرّجل، فأخذوا الخاتم وأعطوه إيّاه، فطلب منهم عدم تتبّعه، وخرج من القرية وغاص عميقًا في الجبال ولم يعد.

قيل إنّه قصد الصّحراء ورمى به في بحر الرّمال، وقيل إنّه أخذه ولبسه، لكنّ المؤكّد أنّ الرّجل اختفى تمامًا ولم يعد يُسمع عنه خبر في القرى المجاورة.

غضب مسيعيد ود خلفون على الجميع وانتقل من وسط الحارة إلى ضاحية القعتة، وبنى هناك بيتًا صغيرًا على تلّة حجريّة وعاش مع زوجته وأطفاله، منقطعًا عن النّاس.

ولم يلبث أن أُصيب بلوثة في عقله، فصار يضحك ويصرخ في اللّيل، ثمّ بدأ في تعذيب أطفاله وزوجته، ما جعل النّاس يسمعون صراخهم واستغاثتهم، ويهبّون لإنقاذهم، وهكذا عادوا بهم إلى وسط الحارة، وظلّ وحده هناك زاعقًا في كلّ خيال يراه.

ثمّ اختفى صوته فجأةً، لم يعد أحد يسمع صراخه. ولمّا اقترب النّاس من بيته وبحثوا عنه لم يجدوا له أثرًا، فقيل إنّ الخاتم قد ناداه وذهب باحثًا عنه وربّما تاه في سلسلة الجبال أو غرق في الصّحاري البعيدة ومات من العطش وطمرته الرّمال. وحين فرغت المرأة العجوز من الحديث عن الأخوين وما جرى لمسيعيد بن خلفون لفّت لحافها الأسود على مبسمها وقالت «بو يسكن فهذا المكان ملعون، الخاتم يناديه، يطلع في كلّ مرّة بصورة، وهذي المرّة طلع كأنّه صوت ماي يسمعه سالم بن عبدالله».

نفخت النّساء من حولها في ملابسهنّ وهنّ يستعذن بالله من الجنّ والشّياطين، وبصقن حولهنّ وتشهّدن على وجوههنّ. وباتت القعتة المكان الّذي لا يودّ أحد عبوره في النّهار، ولا يتمنّى مُطلقًا أن يمرّ به في الظّلام.

تمرّ الأيّام وتنقضي، وتهبّ الرّياح الغربيّة من ناحية الوادي تحمل معها لهب الهجير، وفي اللّيالي الصّيفيّة المقمرة يُسمع عويل أطفال لم يستطيعوا النّوم على سطوح بيوتهم بسبب حرارة الجوّ الخانقة وقرصات البعوض، ويتعالى نباح كلاب على قمّة جبل بعيد تجاوبه كلبة من ضفاف وادٍ قريب من بيت أحد الرعيان، وتستمرّ اللّيالي والأيّام كلّها متشابهة، ونصرا تكرّر أفعالها ولا هدف لها سوى الوقت في انتظار زوجها ذاك الانتظار الّذي لا تعلم متى سينتهي.

ويأتي الخريف بطيوره المختلفة المنتقلة من غصن إلى آخر، لكن سالم لا يعود مع الطّيور المهاجرة، وتظلّ هي ترقب حركاتها، تحصي ألوانها، وتؤرّخ الأيّام الّتي ظهرت فيها، لعلّه يظهر فتخبره بأنّه عاد في اليوم كذا الّذي جاءت فيه طيور الرقراق، أو بعدما سمعت أمّ البوبوة تصدح بصوتها من بين أوراق شجرة اللثب. تتشابه الأيّام كلّها، ولكنّها تحفظها وتجعل لكلّ يومٍ ذاكرةً تنوي إخباره عنها عندما يعود.

ويجيء الشّتاء ببرده الّذي ينخر العظام، وبعتمته المبلّلة بالمطر والرّياح القارصة، فتشعل الصريدان وسط غرفتها وتنام بالقرب منه طلبًا للدّفء، وحيدة ليس يُرافقها إلّا أملها بعودته إليها،

وفي الخارج تهدر الوديان بسيولها وهي تجرف في طريقها الحصى والأشجار.

تخبو الأصوات، تنام الكائنات في مخابئها، ولا يتردّد في جنبات الجبال سوى صياح الثّعالب في ذلك اللّيل البارد طلبًا للسِّفاد، ومن البعيد يأتي نباحٌ خافتٌ لكلبٍ أخذ البرد من قواه.

وعند قدوم الرّبيع، تخرج نصرا بشياهها إلى الجبال طلبًا للمرعى، هناك حيث أشجار الجبل العطريّة، الّتي كان سالم يمتدحها فيقول «الهايشة بو تأكل من مرعى الجبل لحمها ولبنها غير».

وتتلوّن الجبال بألوان الزّهور المختلفة فتزهر الحياة في روحها، عندما يُخيّل إليها وهي تراقب قطيعها من شرفات القمم أنّها ترى زوجها عائدًا.

والزّهور مثلما تتفتّح تذبل وتتساقط عندما تشتدّ حرارة المكان ويسري اليباس فيها. أمّا قلبها هي فيحمل زهرة حياتها الّتي لا تذبل، ولا تتعب من الانتظار والترقّب.

تمرّ الأيّام وتنقضي، تتكّئ على جدار بيتها منكِّسةً رأسها، يجيء أبوها مع إخوانها من قريتهم البعيدة، يشعلون أحاديثهم في ذلك الصّمت المهيب الّذي كانت تعيش فيه، فيقول والدها:

-يا بنتي هذا قضاء الله وقدره.

وقبل أن يكمل كلامه، ترفع يدها أمامها فتسكته، وهي تقول:

-يوم يبرد فقلبي، هذيك السّاعة أعرف أنّه مات.

لقد حاولوا إقناعها بأنّه غرق ومات، سمعوا الكثير من التّأويلات والحكايات المُلفّقة عن تلك الحادثة، بعضها يقبله العقل والبعض الآخر شطح كثيرًا في الخيال حتّى ادّعى أنّ القافر أخذه أهل الأرض السفليّة من الفلج وقيّدوه في بلادهم، وأنّه ينتظر الفدية ليخرُجَ بها ويعود إلى ذويه، وإلّا سوف يبقى محبوسًا إلى الأبد، لأنّ عالم الأرض السفليّة لا موت فيه ولا حياة، ولا أمل بأن يرقّ له قلب من أخذه فيعيده إلى فوق. وكلّما اتّسعت رقعة الزّمن وطالت حكاية القافر زاد النّاس فيها الكثير حتّى صارت تشبه الأساطير الّتي تناقلها الرّواةُ عن أسلافهم.

قال لها أحد إخوانها:

مكتبة
t.me/soramnqraa

-تروحي بلادك معنا.

فردّت عليه:

-وإذا رجع سالم وما لقاني في البيت؟

كانت تصرّ على بقائها هناك، في انتظاره، فهي في بيتها ولا يمكن أن تغادره حتّى يعود، أو يأتي من لديه خبر أكيد عن غيابه وموته.

خلال تلك الشّهور الّتي غاب فيها سالم بن عبدالله القافر جاءت أسرة نصرا مرّاتٍ عديدةً وذهبت. وفي كلّ مرّة يحاول أهلها ثنيها عن ذلك الانتظار الطّويل العابث، لكنّها تتحجّج بشيء مّا وترفض العودة، فيقوم بينهم وبينها نقاش ومجادلات، ويخرجون بعد ذلك غاضبين عائدين إلى قريتهم من دونها.

ولمّا انقضى ما يُقارب السّنة على غياب القافر قامت إلى نعاجها وأخذت مقصًّا وبدأت تجزّ صوفها واحدةً تلو أخرى. أعملت المقصّ في كلّ ما يمكن أن تقبضه يدها من صوف حتّى صارت النعاج عاريةً ولم يتبقّ على أبدانها سوى ذلك الزّغب النّاعم الخفيف.

حملت كومة الصّوف إلى البيت وغسلته وفرزته، ثمّ فرشته فوق زور النّخل كي لا تدخل الشّوائب بين ثناياه مرّة أخرى. وإذ فرغت من اختيار ما هو أنسب وأصلح، وضعت الباقي من فرزها في مكان آخر حتّى لا يختلط عليها.

كلّ صباح، وبعد أن تنتهي من مهامها اليوميّة، تبدأ العمل في ذلك الصّوف، بأصابع تدرّبت منذ الصّغر على الحلج والغزل. وكان ما جمعته من صوف نعاجها كافيًا لكي تصنع منه الكثير في وقتها الطّويل الممتدّ، والتشاغل هو كلّ ما تحتاج إليه كي يمرّ الوقت، وقد صارت تقيسه بخطوات سالم في أثناء عودته إليها.

كلّ أسبوع تذهب إلى مخاضة الفلج لتستحمّ هناك، تختار الأوقات الّتي يكون فيها المكان فارغًا، ثمّ تعود لتتزيّن وتتطيّب بأجمل ما لديها. تضع الكحل في عينيها، وتصبغ جبينها بالشورانة، وتُبخّر ملابسها بالصّمغ واللّبان.

وفي غمرة كلّ ذلك يقف قلبها هناك عند ناصية الباب، لعلّها تسمع نبرة صوته، أو وقع قدميه الّذي تعرفه جيّدًا. يقف قلبها مثل قطّ أليف ينتظر عودة صاحبه من الخارج ليتمسّح به.

ولمّا زارها أهلها آخر مرّة، طرحوا عليها أمرًا مختلفًا، وهو أنّ رجلًا من أعيان البلاد قد تقدّم لخطبتها وعليها تبعًا لذلك أن تترك بيت زوجها الّذي مات وتذهب لتعيش في بيت زوجها الجديد، لكنّها نظرت إلى عيني أبيها وقالت له:

-إذا سالم مات وماشي حيلة، أريد منكم طلب.

فتح الأب عينيه إلى أقصى حدّ ورفع حاجبيه بين الدّهشة وانتظار ذلك الطّلب، ثمّ قال:

-أيش طلبك؟

-أريد أغزل هذا الصّوف اللّي في المرواح.

وعندئذ تدخّل أخوها الأكبر قائلًا:

-تقدري تاخذي الصّوف معك وتغزليه هناك.

نظرت ناحيته وقالت:

-من أخلّص غزل كلّ هذا الصّوف، أوعدكم زوجوني وين ما تريدوا.

وعندما قال واحدٌ آخر من إخوانها:

-ومتى بيخلص هذا الغزل؟

ردّت عليه بهدوء تامّ:

-بيخلص يوم يخلص.

وجرّاء قولها ذاك خرج أهلها غاضبين عليها. لقد وعدوا الرّجل بأن يأتوا بابنتهم ويعقدوا زواجه بها، ولكنّهم لم يستطيعوا إقناعها، وهم لا يريدون غصبها على ذلك، فلم يجدوا بُدًّا من الانتظار ريثما تنتهي من غزلها.

بدأ المغزل في الدوران، بدأت خيوط الصّوف تمتدّ وتمتدّ بتأنٍّ وصبرٍ. كلّ خيط بمثابة زمنٍ طويل لا ينتهي، كلّ خيط يمضي مع الأيّام والشّهور، يتنامى حتّى تخاله لا حدّ له مُطلقًا، وكلّما انتهى خيط من خيوطها، بدأت في غزل آخر.

كانت تقضي جلّ وقتها أمام المغزل، وعيناها لا تريان سوى تلك الخطوط النّازلة إلى الأسفل، وذلك الدّوران البطيء لمغزلها. تغزل الصّوف، وتحوم بروحها حول كلّ خيط من خيوطه.

تسمّي الخيوط بأسماء أفلاج دَخَلها سالم بن عبدالله القافر ذات يوم وعمل بساعديه في البحث عن منابع مياهها. سمّت الخيط الأول السمدي، وتذكّرت ذلك الفلج الّذي حكى لها زوجها عن مياهه النّابعة من أقاصي الجبال.

كان خيط السمدي يمتدّ ويلتفّ حول قدميْها خفيفًا ناعمًا يكاد من لطافته تتحرّك فيه الرّوح، وأثناء غزلها له تتذكّر الحكاية الّتي لا تُنسى عن السمدي والأيّام الّتي عذّبت سالم بن عبدالله القافر حتّى يصل إلى مائه، وتتذكّر كيف ذبَح أهلُ القرية ثيرانهم وأقاموا وليمةً كبيرة دعوا إليها أهل القرى المجاورة، واستمرّ فرحُهُم

أسبوعًا كاملًا كانوا يهزجون فيه بالرزفات والمواويل، ويصدحون بالعازي، والقهوة والولائم تتعاقب صباحًا مساء.

وأطلقت نصرا على الخيط الثّاني اسم العفريت، ثمّ بدأت تغزله ليمتدّ ويمتدّ مثل فلج يضرب بقناته في أعماق الوديان البعيدة، وكانت قد سمعت حكاية فلج العفريت الّذي يقال إنّ أوّل من حفره عفاريت من الجنّ، استطاعوا في ليلة واحدة أن يشقّوا الأرض من القرية حتّى تخوم الجبال البعيدة.

وجاء بعد ذلك الشللي، النوّاح، البير، البحري، المطوّع، النهّام، الجوبي، وغيرها، الكثير الكثير من الأسماء، والكثير الكثير من الخيوط تغزلها أصابعها وتعيد إليها الحياة بأسمائها المائيّة.

كلّ خيط تغزله يستمرّ لأشهر عديدة، وكلّ حكاية تنسجها تكبر وتكبر، الخيوط تتوالد، والأفلاج تتكاثر، والأسماء الّتي تمنحها إيّاها لا تُنسى، ولا تتشابه، بل لقد صارت نصرا تعرف كلّ خيط باسمه حتّى لو تشابكت الخيوط وتعقّدت، تستطيع أن تحلّ عقدها من دون أن تلجأ إلى البتر.

وعاد أهلها بعد حين ووجدوها على حالها، ففاتحوها ثانية بأمر الزّواج، لكنّها تذرّعت بأنّ غزلها لم ينته بعد، وعبثًا أسمعوها كلامًا كثيرًا، فقد تجاهلت كلّ ما قالوه، وأشارت إلى مغزلها المعلّق أمامها وقد أخذ كثيرًا من ضوء بصرها من كثرة ما نظرت إليه وقالت:

-من يقول لي المغزل خلصت، تكون عدتي خلصت وأكون أنا جاهزة.

واستمرّ أهلها يجيئون لزيارتها فيجدونها على تلك الحال: ما إن تنتهي من أعمال بيتها حتّى تجلس أمام مغزلها وتفتح باب الأبديّة في انتظار الخيط الّذي سيأخذها إلى البعيد، كأنّ كُلَّ خيطٍ دربٌ يأخذها لتبحث عن زوجها في الوديان والجبال، بين الأشجار الكثيفة ومغاور الصّحراء والسّيوح الممتدّة، لعلّها تصادف الرجل الّذي احتفظت به في ذاكرتها، الرجل الذي طَالَ النّسيان كلّ شيء فيها إلّا وجهه.

النّهاية

يقف سالم بن عبدالله القافر عند خاتم الفلج مشجوج الرّأس، تكاد كتفه تنخلع من قوّة ارتطامها بجدران القناة، لكنّ الأمل عاد إليه، فلقد التمعت حديدة المسمار في قعر القناة قريبًا من الفرضة، رآها والتيّار يجرفه إلى الداخل.

حبس أنفاسه مرّةً أخرى وسبح عكس التيّار محاولًا الوصول إلى حيث التمع المسمار، لم يكن همّه هذه المرّة أن يتعلّق بجدار الفرضة، عليه أن يحصل على المسمار ومن ثمّ يبحث عن المطرقة، فقد يجدها قريبًا، سبح مستعينًا بالقعر، فاتحًا عينيه، باحثًا في بصيص الضوء الضئيل عن بُغيته.

حصل على المسمار أخيرًا، ووضعه في مأمن بالقرب من الخاتم، ثمّ كرّر البحث عن المطرقة متحسّسا القاع كلّما سبح عكس التيّار ذهابًا وجيئةً، وعندما كاد يفقد الأمل عثر عليها.

عند فم الخاتم كانت الأصوات تتداخل في رأسه؛ أصواتٌ قديمة، أصواتُ رجالٍ عمل معهم في حفر قنوات الأفلاج، أصواتُ عصافيرَ وبلابلَ وأطفالٍ، أصواتُ وديانٍ جارفة قادمة من

قمم الجبال، أصواتُ بكاءٍ مختلطٍ بضحكٍ غريب، أصواتٌ تناديه، أصواتٌ تهمس باسمه، أصواتٌ كثيرة تداخلت فجعلت عينيه تتوقّفان في محجريهما ولا تتحرّكان مُطلقًا، وقد استقبل بوجهه حلقة الخاتم، يبحث عن طريقة لاجتياز تلك الحلقة والدّخول منها.

كان عليه هو الرّجل ذو العضلات المفتولة والجسد الضّخم، والسّاعدين القويّين اللذين تعوّدا على حفر الصّخر وحمل أكوام الحجارة والأتربة، أن يدخل إلى ثقب الخاتم. سينتظر كثيرًا هناك، سينتظر المعجزة، سينتظرُ أن يدخل الجمل من ثقب الإبرة كما سيحدث في آخر الزمان، سينتظرها حتّى تنقذه من وحدته وعزلته، ومن أصوات العالم الّتي اكتظّت في رأسه، ومن هدير الماء من حوله.

كانت حلقة الخاتم أمامه، وأسماك الصدّ تقرض جروحه، لكنّه لم يعد يعبأ بها. كانت شدّة التيّار تدفع بالماء ناحية القرية، ويداه تمسكان بمحيط الخاتم وهو يحاول قياس سعته. يستطيع أن يدخل رأسه، غير أنّ كتفيه العريضتين سوف تعلقان، ومن أجل قيس الحلقة، فتح يده حتّى آخرها ثمّ وضع إصبع الخنصر على حافّة الثّقب والإبهامَ ممدودًا على آخره في الوسط حيث يشتدّ التيّار، محاولًا تثبيت كفّه المفتوحة، ثمّ أكمل القياس، بالشبر ونصف الشبر.

ولمّا رفع كفّه وقاس اتّساع كتفيه وصدره ووجده يزيد عن شبرين تمنّى لو أنّ كتفيه كانتا أضمر قليلًا ليُحاول حشر نفسه داخل ذلك الثّقب الحجريّ الصّلب العنيد الّذي تنكسر عنده أكثر المسامير صلابة وتتهشّم عنده أضخم المطارق وهو أعلم الناس بذلك.

استطاع العمّال الذين حفروا تلك القناة فَتْحَ الحلقة في وسط الصّخرة بعناءٍ وصبرٍ شديديْن، وحولها حفروا ثقوبًا كثيرة، وتلك الثقوب تساعد على تسريب كميّةٍ من الماء حتّى يخفّ ضغطُه خلف الصّخرة، وكلّ ثقبٍ باتّساع مسمارٍ ضخم. والقافر يعرف المدّة الّتي احتاج إليها العمّال لكي يستطيعوا صنع تلك الثّقوب بمطارقهم ومساميرهم الفولاذيّة، لذلك هو يدرك أنّ التّفكير في الخروج سريعًا من ذلك المكان ضربٌ من العبث، لكنّه ليس مستحيلًا.

تذكّر فلج السرى في بلدة الرفيعة، الفلج الهابط من منحدرات الجبل الكبير. تذكّر كيف شقّ الأقدمون قناته على الصّفحة الصّخريّة الرخاميّة الملساء. لقد نحتوا قناته في الحجر ثمّ ثقبوا الصّخور حتّى وصلوا إلى مجرى العين الّتي تنبع من أعالي الجبل. لن ينسى أبدًا أنّه وقف في الوادي متعجّبًا من ذلك الارتفاع رافعًا رأسه صوب القناة وقد أحنى رقبته إلى الخلف كي يستطيع رؤية الحفر الصّخريّ الرائع وهو يردّد في داخله:

«هذيلا ما ناس، هذيلا عفاريت».

وربّما قال ذلك لأنّه يعرف الحكاية القديمة الّتي يَعزو النّاس فيها حفر الأفلاج إلى النبيّ سليمان، ومفادها أنّه مرّ بعُمان وهو على بساط الرّيح، وقد أصابه شيء من العطش، فقرّر الهبوط إليها ليشرب، لكنّه وجد البلاد قاحلة، جافّة، فأمر جنوده من الجنّ بحفر الأفلاج في كلّ مكان، فحفروا في الصّحاري والوديان وشقّوا

الصّخور والجبال وأجروا المياه في قنواتها، حتّى قيل إنّهم حفروا أكثر من ألف فلج في ليلة واحدة.

ومنذ سمع سالم بن عبدالله القافر تلك الحكاية صار يتساءل عمّا إذا كان فلج السرى قد حفره عفاريت النبيّ سليمان، لأنّه من الصّعب على بشر أن يصلوا إلى ذلك العلوّ في جبلٍ أملس لا يمكن الصّعود إليه!

وطوال عمله في الأفلاج رأى الكثير من الخواتم المختلفة الأشكال، خواتم مربّعة وخواتم دائريّة، وخواتم أسطوانيّة تمتدّ مُتحاذيةً في صخور ضخمة يعبر منها الماء محدثًا صفيرًا يشبه صوت نايات كثيرة تتعالى في الوقت ذاته، ورأى أيضًا خواتمَ على شكل روازن متجاورة أو متراكبة، وحفرًا كثيرة قد تُركت لعجز الناس عن مواصلة العمل.

لقد جعله شغفه الكبير بالوصول إلى منابع الماء يكتشف أشياء ويتعلّم أخرى، حتّى صار على درايةٍ تامّة بأنواع الأفلاج، فهناك أفلاج تتكاثر فيها السّواعد وتدخل في رمال الصّحراء، وأفلاج تنبع من تحت الجبال، وأفلاج ضيّقة وسقوفها منخفضة، لا تتّسع إلّا لجسدٍ واحدٍ يمرّ من خلالها منبطحًا على بطنه، وأفلاج استطاع أن يمشي فيها واقفًا من فرط علوّ سقوفها.

وكلّ فلج اشتغل فيه عرف منابعه وشدّة جريانه وطريقة تقسيمه بين بساتين القرية. عرف كيف يقيسون الوقت بأثر الظلّ،

ورأى في بعض القرى عصًا في وسط القرية تقاس أوقات الماء على ظلّها المتمدّد.

كلّ قرية لها نظامُها وساعتُها الشّمسيّة، في قرية «الجناة» صُفّت حجارةٌ على الأرض ليُقاس عليها ظلُّ عصا قُطعت من شجرة العتم كانت تمتدّ لثلاثة أمتار، أمّا في بلاد «شنة» فوجد العصا قصيرة، وفي قرى أخرى صنعوا السّاعة الشّمسيّة من عمود معدنيّ.

في بلاده لا يحتاجون إلى ساعة شمسيّة ثابتة، فظلّ الرّجل يقاس بأثر قدمه، مهما كان طول الرّجل أو قصره، لذلك هم يحدّدون أوقات النّهار ويقسمون مياههم على عدد آثار الظلّ.

كلّ شخص في القرية يمكنه أن يحاضر الماء بقياس أثر ظلّه، إلّا اثنين منعهم شيخ القرية ووكيل الفلج من ذلك، هما سليمان ود منصور، وعبيد بن حارث، ورغم أنّ لهذين الرّجلين أموالًا ومياهًا يجب أن يأخذا منها نصيبهما، فقد كان عليهما أن يستعينا بأحدٍ غيرهما حتّى يقيس لهما أثر الظلّ.مكتبة .. سُر مَن قرأ

سليمان ود منصور، شخص متوسّط القامة، بدين الجسم، له ساعدان قويّان ورأس صغير، لكنّ قدميه كبيرتان مقارنةً بجسمه، لذلك عندما يقيس الظلّ يكون الأثر ناقصًا مقارنة بظلال الآخرين، وكلّما جاء موعده في سقي الماء يبدأ حسب قياس من سبقه، لكنّه يتخلّى عنه لغيره متأخّرًا وعذره في ذلك أنّ الأثر ما زال من نصيبه، حتّى يأخذ الوقت الّذي يليه، فإذا قام صاحبه بقياس الأثر اتّضح غير ذلك، وسليمان يصرّ على أنّ الأثر ما زال من حقّه.

أمّا عبيد بن حارث فعكس ذلك تمامًا، فهو رجلٌ طويلٌ وله قدمَا قزمٍ يبدو الأثر معه في كلّ مرّة يحاضر فيها الماء زائدًا، ويأخذ الماء قبل أوانه متحجّجًا بأنّ وقت نصيبه قد حان.

وكلّما حضر الاثنان مجلس القرية وجلسا متقاربين يبدأ التندّر بهيئتيْهما الغريبتين، فيُقال لهما إنّ كلّ واحد أخذ من الآخر شيئًا واستبدل به شيئًا من جسده، فقَدَمَا سليمان أخذهما عبيد، والعكس صحيح، لذلك هُما مُلزمان بالبحث عمّن بدّل أقدامهما ليعودا إلى طبيعتهما.

ويصدّق سليمان تلك الأقاويل، فيعود إلى بيته وقد ضاق صدره ويبدأ في تعنيف أمّه الّتي سمحت لهم بتبديل قدميه، ويلومها على أنّها كانت تتركه وحيدًا في البيت وتذهب إلى أعمالها اليوميّة في الحقول، من دون أن تأخذه معها أو تتركه في حراسة أحد.

وكلّما حاججته بأنّ خلقته كانت كذلك مُذ وُلد، وبأنّ الله سوّاها كما أراد ولا رادّ لخلقه، يهزّ رأسه ويقول عنها إنّها خَرفت، ويغلظ عليها في تحميلها الخطأ والذّنب حتّى تبكي. حينئذٍ يهدأ ويجلس متّكئًا على جدار البيت ويبدأ في بلع حبّات التّمر بسرعةٍ، كمن يأكل قبل هروبه من المكان.

وسالم بن عبدالله بيدار ابن بيدار، يعرف كلّ بادة في الفلج ولمن هي ومتى يأتي دورها، حاضر الماء مع أبيه ثمّ وحده نهارًا وليلًا، قاس أثر ظلّه في الفصول كلّها، ورآه يطول ويطول في الصّباحات

الباكرة، ثمّ يقصر ويقصر حتّى لا يتبقّى منه أثر سوى بقعة صغيرة تُظلّل قدميه في هجرة الصّيف، رأى ظلّه يدور حوله في الشّتاء، وتعلّم كيف يكون دقيقًا في محاضرة الماء ومواقيته.

عرف كلّ بادة وحفظ اسمها، بادة الشريعة، بادة الوقف، بادة نص النّهار، بادة الطّين، بادة البلاد، بادة أولاد حمد، كلّ بادة لها أثرها، ومداها، حاضرها جميعًا وعمل في مائها بأجرة البيدار، يأخذ نصيبه من الثّمار ومن كلّ نخلة عذقًا واحدًا.

تغرب الشّمس، فيبدأ في محاضرة الماء بالنّجوم، يعرف كلّ نجم في السّماء وكم له من الأثر، ينظر إلى صفحة السّماء المكتظّة ويبدأ في ترديد ما يراه: «الكوي، الطير، الغراب، الأدم، الثريا، الشّرطين،...»، منذ بداية اللّيل حتّى بزوغ الفجر، يعرف المواقيت ودورة القمر الشّهريّة، ويستطيع قياس منازل النّجوم، تعلّمها طفلًا من أبيه وأمّه، وبها تفوّق على أقرانه في القرية.

وفي تلك اللّحظة وهو سجينٌ في الفلج تلمَّسَ الصّخر الصّلد أمامه، وتلمّس الثقوب حول الخاتم، أدخل المسمار في أحدها فتوغّل قليلًا ثمّ توقّف لضيقٍ في الدّاخل، وعندئذٍ طرق برفقٍ على المسمار ليستشعر مدى صلابة الصّخرة، فعاد المسمار إلى الخلف قليلًا. ثمّ طرق بشدّةٍ فسمع طنينَ المعدن، وضرب بعد ذلك على المسمار يمنةً ويسرةً حتّى تحلّل فأخرجه، وقرّب عينه من الثّقب وتمعّن في داخله فلم ير سوى العتمة. ملأ فمه بالماء، ثمّ قرّبه من فتحة الثّقب ونفخها في داخله. فتسرّبت قطراتُ الماء في بطن الثّقب، وإذ أعاد

الكرّة عرف أنّ الثّقب ليس مغلقًا، وأنّ الماء يتسرّب منه إلى الجهة الأخرى.

أعاد تلك التّجربة مع عدّة ثُقوب حول الخاتم، فألفى بعضَها مفتوحًا وبعضَها مغلقًا، وقاس المسافة بين تلك الثّقوب وبين فتحة الخاتم الكبيرة فوجد تفاوتًا في المسافات، فشبر بأصابعه بين كلّ ثقبٍ وثقب وبين كلّ ثقبٍ والخاتم، وبدأ يعيد حساباته: كيف سيبدأ وما الّذي يمكنه أن يفعله؟

«ماذا لو حفرتُ عموديًّا من فوهة الخاتم إلى الأعلى حتّى الثّقب الأوّل؟»، سأل نفسه، ثمّ رفع المسمار وثبّته على الصّخرة في فم الخاتم بالضبط وبدأ الطّرق عليه طرقاتٍ خفيفة. ولم يلبث أن أزاح المسمار وتحسّس بيده مكان الطّرق فاتّضحت له الأثلام الّتي خلّفَتْها ضرباتُه. وحاول أن يضاعف الطّرق ولكنّ الماء امتصّ قوّة الدّفع إلى الأعلى فأبطأت المطرقة من شدّته ولم تؤثّر كثيرًا في مكان المسمار.

فكّر في طريقةٍ أخرى، أن يغرز المسمار بانحناءٍ حادٍّ على أحد الثّقوب، ويبدأ في طرقه من الأعلى مُستفيدًا من ذلك الفراغ فوق رأسه، فقد كان يستطيع أن يرفع فيه المطرقة عاليًا ثمّ يهوي بها على الصّخرة.

عليه أوّلًا أن يُسند المسمار إلى الصّخرة بمَيَلانٍ حادٍّ حتّى يقف ويثبت، ثمّ يطرق عليه طرقًا خفيفًا يشتدّ مع الوقت إلى أن تغوص

مقدّمته تمامًا في الحجر، وعندئذٍ يستطيع أن يهوي بكلّ ما بقي له من قوّة على رأس المسمار.

وإذا هو ينسى سجنه، ينسى آلامه، ينسى العتمة الّتي حوله ويتحوّل كلّ شيء عنده إلى منظور، استطاع أن يرى الثّقوب، ولمعان الماء المتموّج حول الخاتم. أجل لقد رأى الثّقوب الكثيرة الّتي يقف أمامها محاولًا خلع ذلك الفاصل بينها وبين الخاتم.

عادت إليه قوّته، همّته الّتي فقدها من طول مكوثه في ذلك السّجن القسريّ، فثبّت المسمار وبدأ الطّرق عليه مستمتعًا بصوت الرّنين، وعمل ساعدُه بحركةٍ يعرفها جيّدًا مُسدّدًا طرقات لا تخطئ هدفها مطلقًا، وكان القافر قد اعتاد أن يهوي بالمطرقة من فوق رأسه من دون النظر إلى موقع المسمار، فلا تذهب الضّربة بعيدًا، بل تتوقّف هناك تمامًا حيث يُراد لها، من دون أدنى شكّ في انحرافها واتّجاهها إلى مكان آخر.

ترتفع المطرقة في البداية لمسافةٍ قليلةٍ وتهبط، ترتفع بسرعةٍ وتهبط مسرعةً، ولكنّ ضرباتها ليست بالقوّة الّتي تمكّن المسمار من الغوص كثيرًا. يحتاج القافر إلى إيقاف الحديدة على مقدّمتها لترتفع أكثر، وسوف تتحسّس يدُه ثباتَها.

صار الزمن دائريًا مفتوحًا على الأبديّة، ولم يعد مستعجلًا على تثبيت المسمار، ولا يهمّه الوقت الّذي سيصرفه أمام البوّابة الصّخريّة الّتي تفصله عن الهواء والضّوء والحياة.

ومثل الصائغ الّذي ينقش الفضّةَ الساكنة بين يديه بكلّ هدوء وحرفيّة، كان سالم بن عبدالله يعمل في تلك اللّحظة، فيعالج نقشه في الصّخرة الصمّاء بطَرْقاتٍ خفيفةٍ يعلم أنّها تفعل في الصّخر ما لا يفعله الطَّرْقُ الشّديد.

ويقول لنفسه «حبل الدوم قاطع الحجر».

بدأ المسمار يتوغّل في الصّخرة، مُتّجهًا صوب الخاتم في مَيَلانٍ خفيفٍ يمسّ القشرةَ الخارجيّة ولا يغوص عميقًا في الحجر. والقافر يحرّك يده ويهزّ المسمار حتّى إذا أدرك ثباته تركه وأمسك المطرقة بيديه، ورفعها أكثر ثمّ هوى بها على رأس المسمار.

شقّ المسمار طريقه إلى الأسفل، كلّ طرقة على رأسه تُسبّب اهتزازًا في جدران الفلج فتتساقط حبّاتُ رملٍ وحُصيّاتٌ صغيرة من السّقف والجوانب. كأنّها غضبٌ على ذلك الحبس، على تلك الجروح، على الماضي المرّ الّذي عاشه القافر في قريته، على الفقر المدقع، على تواتر الفقد، وعلى الشّوق الّذي ينزّ من صدره مثل أشواك شجرة صحراويّة. ومهما يكن الأمر فقد شقّ المسمارُ طريقَهُ مستسلمًا للغضب الجارف النّازل على رأسه حتّى وصل إلى فتحة الخاتم.

لمعت عينا سالم وسط الظّلام، وكبر الأمل في صدره، وقد عادت إليه قوّته فأعاد التّجربة في ثقبٍ آخر. وسرعان ما هوَتْ قطعةٌ حجريّةٌ كبيرةٌ في الماء فجَرَفها التيّار معه، واتّسع الخاتم قياس

ثلاث عُقل ونصف. مرّر كفَّهُ إلى الدّاخل وتحسَّسَ الصّخرةَ فوجد فيها شقوقًا كثيرةً وعرف أنّها ستتهاوى مع الطَّرْق، لكنّه يحتاج إلى قوّةٍ أشدّ حتّى تتهشّم بين يديه.

وبينما كان ينحت الثّقبَ الرّابع من دون أن يعرف مدى هشاشة الصّخرة في ذلك المكان، سقط المسمار إلى أسفل الثّقب وجرفه التيّار وعلق في الدّاخل في مكان لا يمكن ليده أن تصل إليه.

حاول مدّ يده ما استطاع، أدخل رجله لعلّها تصل ويبدأ في سحب المسمار ولكن بلا فائدة، كلّ أطرافه تصل إلى نقطةٍ تبقى بعدها مسافةٌ ضئيلة تفصله عن المسمار.

سقط المسمار، فتبخّرت أمانيه وأحلامه الّتي نمت. أغمض عينيه على العتمة، وتهاوى في حزنٍ عميق سرعان ما تولّد منه غضبٌ عاصف. صعد الدّم إلى رأسه وفار حتّى كاد يُنْفَث من عينيه وسط تلك العتمة الحالكة، وقد تحوّلتا إلى جمرتين تتقدّان في الظلام.

فقد إحساسه بالأشياء من حوله، تحوّل فجأةً إلى إعصارٍ هادرٍ من الغضب، رفع مطرقته وهوى بها على الصّخرة، وعاود ذلك مرارًا وتكرارًا حتّى ارتجّ المكان، وبدأ الغبار يتصاعد من الحجارة المتساقطة.

تتالت الضّربات، وتحوّل جسدُه كُلُّه إلى يدين لا همّ لهما إلّا ضرب ذلك الجبل الجاثم أمامه كأنّه يضرب كلّ ما عاشه مُذْ كان طفلًا، يهوي بالمطرقة على سجنه، على غيابه، على اليأس من مُغادرته

تلك العتمة، على شوقه الجارف إلى زوجته، على الهدير الّذي يصمّ أذنيه ويمنعه من سماع أيِّ شيءٍ سواه، على العزلة الّتي تمتدّ وتمتدّ، وعلى الفكرة الّتي لا يرغب في مواجهتها... لم يكن يعلم أن جسد الصّخرة يتداعى أمامه، كان غائبًا في غضبه، متّحدًا مع مطرقته في هدم كلّ الجدران الّتي واجهته، وهو الوحيد، الغائب، السّجين، الموجوع، الجائع، العطش...

تداعت الصّخرة أمامه، وانفتح الخاتم على النّفق الطّويل، فانطلق الماء بقوّةٍ وجرف معه كلّ شيء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

زهران القاسمي:

شاعر وروائيّ عُماني من مواليد 1974 م.

صدر له :

1/ **أمسكنا الوعل من قرونه**، (شعر)، دار الانتشار، بيروت 2006.

2/ **الهيولى**، (شعر)، دار الفرقد، دمشق 2007.

3/ **أغنّي وأمشي**، (شعر)، دار الفرقد، دمشق 2007.

4/ **يا ناي**، (شعر) بالاشتراك، دار ميريت، القاهرة 2008.

5/ **سيرة الحجر1**، (حكايات قروية)، دار الفرقد، دمشق 2009.

6/ **الأعمى**، (شعر)، دار الدوسري، المنامة 2011.

7/ **سيرة الحجر 2**، (نصوص)، دار نينوى، دمشق 2011.

8/ **موسيقى**، (شعر)، دار الفرقد، دمشق 2012.

9/ **جبل الشوع**، (رواية)، دار الفرقد، دمشق 2013.

10/ **رحيق النار**، (شعر)، دار الغشام، مسقط 2013.

11/ **القنّاص**، (رواية)، دار مسعى، البحرين 2014.

12/ **كاميرا**، (شعر)، دار مسعى، البحرين 2015.

13/ **مراكب ورقيّة**، (شعر)، دار أروقة، القاهرة 2016.

14/ **جوع العسل**، (رواية)، دار مسعى، البحرين 2017.

15/ **أوصدتُ عليك الباب وبقيتُ سجينًا في الخارج** (شعر)، دار الفراشة، الكويت 2019.

telegram
@soramnqraa

زهران القاسمي

تغريبة القافر

فقد إحساسه بالأشياء من حوله، تحوّل فجأةً إلى إعصارٍ هادرٍ من الغضب، رفع مطرقته وهوى بها على الصّخرة، وعاود ذلك مرارًا وتكرارًا حتّى ارتجّ المكان، وبدأ الغبار يتصاعد من الحجارة المتساقطة.

تتالت الضّربات، وتحوّل جسده كلّه إلى يدين لا همّ لهما إلّا ضرب ذلك الجبل الجاثم أمامه كأنّه يضرب كلّ ما عاشه مُذْ كان طفلًا، يهوي بالمطرقة على سجنه، على غيابه، على اليأس من مُغادرته تلك العتمة، على شوقه الجارف إلى زوجته، على الهدير الّذي يصمّ أذنيه ويمنعه من سماع أيّ شيء سواه، على العزلة الّتي تمتدّ وتمتدّ، وعلى الفكرة الّتي لا يرغب في مواجهتها... لم يكن يعلم أن جسد الصّخرة يتداعى أمامه، كان غائبًا في غضبه، متّحدًا مع مطرقته في هدم كلّ الجدران الّتي واجهته، وهو الوحيد، الغائب، السّجين، الموجوع، الجائع، العطش...

تداعت الصّخرة أمامه، وانفتح الخاتم على النّفق الطّويل، فانطلق الماء بقوّةٍ وجرف معه كلّ شيء.

ISBN: 978-9938-74-000-4
9 789938 740004